جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم التاريخ والحضارة

دراسات
في
تاريخ الدولة العثمانية

الدكتور
السيد محمد الدقن
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
والرئيس السابق لقسم التاريخ والحضارة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على افضل الخلق اجمعين ، سيدنا محمد النبى الكريم . وعلى آله وصحبه الى يوم الدين .

وبعد

فان الدارس للتاريخ الاسلامى يلاحظ حقيقتين هامتين : الاولى أن الاسلام كدين عالمى أنزله الله لاصلاح ما افسده البشر ، ولتقويم السلوك الانسانى عامة ، قد انتشر بين مختلف الاجناس دون تفرقة ولا تمييز بين جنس وآخر عملا بقوله تعالى : ((**يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم** .. الآية)) (١) ومن ثم فقد صار الاسلام بالنسبة لهذه الجنسيات المختلفة هو الوشيجة التى تربط بين قلوبهم ، والبوتقة التى ذابت فيها قومياتهم المختلفة ، فالتفوا حوله ، وحملوا رايته مدافعين عنها ، وبذلوا أرواحهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فارتفعت راية الاسلام خفاقة فى كل اتجاه .

والحقيقة الثانية — وهى مرتبطة بالحقيقة الاولى اشد الارتباط بل ومترتبة عليها — أن الفتوح الاسلامية لم تكن سلسلة متصلة الحلقات من الحروب ، بل اتخذت شكل وثبات أو مراحل ، تأتى كل مرحلة عقب دخول عنصر جديد فى الاسلام ، فلا تكاد الدعوة الاسلامية تنتشر فى قطر من الاقطار ، أو بين قبيل من الناس ، حتى يستجيبون لندائه القوى ، ويبعث الايمان فى نفوسهم روحا جديدة وينهضون للغزو والفتح رافعين راية الاسلام فى يد ، والسيف فى اليد الاخرى ، ويبداون سلسلة من الفتوح يمدون بها لواء الاسلام على اقطار جديدة .

---

(١) سورة الحجرات (الآية ١٣) .

وقد كانت **المرحلة الاولى** على يد القبائل العربية التي ما أن انطوت تحت راية الاسلام حتى اندفعت من شبه الجزيرة العربية حاملة راية الاسلام الى العراق وفارس والشام ومصر وشمال افريقيا والاندلس وكانت **المرحلة الثانية** على يد الاتراك السلاجقة والبربر الذين دخلوا الاسلام فنشروا لواءه على آسيا الصغرى وغرب افريقية ، كما أوصلوه شرقا الى شمال الهند على يد السلطان محمود الغزنوي ثم تأتي **المرحلة الثالثة** والاخيرة على يد الاتراك العثمانيين (وهم موضع دراستنا في هذا الكتاب) الذين دخلوا الاسلام وقامت دولتهم في آسيا الصغرى في الركن الشمالي الغربي من العالم الاسلامي ، وقد أمدتهم العاطفة الاسلامية المتأججة في نفوسهم بروح وثابة ، امتزجت بالروح العسكرية المتأصلة في كيانهم فحملوا راية الاسلام وأقاموا أكبر دولة اسلامية عرفها التاريخ الاسلامي في قرونه المتأخرة ، امتدت في ثلاث قارات هي : آسيا وأوربا وافريقيا ، فقد استطاع العثمانيون أن يزيلوا أعرق دولة مسيحية عرفها التاريخ الوسيط من الوجود ، وهي الدولة البيزنطية ، واتخذوا عاصمتها القسطنطينية عاصمة لهم ترفرف عليها رايات الاسلام وتنطلق من فوق مآذنها نداء الاسلام الذي أزعج أوربا وقذف في قلوبها الرعب ، كما استولوا على البلقان ووصلوا الى مشارف فيينا على نهر الدانوب والى جنوب الروسيا والى ساحل الادرياتيك وهددوا ايطاليا ، الامر الذي أزعج أوربا وجعلها تعقد التحالفات الصليبية أكثر من مرة لطرد العثمانيين من أوربا ، ولكن الفشل كان لهم بالمرصاد ، حتى ظهر في عالم السياسة الاوربية ما عرف باسم المسألة الشرقية التي كانت تعني حينئذ ضرورة تكاتف أوربا لمواجهة خطر العثمانيين وايقاف تيار فتوحهم الجارف ، ثم بعد أن ضعفت الدولة العثمانية نتيجة عوامل كثيرة يأتي شرحها في الكتاب ، تغير مفهوم المسألة الشرقية وأصبحت تعني ضرورة طرد العثمانيين من أوربا وتقسيم ممتلكاتهم ، هذا في الميدان الاوربي . أما في الشرق فقد بسط العثمانيون سيطرتهم على العالم العربي ، فأزالوا من خريطة العالم دولة المماليك البرجية ، التي كانت تحكم مصر والشام ولها السيادة على الحجاز ، كما ضموا العراق واليمن والمغرب العربي (عدا مراكش) الى ممتلكاتهم ، فأصبح البحر المتوسط بحيرة اسلامية تجوب الاساطيل العثمانية والمغربية التابعة لهم على صفحات مياهه في حرية كاملة ، ونعم العالم الاسلامي في ظل الحكم العثماني بفترة من الهدوء والاستقرار امتدت حوالي ثلاثة قرون ، حتى كان مطلع القرن التاسع عشر حيث بدأت أوربا — منتهزة فرصة ضعف الدولة العثمانية في الوثوب على العالم العربي ، فكانت أحداث الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ م وما تبعها من تنافس الدول الاوربية على اقتناص أجزاء لها من

العالم العربى ، وتشجيع الشعوب البلقانية على الثورة ضـد الدولة العثمانية ، التى حاولت جاهدة استعادة شبابها عن طريق الاصلاح ، ولكن انى لها ذلك واوربا لها بالمرصاد ، تشجع ثورات البلقان من جهة ، وتذكى نار الفتن الطائفية فى العالم العربى ، وتسـاند الحركة القومية العربية التى تنادى اليها مسيحيو الشام من جهة اخرى ، فكان صراع الدولة العثمانية ضد عوامل انهيارها مريرا ، وكان العصر الحميدى هو قمة هذا الصراع الذى انتهى بعزل السلطان عبد الحميد الثانى سـنة ١٩٠٩ م على يد جماعة الاتحاد والترقى الذين لم يسـتطيعوا المحافظة على كيان الدولة العثمانية نتيجة سياستهم المتعصبة لكل ما هو تركى ، مما ادى فى النهاية الى تخلى العرب عن الدولة العثمـانية وقيـامهم بالثورة ضدها سنة ١٩١٦ م ابان الحرب العالمية الاولى ، فكانت نهاية تلك الدولة الاسلامية الكبرى .

والواقع أن تاريخ الدولة العثمانية متعدد الجوانب زاخر بالاحداث — كما رأينا من هذا العرض السريع — ومن ثم فاننى سوف أقصر حديثى فى هذه الدراسة على بعض هذه الجوانب لاجلو ما اكتنفها من غمـوض أو لابرز تلك الصفحات المشرقة فى تاريخ تلك الدولة ، أو لادفـع عنهـا تحامل بعض الباحثين عليها نتيجة الحقد على هذه الدولة الاسلامية ؛ أو الخطأ بسبب النقل أو التلمذة على المؤرخين الاوربـيين الذين كرسـوا جهدهم لتشويه تاريخ هذه الدولة الاسلامية التى قهرت أوربا فى عقـر دارها ، وازالت من صفحة الوجود اعظم امبراطورية مسيحية عرفهـا التاريخ الوسيط وهى الامبراطورية البيزنطية ، كما وقفت لفترة طويلة حائلا دون تحقيق أوربا لاطماعها فى العالمين العربى والاسلامى .

ولقد استقيت مادتى العلمية فى هذه الدراسة من بعض المخطوطات، ومن المصادر الاصلية ، ومن بعض الوثائق المنشورة ، هـذا فضلا عن الحشد الكاثر من المراجع الاجنبية المترجمة الى العـربية ، والمراجـع العربية الحديثة ، وقد أثبتها جميعها فى ثبت المصـادر والمراجع فى نهاية الـكتاب .

وانى لارجو أن اكون قد وفقت فى رسم الصورة الصادقة للجوانب التى تعرضت لها فى تاريخ الدولة العثمانية ، وما توفيقى الا بالله عليـه توكلت واليه انيب ، فهو — جل شأنه من وراء القصـد وهو يهـدى السـبيل .

القاهرة فى غرة رمضان سنة ١٣٩٩ هـ
يوليـــو سنة ١٩٧٩ م

دكتـور
السيد محمد الدقن

الفصل الاول

قيام الدولة العثمانية

لاشك ان الدولة العثمانية هى اكبر وأبقى دولة أنشأها قوم يتكلمون اللغة التركية فى العهود الاسلامية ، وهى فى الوقت ذاته اكبر دولة قامت فى قرون التاريخ الاسلامى المتأخرة ، وقد كان مركزها الاصيل آسيا الصغرى فى اقصى الركن الشمالى الغربى من العالم الاسلامى ، ثم امتدت فتوحها الى ثلاث قارات هى آسيا وأوربا وافريقيا ، وتركت بصمات قوية فى تاريخ العالم بعامة والاسلام بخاصة .

وقد دخل الاتراك العثمانيين آسيا الصغرى فى الثلث الاول من القرن الثالث عشر الميلادى كقبيلة من القبائل التركية (١) التى كانت تنزح — على فترات متقاربة حينا ومتباعدة أحيانا — من مناطق الاستبس فى آسيا متجهة غربا نحو الاناضول (٢) .

اختلاف روايات المؤرخين حول قيام الامارة العثمانية فى الاناضول :

وتختلف روايات المؤرخين حول قيام هذه الدولة وتأسيسها ، وتقرر احدى هذه الروايات ان الامير سليمان — جد السلطان عثمان المؤسس الاول للدولة العثمانية ، والذى سميت الدولة بالعثمانية نسبة اليه — كان اميرا فى بلاد ماهان قرب بلخ ، وعندما اكتسح جنكيز خان ملك المغول هذه البلاد وخربها ، وقضى على مملكة خوارزم ، وتفرق اهلها ، ترك سليمان البلاد مع من ترك ، قاصدا بلاد الروم حيث الدولة السلجوقية ، التى كان قد سمع عن عظم شوكتها ، وكثرة غزوها الى الكفار ، وتبعه خلق كثير من أرضه وكان ذلك سنة ٦١٦ هـ ، وصار يضرب فى الارض هو ومن معه من عشيرته حتى وصل الى أذربيجان ، ومنها قصد حلب ، وعندما وصلوا الى نهر الفرات أمام قلعة جعبر ، ولم

---

(١) ينتمى الاتراك العثمانيون الى قبيلة قايى احدى قبائل الاتراك الغز (أى التركمان).
انظر محمد فؤاد كوبريلى — قيام الدولة العثمانية — ترجمة للدكتور أحمد السعيد سليمان ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ص ١١٨ — ١٢٦ .

(٢) د. عبد العزيز الشناوى — أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، ج ١ دار المعارف، القاهرة ١٩٦٩ — ص ٥١٨ .

يعلموا المعبر فعبروا النهر ، فغلب عليهم المـاء فغرق سليمان ، ودفن بجوار قلعة جعبر ، فاشتهر ضريحه بعد ذلك باسم « ترك مزارى » أى مزار الترك . وكان لسليمان ثلاثة أولاد هم : سـنقور زنكى ، وكون طوغدى ، وارطغرل (١) فواصلوا السير ، وعندما وصلوا الى موضـع يقال له باسين أوه سى ، رجع سنقور وكون طوغدى الى بلاد العجـم (خراسان) ، بينما تخلف ارطغرل — جد السـلاطين العثمانيين — مع اولاده الثلاثة (كوندز الب ، وصاروبنى ، وعثمان) ومن معهم من أهـله وعشيرته فى ذلك المكان ، ثم أرسل ابنه صـاروبنى الى السلطان علاء الدين كيقباذ السلجوقى ملك قونية وسيواس يستأذنه فى الدخول الى بلاده ، ويطلب منه موضعا يستوطن فيه هو وعشيرته ، فعين له جبال طومانيج وجبال ارمناك والسهول التى بينهما ، فنزل أرطغرل ومن معه وكانوا نحو اربعمائة اسرة فى مكان يدعى « قره جه طاغ » (٢) .

وهناك رواية اخرى تذكر انه فى سنة ١٢٣٢ م ، واثنـاء ترحال ارطغرل فى وهاد الاناضول هو وعشيرته — بعـد غرق ابيـه سـليمان ورجوع اخويه الى بلاد العجم — تصادف ان شاهد جيشـين يقتتلان ، فوقف على مرتفع من الارض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى الرحل من القبائل الحربية ، ولمـا آنس الضعف فى احـد الجيشـين ، وتحقق انكساره وخذلانه ان لم يمد اليه يد المساعدة ، دبت فيه النخوة الحربية، ونزل هو وفرسـانه مسرعين لنجـدة اضعف الجيشـين ، واسـتطاع بشجاعته أن يحرز نصرا سريعا على القوات الاخرى ، وهـو لا يدرى شيئا عن طرفى القتال ، وكم كانت مفاجأة لارطغرل وعشـيرته حينما علموا انهم تدخلوا لنصرة بنى جلدتهم ، وهم الاتراك السلاجقة ، فقـد كانت تلك المعركة بين جيش السلطان علاء الدين السلجوقى سـلطان

---

(١) يذكر ابراهيم بك حليم فى كتابه : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ط ١ مطبعة ديوان عموم الاوقاف ، القاهرة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م ، ص ٣٤ أن الامير سـليمان كان له أربعة أولاد ، ويضيف الى الابناء الثلاثة المذكورين ابنا رابعا يسمى « دندان » .

(٢) ابن الوكيل (يوسف افندى بن محمد الملوى) — تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب — مخطوطة بمكتبة رفاعه الطهطاوى بسـوهاج تحت رقم ٢٨ تاريخ ، الورقتان ٤٩ ، ٥٠ ، القرمانى (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمـد الدمشقى) — اخبار الدول وآثار الاول ، طبع حجر ، مطبعة الميرزا عبـاس التبريزى ، بغداد سـنة ١٢٨٢ هـ ، ص ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

قونية (١) ، وجيش الخان اوكطاى بن جنكيز خان الذى عهد اليه استكمال غزو آسيا الصغرى ، وقد كافأ السلطان علاء الدين قبيلة أرطغرل على مساعدتها له بأن اقطعها المنحدرات الشرقية من جبال طومانيج وأرمناك يقضون فيها فصل الصيف ، وسهول سكود يقضون فيها فصل الشتاء (٢) فكانت تلك الاراضى هى النواة الاولى للدولة العثمانية .

وفى سنة ٦٨٥ هـ حدث أن خرج السلطان علاء الدين ومعه الامير ارطغرل لفتح قلعة كوتاهية ، ولكن نظرا لهجوم التتار مرة أخرى على ممتلكات الدولة السلجوقية ، فقد اتجه السلطان علاء الدين لمقابلة التتار ، وفوض أمر القلعة الى أرطغرل الذى كفاه مؤونتها بأن استولى عليها عنوة ، وغنم غنائم كثيرة ، فازداد عند السلطان قربا ومنزلة (٣) ، وظفر بلقب « أوج بكى » اى محافظ الحدود ، وكانت دولة الروم السلاجقة ، قد جرت العادة فيها على أن تمنح أى رئيس من رؤساء العشائر يعظم امره ، ويلتحق به عدد محدد من العشائر الصغيرة هذا اللقب (٤) الذى لم يقتنع به أرطغرل ، واخذ يهاجم باسم السلطان علاء الدين ممتلكات الدولة البيزنطية ، بل صار يشترك مع السلطان فى كل حروبه ضد الدولة حتى لقبت قبيلة أرطغرل بمقدمة السلطان ، لوجودها دائما فى مقدمة الجيوش واحراز النصر على يديها (٥) . وفى اثناء ذلك استطاع ارطغرل أن يضم الى المنطقة التى يحكمها مدينة « اسكى شهر » ومعناها المدينة القديمة وهى مدينة مشهورة ، وظل على هذا المنوال حتى توفى سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م .

عقب وفاة ارطغرل خلفه فى حكم الامارة ابنه « عثمان » الذى سميت الدولة باسمه ، وعندما علم السلطان علاء الدين بذلك أمره

---

(١) وهى احدى الامارات السلجوقية التى تأسست عقب انحلال دولة آل سلجوق بموت السلطان « ملك شاه » فى ١٥ شوال سنة ٤٨٥ هـ / ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٢ م . فعندما سقطت دولة السلجوقيين تجزأت املاكهم فى بلاد الاناضول الى عشر امارات صغيرة وهى : قره سى ، وصاروخان ، وآيدين ، وتكة ، والحميد ، والقرمان ، وكرميان ، وقسطمونى ، ومنتشا ، وقونية . ثم ضمت بالفتح الى مملكة آل عثمان .

(٢) محمد فريد بك — تاريخ الدلة العلية العثمانية ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٧ ص ص ٣٩ — ٤٠ .

وانظر ابراهيم بك حليم — المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٣) ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ورقة رقم ٥٠ ، القرماني — المصدر السابق ، ص ٢٩٦ .

(٤) د. عبد العزيز الشناوى — مرجع سبق ذكره ص ٥١٩ .

(٥) محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ٤٠ .

وأرسل اليه الراية السلطانية والخلع السنية . وضربت الطبول بين يديه ، فنهض واقفا اجلالا للسلطان علاء الدين . وظل واقفا حتى فرغوا ، فمن ذلك استن العسكر العثمانى الوقوف عند سماعهم طبل السلطنة تعظيما لسلطانهم ، وقد استطاع عثمان — فى السنة التالية لتوليته الامارة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م — أن يفتح قلعة « قرة حصار » ، فكافأه السلطان علاء الدين بأن منحه لقب بك ، واقطعه كافة الاراضى والقلاع التى فتحها ، وأجاز له ضرب العملة باسمه وذكر اسمه فى الخطب على المنابر (١) ، وبذلك صار عثمان بك ملكا بالفعل لا ينقصه الا اللقب (٢) .

الدولة العثمانية دولة اسلامية منذ قيامها

أما عن اسلام الامير عثمان ، وما يستتبع ذلك من اسلام الاتراك العثمانيين ، وبذلك تكون الدولة العثمانية اسلامية منذ بدايتها ، فانه يمكن القول : أن صلات العثمانيين الوثيقة بدولة الروم السلاجقة فى الاناضول ، وهى دولة اسلامية ، كانت عاملا هاما ساعد على اعتناقهم الاسلام فى سهولة ويسر ، كما ان حروبهم ضد المسيحيين فى المناطق المتاخمة لامارتهم وتحمسهم الشديد فى هذه الحروب ، هذا فضلا عن اسم عثمان نفسه ودلالته الاسلامية ، يدل ذلك كله دلالة قاطعة على اعتناقهم الاسلام وابلائهم فى سبيله جهادا فى سبيل الله .

وهناك روايتان حول هذا الموضوع ، وترجع أولاهما — وهى مستقاه من الحوليات العثمانية القديمة — اسلام العثمانيين الى أرطغرل — والد الامير عثمان — فتقول : ان أرطغرل قضى ليلة فى دار احد الزهاد المسلمين ، وقبل ان يأوى الى فراشه ، جاء الزاهد بكتاب ووضعه على رف فسأله عن هذا الكتاب ، فأجابه بأنه القرآن الكريم ، واستفسر منه عن محتواه ، فقال له صاحب الدار انه كلام الله أنزله للناس على لسان محمد صلوات الله عليه ، وحمل ارطغرل الكتاب وأخذ يقراه واقفا حتى الصباح ، ثم نام فرأى فيما يرى النائم كأن ملاكا يبشره بأنه وذريته سيعلو قدرهم جيلا بعد جيل على مدى القرون والادهار لقاء احترامه للقرآن (٣) .

---

(١) يذكر ابن الوكيل — الورقة ٥٠ ، والقرمانى — ص ٢٩٦ — ٢٩٧ أن عثمان لم يخطب باسمه على المنابر الا فى سنة ٦٩٩ هـ بعد هزيمة السلطان علاء الدين أمام التتار .
(٢) محمد نويد — المصدر السابق ص ٤٠ .
(٣) محمد فؤاد كوبريلى — المرجع السابق ص ١٣ .
د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ص ٥٢٢ .

واما الرواية الثانية — وهى مستقاه ايضا من الحوليات العثمانية القديمة — فتشير الى الملابسات التى ادت الى اعتناق عثمان الاسلام ، وتحكى هذه الرواية : ان الامير عثمان كان محبا للعلماء ، وكان كثير التردد على منزل احد هؤلاء العلماء المتعمقين فى الدراسات الدينية واسمه الشيخ « اده بالى » القرمانى الذى تطلق عليه المراجع العربية « أدب عالى » ، وكان هذا العالم يقيم فى قرية مجاورة لمدينة « اسكى شهر » ، واثناء تردده رأى — مصادفة — ابنة هذا الفقيه ، وتدعى «مال‌خاتون» ، فوقع حبها فى قلبه ، وطلبها من ابيها الذى رفض لما كان بينهما من فوارق اجتماعية ، ولكن عثمان رغم ذلك داوم على زيارة الشيخ لما كان يلمسه فيه من العلم والفضل ، أو لما كان يحسه من عزاء وسلوى فى التردد على البيت الذى يضم بين جنبانه فتاته التى شغف بها حبا ، وكان الشيخ لا يرفض ان يستضيف عثمان كلما نزل فى رحابه ، وفى احدى الليالى التى قضاها عثمان بمنزل الشيخ رأى فيما يرى النائم ، ان قمرا صعد من صدر هذا الشيخ فدخل فى صدره ، ثم خرجت من سرته (أى عثمان) شجرة عظيمة ، نمت فى الحال ، وتفرعت أغصانها حتى سدت الآفاق وتحتها جبال راسيات ، ومن جذور هذه الشجرة انسابت المياه فى انهار الدجلة والفرات والنيل والدانوب ، ثم هبت ريح شديدة حولت أوراق الشجرة الى سيوف مشرعة حولتها الريح صوب القسطنطينية ، وعندما استيقظ عثمان من نومه قص على الشيخ — الذى كان عالما بتأويل الاحلام — رؤياه ، فتفاءل الشيخ وبشر عثمان بأن أسرته ستحكم العالم ، ووافق على زواج عثمان من ابنته « مال خاتون » وقام تلميذ للشيخ بعقد قران عثمان ، وعندما أصبح عثمان امير قبيلته شيد تكية لهذا التلميذ ، واوقف عليها أوقافا عظيمة من القرى والاراضى الزراعية ، وقد ولد لعثمان من « مال خاتون » أولاد منهم السلطان أورخان (١) .

ويضيف محمد فريد بك تكملة لهذه الرواية : أن « مال خاتون » هذه — وقبل أن يبنى بها عثمان — كان قد طلب يدها « كوسه ميخائيل » امير أسكى شهر ، فرفض والدها طلبه ، ومن ثم حنق على عثمان لما تزوجها ، واراد ان يفتك به ، فهاجمه فى قصر احد مجاوريه ، وطلب من صاحب القصر ان يسلمه اليه فأبى ، ثم خرج عليه عثمان ومن معه ورده على عقبه ، وأسر كوسه ميخائيل ، ولكثرة اعجاب هذا الامير بشجاعة

---

(١) ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ، ورقة ٥٠ ، القرمانى — المصدر السابق ، ص ٢٩٦ ، محمد فؤاد كوبريلى — المرجع السابق ، ص ١٣ ، د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٥٢١ — ٥٢٢ .

عثمان تعلق به وصار من اخصائه ، ثم أسلم وبقيت ذريته مشـــهورة فى تاريخ الدولة العثمانية باسم عائلة ميخائيل أوغلى (١) .

ويرى جيزه (وهو احد المؤرخين الالمان المتخصصين فى الدراسات التركية ، أو ما يطلق عليها بالتركيات) : أن هاتين الروايتين محاولتان لدعم مشروعية حكم العثمانيين لسائر القبائل التركية بآسيا الصـــغرى بتدخل الهى ، وقد حمل المؤرخ التركى المعـــاصر الاستاذ محمـــد فؤاد كوبريلى — وهو من اعلام الدراسات التركية — حملة عنيفة على هاتـــين الروايتـــين وحاول ارجاع اعتناق الاتراك العثمانيين الاسلام الى عصور سابقة على قدومهم الى آسيا الصـــغرى ، بل وحاول أيضـــا ان ينفى وقوع هجرة القبيلة التى ينتمى اليها عثمان فرارا أمام غزو جنكيز خان . وأن يثبت ان قبيلة عثمان كانت من القبائل التى وفدت على الاناضـــول مع السلاجقة الفاتحين أو بعد الفتح بقليل (٢) .

ومهما اختلفت الروايات حول اسلام العثمانيين ، فان الذى لا شك فيه ان الدولة العثمانية كانت اسلامية منذ نشأتها .

عوامل نمو الدولة العثمانية :

قبل أن نتحدث عن فتوحات العثمانيين وتوسعهم يجدر بنا أن نلقى بعض الضوء على العوامل التى ساعدت العثمانيين على هذا التحـــول السريع من نظام القبيلة المتنقلة الى نظام الامارة المستقرة ، التى تطورت تطورا سريعا الى دولة كبرى مترامية الاطراف ، امتدت اقاليمها فى آسيا وأوربا وافريقيا ، وغدت من اكبر الدول الاسلامية التى شهدها التاريخ.

لقد كان لاعتناق الاتراك العثمانيين الاسلام أثر واضح فى حياتهم. فقد أصبح الاسلام عقيدة دينية رسمية لهم منذ عهد الامير عثمان الذى كان متحمسا لعقيدته الدينية ، فاتخذ من مبادىء الاسلام نبراسا له فى حكمه ، فكان يستشير الفقهاء المسلمين ويتحرى العدل بين رعيته ، هذا فضلا عما أثاره الاسلام فى نفوس العثمانيين من وحدة العقيدة ، وتعبئتهم بشعور دينى فياض جعل قلوبهم تشـــتعل بعاطفة دينية متأججة لنشر الاسلام والزود عن بيضته (٣) ، وهذا ما جعل المـــؤرخين الاوربيـــين يعترفون فى كتاباتهم بتلك الحقيقة ، بعد أن اعترتهم الدهشة من تمكن

(١) محمد فريد بك — المصدر السابق ص ٤٠ .
(٢) انظر محمد فؤاد كوبريلى — المرجع السابق ، ص ص ١٢ — ١٩ .
(٣) د. عبد العزيز الشناوى — مرجع سبق ذكره ص ٢١ .

الاتراك العثمانيين — فى بدايتهم المبكرة ، وهم لا يزالون مجـــرد جماعة بدائية قليلة العدد ضئيلة الموارد — من ازال الهزائم الساحقة بالدولة البيزنطية المسيحية العريقة فى حضـــارتها ، فنرى مؤرخهم الشـــهير « ســـتافريانوس » يؤكد ان نصر ارطغـــرل ومن بعـــده عثمـــان ومن جاء بعده لم يكن بالامكان تحقيقه لولا عظمة الاســـلام . وما غرســـه فى قلوبهم من حب عميق للقتال فى سبيل الله ، ورغبة صادقة فى نشر رسالة محمد بن عبد الله (ص) تهون دونها النفس والنفيس ، انه يضـــعهم فى مرتبة ابطال الفتوح من امثال الاسكندر الاكبر وجنكيز خان ، بل ويميزهم عنهم ، لان ابطال الحروب فى التاريخ قد اسسوا امبراطورياتهم الشاسعة مستعينين بالجيوش الجرارة والامكانيات الهائلة التى لم يتحقق مثلها لاى من السلاطين العثمانيين الاوائل ، ويضيف هذا المؤرخ لتحليله قوله : « لقد كان الدين عاملا هاما ، لقد استمد عثمان ومن خلفوه قـــوتهم من الفيض الدائم التدفق من الغزاة او المقاتلين فى سبيل الله والدين ، الذين وفدوا من كل انحاء الاناضول ليقاتلوا ضد اعداء الاسلام » (١) .

وهذه حقيقة فلقد تكونت فى كل انحاء الاناضول جمعيات الاخـــوة الاسلامية التى كانت تدعو للجهاد فى سبيل الله . وتتعاون من أجل اعداد المجاهدين لاعلاء كلمة الاسلام متخذين شعارهم الدائم « فضل أخاك عن نفسك » ، وقد تحدث عنهم الرحالة الاســـلامى ابن بطـــوطة حين زار آسيا الصغرى عام ١٣٣٣ م ، فوصف معيشتهم وتعاونهم وأثنى عـــلى كرمهم وسمو أخلاقهم (٢) ، هذا فضلا عن اقبال الكثيرين من المسيحيين على اعتناق الاســـلام ، نظرا لمـــا راوه من ســـماحته ، التى تمثلت فى معاملة الاتراك العثمانيين لهم ، بل وصار منهم كبار القـــادة فى جيش المسلمين ، وتولى كثيرون منهم أهم المناصب فى الدولة (٣) .

---

(١) د. محمد كمال الدسوقى — الدولة العثمانية والمسألة الشرقية — دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٦ م ص ص ١٤ — ١٥ .

(٢) زار ابن بطوطة هذه الجمعيات — التى أطلق عليها اسم « الاخية الفتيان » — فى مدن الاناضول الرئيسية مثل : « انطاليا ، وبوردور ، وكلحصار ، ولاديق ، وميلاس ، وبارجين وقونية ، ونيكدة ، وآقسراى ، وقيصرية ، وسيواس ، وكوموش وأرزنجان ، وارضروم ، وبركى ، وثيره ، ومغنيسيا ، وباليكسر ، وبروسه ، وكره دى ، وكيوه ، وينجه ، ومودورنى ، وبولى ، وقسطمونى ، وسينوب » وتحدث عن زواياهم وقال انها توجد فى كل قصبة وقرية من قرى التركمان ، (انظر رحلة ابن بطوطة) طبعـــة وزارة المعارف (بولاق ١٩٣٤) جـ ١ ص ص ٢٢٤ — ٢٧٧ ، محمد فـؤاد كوبريلى — المـــرجع المـــسابق ص ١٥٦ .

(٣) د. محمد كمال الدسوقى — المرجع السابق ص ١٥ .

فاذا اضفنا الى هذه العاطفة الدينية ، تلك الروح العسكرية القوية — التى غدت سمة بارزة فى الاتراك العثمانيين ، والتى استمدوها من بيئتهم الاصلية فى سهول آسيا ، والتى عمل السلاطين على تعميقها فى نفوسهم ، فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل — ادركنا السر وراء توسع العثمانيين السريع واجتياحهم الامبراطورية البيزنطية العتيقة .

وقد ساعدهم على ذلك ايضا الاوضاع السياسية فى المنطقةالمحيطة بهم ، فقد كان هناك فراغ سياسى نتج عن الاعياء الشديد الذى أصاب الدولتين اللتين كانتا لهما كيان سياسى حينئذ فى آسيا الصغرى ، وهما الدولة البيزنطية ، ودولة الروم السلاجقة ، وذلك نتيجة للصراع الطويل والمرير الذى خاضتاه كل منهما ضد الاخرى من جهة ، ونتيجة لتعرض دولة الروم السلاجقةللغزو المغولى الذى انهكها ، وتعرض الدولة البيزنطية للغزو اللاتينى ، (١) وانشغالها بالفتن والقلاقل فى العاصمة وفى البلقان من جهة أخرى (٢) وبذلك كانت الظروف فى شبه جزيرة الاناضول مهيأة لظهور دولة فتية تملأ هذا الفراغ السياسى على انقاض هاتين الدولتين المتداعيتين .

اضف الى ذلك مقدرة الامير عثمان الفائقة التى استثمرت هذه الظروف ، فقد أظهر قدرة خارقة فى وضع النظم الادارية لامارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطا بعيدا على طريق التحول من قبيلة متجولة الى امارة مستقرة ، الامر الذى ساعد على توطيد مركزها وتطورها تطورا سريعا الى دولة كبرى .

كما يجب الا نغفل العامل الجغرافى واثره فى نمو الامارة العثمانية ، ذلك ان تلك الامارة قد نشأت فى الجزء الشمالى الغربى لشبه جزيرة الاناضول على الحدود بين العالمين المسيحى والاسلامى ، وقد فرض عليها ذلك الموقع اتباع سياسة حربية معينة ، وهى التوسع حفظا لكيانها

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ص ٥٢٣ .

(٢) فقد غرقت القسطنطينية — فى تلك الفترة — فى بحار الخلافات المذهبية الحادة ، وفقدت سيطرتها على الاقاليم التى كانت بالتالى منقسمة على نفسها ، فمزقت الخلافات كل مقاطعة من مقاطعاتها ، هذا فضلا عن الصدامات المستمرة بين الدولة البيزنطية واعدائها الاقوياء من أمثال أولاد كرميان والامارات الساحلية القوية الخاضعة لهم فلم تستطع التحرك لمدة طويلة ضد العثمانيين ، الامر الذى نتج عنه سقوط أماكن كثيرة فى يد العثمانيين كان عليها أن تدافع عن نفسها بقواتها المحلية دون انتظار اية معونة من العاصمة (أنظر محمد فؤاد كوبريلى ، المرجع السابق ، ص ١٨٠ ، ساطع الحصرى — البلاد العربية والدولة العثمانية ، دار العلم للملايين ، ط ٢ ، بيروت ١٩٦٠ ص ١٦ .

بين القوى المحيطة بها ، وهذا بعكس الامارات الداخلية التى لم يتوفر لها عوامل التطور والنمو ، لانه لم يكن باستطاعتها ان تتطور وتنمو بنفس السرعة التى تطورت ونمت بها امارات الحدود ، وفعلا استطاع الامير عثمان أن يحرز انتصارات عسكرية على البيزنطيين ، الامر الذى جعله موضع تقدير علاء الدين كيقباذ الثالث سلطان دولة الروم السلاجقة فمنحه — تقديرا لخدماته — لقب « عثمان غازى حضرتلرى مرزبان عاليجاه عثمان شاه » اى « حضرة عثمان الغازى حارس الحدود العالى الجاه عثمان شاه » (١) .

وجدير بالذكر أن تلك السياسة التوسعية تجاه ما يعرف بدار الحرب — أى « بلاد الكفر » حسب تعبير ذلك الزمان — كانت تضفى على أعمال العثمانيين صبغة الجهاد ، الامر الذى كان يرفع مكانتهم فى أنظار المسلمين ، ويقوى تيار المتطوعين لخدمتهم ، فانجذب اليهم عدد غير قليل من المتطوعين من مختلف الامارات التركية الاسلامية ، التى قامت على انقاض الدولة السلجوقية ، وكان سلاطين آل عثمان يذكون تلك الروح الاسلامية بحرصهم الشديد على نشر أخبار انتصاراتهم فى مختلف البلاد الاسلامية ، فقد كانوا كلما انتصروا على دولة نصرانية ، او فتحوا مدينة فى البلاد الاوربية ، يرسلون وفودا خاصة لابلاغ الامر الى ملوك المسلمين وأمرائهم ، ومن جملتهم سلاطين المماليك فى مصر ، وقد حفظت التواريخ العثمانية طائفة من هذه المكاتبات (٢) .

على ان الامر الذى لاشك فيه أن ذلك كان يضفى على العثمانيين — فى تلك البلاد الاسلامية — مكانة معنوية رفيعة فى نفوس الشعوب الاسلامية ، الامر الذى ساعد مساعدة كبيرة على استيلاء العثمانيين على البلاد العربية ، وعلى استمرار حكمهم مدة طويلة لهذه البلاد دون عناء يذكر .

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى — مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢٣ .

(٢) انظر ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ، ورقة ٥٧ ، القرمانى — المصدر السابق ص ٣١٠ ، ابن اياس (محمد بن احمد بن اياس الحنفى المصرى) بدائع الزهور فى وقائع الدهور (ثلاثة اجزاء) جـ ٢ ط ١ ، طبعة بولاق سنة ١٣١١ هـ ، ص ص ٤٤ ، و ٥٤ ، ١٢٢ ، ١٣٢ .

ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ١٦ تحقيق د. جمال الدين الشيال ، فهيم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ص ٧٠ — ٧١ .

ساطع الحصرى — المرجع السابق ، ص ص ٢٠ — ٢٨ .

وهناك عامل هام ساعد العثمانيين على الانطلاق بامارتهم نحو التوسع ، وتدعيم كيانها كدولة مستقلة ، فقد حدث أن أغار المغول سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م على دولة الروم السلاجقة فى آسيا الصغرى ، فلم تصمد دولة السلاجقة هذه المرة لهذا الزحف المغولى ، فانهارت وقضى عليها تماما ، وتوفى سلطانها علاء الدين الثالث (١) ، الامر الذى نتج عنه استقلال الامراء الخاضعين لسلطان تلك الدولة — ومنهم الامير عثمان — باماراتهم ، واتجاه كل منهم الى تأسيس دولة مستقلة على أنقاض الدولة السلجوقية ، فتلقب عثمان بلقب « سلطان » ، واخذ يعد العدة لتوسيع رقعة أمارته بما يتفق ومركزها الجديد ، فرسم سياسته الجديدة على اساس مصاهرة حكام الدول المجاورة ، واستجلاب الرقيق من مختلف البلدان ، والاستعانة بالمغامرين الذين يبغون الشهرة فى ميادين القتال(٢)، ومضى عثمان يوسع رقعة دولته فى مختلف الاتجاهات ، وقد تمكن من احراز عدة انتصارات رائعة ضد المسيحيين ، وحلفائهم من التتار ، واستولى على عدة قرى ومدن أهمها : « اسكى شهر » (٣) و «اينونو» ، وقلعة « عك حصار » التى باستيلائه عليها أصبح العثمانيون يطلون على البوسفور ، كما سيطر العثمانيون على الطريق المائى الموصل بين القسطنطينية وبروسة ، وكان عثمان على فراش الموت عام ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م ، حينما وصلته أنباء استيلاء جيوشه بقيادة ابنه أورخان على مدينة بروسة ، وهى من أحصن المدن البيزنطية فى آسيا الصغرى ،وذلك بعد حصار لها دام ما يقرب من عشر سنوات ، وقد أوصى عثمان أن ينقل رفاته الى بروسة فى كنيسة القصر التى حولت فورا الى مسجد ، ومنذ ذلك الحين اصبحت بروسة عاصمة جديدة للاتراك العثمانيين ، اما حاكم بروسة البيزنطى ويدعى « افرنوس » فقد أعلن اسلامه واعطى لقب « بك » وصار من مشاهير قواد العثمانيين (٤) .

---

(١) قيل انه قتل اثناء المعارك ، وقيل قتله ولده غياث الدين طمعا فى الملك ، وقد قتل غياث الدين على أيدى التتار ايضا ، (انظر محمد فريد بك — المرجع السابق ، ص ٤١) .

(٢) د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٥٢٣ — ٥٢٤ .

(٣) اتخذها عثمان عاصمة لملكه ، ويطلق عليها المؤرخون المتقدمون « يكى شهر » (انظر ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ، ورقة ٥١ ، والقرمانى — المصدر السابق ، ص ٢٩٧) .

(٤) المصدران السابقان نفس المكان ، محمد فريد بك — المصدر السابق ص ٤١ ، د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٥٢٣ — ٥٢٤ ، د. محمد كمال الدسوقى — المرجع السابق ، ص ص ١٤ — ١٥ .

مراحل التوسع العثمانى :

وانطلق العثمانيون الى التوسع من امارتهم الصغيرة فى الشمال الغربى لبلاد الاناضول تحدوهم الآمال فى تكوين امبراطورية واسعة ، وقد استطاعوا أن يؤسسوا اكبر دولة اسلامية عرفها التاريخ الاسلامى فى عصوره المتأخرة ، فقد وصلوا فى زحفهم العسكرى الى أسوار فيينا فى اوربا ، كما بسطوا سيطرتهم على الاناضول وعلى العالم العربى فى آسيا وافريقيا ، وقد مرت عمليات التوسع هذه بثلاث مراحل :

المرحلة الاولى :

وقد امتدت هذه المرحلة من قيام الامارة العثمانية فى الاناضول حتى وفاة السلطان بايزيد الثانى ، وتولى السلطان سليم الاول عرش الدولة العثمانية سنة ١٥١٢ م ، وقد اتسم التوسع فى هذه المرحلة بالطابع البلقانى الاناضولى ، بمعنى أن الدولة العثمانية اقتصرت فى توسعها خلال هذه المرحلة على شبه جزيرة البلقان فى جنوب شرق أوربا ، وعلى شبه جزيرة الاناضول فى آسيا الصغرى ، كما شهدت هذه المرحلة تطور الدولة العثمانية من مرحلة الامارة الى مرحلة الدولة ، وانتقال عاصمتها، من بروسة الى ادرنة ثم الى القسطنطينية حيث أستقرت العاصمة بها وتغير اسمها الى « اسلامبول » .

المرحلة الثانية :

وقد اقتصر التوسع فى هذه المرحلة على بلاد الشرق الاسلامى فى آسيا وافريقيا ، كما اتسمت الدولة بالطابعين العربى والاسلامى ، فقد ضمت لاول مرة عدد من شعوب الامة العربية ، فزادت نسبة الرعايا المسلمين ، مما اكسبها زعامة العالم الاسلامى ، وتواكب هذه المرحلة عهد السلطان سليم الاول (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) ، وفيها صارت الدولة العثمانية أسيوية افريقية بلقانية .

المرحلة الثالثة :

وقد امتدت هذه المرحلة منذ ارتقاء السلطان سليمان المشرع عرش الدولة العثمانية فى سنة ١٥٢٠ م ، واستمرت على عهد خلفائه من بعده، حتى توقف التوسع العثمانى عندما ضعفت الدولة ، وبدأت تواجهه الاخطار الاوربية ، وفى هذه المرحلة اتجهت عمليات الغزو العسكرى العثمانى فى أوربا وآسيا وافريقيا ، وفتحت جبهات بحرية فى كل من حوض البحر المتوسط ، والبحار الشرقية (المحيط الهندى والخليج العربى) ، وفيها اصبحت الدولة العثمانية أوربية أسيوية افريقية .

الفصل الثانى

الفتوحات العثمانية فى أوربا حتى نهاية عهد بايزيد الثانى

أورخان (١٣٢٦ — ١٣٦٠) :

تولى « اورخان » السلطنة بعد وفاة أبيه عثمان سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م ، فقسم شئون الدولة بين اخيه علاء الدين وبين ولديه سليمان ومراد ، فجعل من اخيه وزيرا يختص بالشئون الداخلية ، وهذه الوظيفة التى عرفت فيما بعد بالصدارة العظمى ، فكان علاء الدين أول وزير فى تاريخ الدولة العثمانية ، وانصرف أورخان الى العمليات الحربية ، وهكذا سارت العمليتان جنبا الى جنب (١) .

اما علاء الدين فقد حصر جهوده فى انجاز ثلاثة أمور : وهى سك العملة ، وتنسيق اللباس وتنظيم الجيش ، وقد اظهر براعة فائقة فى ذلك ، ففى عام ١٣٢٨ م أمر بضرب النقود الفضية باسم اورخان ، وكان وجه العملة يحمل عبارة « خلد الله ملكه » ، ولم تكن هذه العملة تحمل ما يدل على زمان الضرب ولا مكانه . كما اهتم علاءالدين بمسألة الملابس التى يرتديها رجال الدولة العسكريون والمدنيون من رجال البلاطوارباب المناصب وغيرهم ، فخصص لكل مجموعة وظائف شكل ولون الملابس التى يرتدونها (٢) . اما فيما يتعلق بالجيش فقد وضع علاء الدين له نظاما جديدا يكفل له الاستقرار والدوام ، اذ كانت الجيوش قبل ذلك لا تجمع الا وقت الحرب ، ثم تنصرف الجنود بعدها ، هذا فضلا عن خشيته من تحزب كل فريق من الجند الى القبيلة التابع لها . مما يؤدى الى انفصام عرى الوحدة العثمانية التى كانوا يسعون فى ايجادها ، ومن ثم — وعملا بمشورة أحد القادة العسكريين وهو قره خليل (٣) — أنشأ الجيش الانكشارى ، ويقضى هذا النظام بأخذ الشبان من أسرى الحرب

---

(١) محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ص ٤١ — ٤٢ ، د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ص ٥٩٥ .

(٢) المرجع السابق هامش ٥٩٥ .

(٣) وهو الذى صار فيما بعد وزيرا أولا باسم خير الدين باشا (محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ٤٢) .

وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم ، وتربيتهم تربية اسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون لهم أبا الا السلطان ، ولا حرفة الا الجهاد فى سبيل الله ، ولعدم وجود أقارب لهم بين الاهالى لا يخشى من تحزبهم معهم ، وعندما اكتمل تعليمهم وتدريبهم أرسلهم السلطان الى الحاج بكتاش شيخ الطريقة البكتاشية ليدعو لهم بالخير ، فدعا لهم الشيخ بالنصر على الاعداء ، وقال فليكن اسمهم « ينى تشارى » (١) ويرسم بالتركية هكذا (يكيجارى) أى الجيش الجديد ثم حرف فى العربية فصار انكشارى (٢) . ثم ارتقى هذا الجيش فى النظام وزاد عدده حتى صار لا يعول الا عليه فى الحروب ، فكان من أهم عوامل توسع العثمانيين وبناء امبراطوريتهم .

أما أورخان فقد كرس جهوده للفتوحات ، فواصل الحرب ضد الدولة البيزنطية ، فاستولى على مدينة نيقوميدية (ازمت الحالية) سنة ١٣٢٧ ، ونيقية (اسنك الحالية) سنة ١٣٣٠ م ، وكانت من أهم المدن البيزنطية ، فعهد الى ولى عهده سليمان بحكمها ، وباستيلائه على هاتين المدينتين بالاضافة الى بروسة يكون أورخان قد قضى على النفوذ البيزنطى فى شمال غرب آسيا الصغرى (٣) ، كما اتجه أورخان الى التوسع على حساب امارات الاناضول ، فضم الى مملكته فى سنة ١٣٣٦ م امارة « قره سى » ، منتهزا فرصة الشقاق والنزاع الذى وقع بين ولدى أميرها المتوفى (٤) .

وفى سنة ١٣٥٥ م استنجد امبراطور القسطنطينية بالسلطان أورخان ليساعده ضد دوشان ملك الصرب — الذى حشد الحشود واستولى على بلاد البلغار ، ثم زحف قاصد القسطنطينية — فى مقابل

---

(١) ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ، ورقة ٥٢ ، القرمانى — المصدر السابق ، ص ٢٩٩ — ويلاحظ أن هذين المصدرين جعلا نشأة الجيش الانكشارى فى عهد مراد الاول بن أورخان .

وانظر سليمان بن خليل بن بطرس جاويش — التحفة السنية فى تاريخ القسطنطينية ، بيروت ١٨٨٧ م ، ص ص ١٠ — ١١ .

(٢) وقد بقى هذا النظام متبعا الى أن استبد الانكشارية بالسلطة ، وأساءوا استعمالها ، وأصبحوا منبع الشغب والقلاقل فى الدولة ، فقضى عليهم السلطان محمود الثانى سنة ١٨٢٦ م (١٢٤١ هـ) .

(٣) ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ، ورقة ٥١ ، القرمانى — المصدر السابق ، ص ٢٩٨ .

د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٥٩٤ — ٥٩٥ .

(٤) محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ٤٣ .

زواج أورخان من ابنة امبراطور القسطنطينية ، فأجابه السلطان الى طلبه ، وعبر الجيش العثمانى الى الساحل الاوربى ، ولكنه لم يلبث أن عاد دون قتال نظرا لوفاة ملك الصرب المهاجم فجأة (١) .

ولكن نزول العثمانيين الى الشاطىء الاوربى جعلهم يدركون حقيقة الضعف الذى وصلت اليه الدولة البيزنطية ، الامر الذى جعل أورخان يجد فى تجهيز الجيوش سرا لاجتياز البحر واحتلال بعض نقاط على الشاطىء الاوربى تكون مركزا لاعمال العثمانيين فى أوربا ، وقد كان ذلك، ففى سنة ١٣٥٧ م تمكن ولى العهد سليمان من العبور الى الشاطىء الاوربى بجيش يبلغ عدده ثلاثين الفا حيث استولى على مدينة «غاليبولى» ، فكانت أول مدينة فى قارة أوربا تضم للدولة العثمانية ، وهكذا انتقلت الفتوحات الاسلامية العثمانية الى القارة الاوربية بعد أن كانت حروبها السابقة داخل شبه جزيرة آسيا الصغرى ، وبدأت صفحة جديدة من الانتصارات العثمانية ضد الدولة البيزنطية على الارض الاوربية . وفى سنة ١٣٥٩ م توفى ولى العهد سليمان بسبب سقوطه من على ظهر جواده ، ودفن فى مدينة غاليبولى التى شهدت أمجادة العسكرية ، وتبعه فى العام التالى والده السلطان أورخان بعد أن بدأ الجهاد فى الميدان الاوربى حيث تبعه خلفاؤه من بعده فى هذا الميدان (٢) .

مراد الاول (١٣٦٠ — ١٣٨٩) :

واصل مراد الاول تلك الفتوح فى أوربا — وذلك بعد أن استولى على أنقرة عاصمة امارة القرمان التى أراد أميرها أن يثير القلاقل فى الاناضول (٣) — فأخضع معظم بلاد « الروملى » (الروم ايلى) ، فاستولى على « أدرنة » ذات الاهمية الاستراتيجية العظيمة (٤) ، فقد كانت تعد ثانية المدن البيزنطية بعد القسطنطينية ، ومن ثم اتخذها مراد عاصمة لدولته لتكون فى أوربا قريبة من ميادين القتال ، وقد ظلت أدرنة هى العاصمة حتى سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، كما استولى

(١) المصدر السابق ، ص ص ٤٣ — ٤٤ .

(٢) ابن الوكيل — مصدر مخطوط ، سبق ذكره — ورقة ٥١ ، القرمانى — المصدر السابق ، ص ٢٩٨ .

محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٣) ابراهيم حليم بك — المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٤) يصفها ابن الوكيل بقوله : « وهى مدينة عظيمة تجرى من تحتها ثلاثة أنهار : تونجه وأرطه ومزيج وهى من الاقليم الخامس وبينها وبين القسطنطينية خمسة وتسعون ميلا » (أنظر ورقة ٥٢) .

مراد على « قلبة » وغيرها من المدن العظيمة ، فضاق بذلك نطاق أملاك الدولة البيزنطية واصبحت القسطنطينية محاطة من جهة أوربا بالممتلكات العثمانية (١). (*)

وكان لسقوط ادرنة فى أيدى العثمانيين دوى هائل فى أوربا ، دفع البابا « أوربان الخامس » الى دعوة نصارى أوربا الى حرب صليبية لانقاذ أدرنة من أيدى المسلمين ، وطرد الاتراك من أوربا ، فخرج لذلك ملوك البوسنة والمجر والصرب بجيش عظيم ساروا به الى ادرنة فهزمهم الاتراك شر هزيمة سنة ١٣٦٣ م ، وكانت هذه الهزيمة سببا فى وقوع بلغاريا كلها فى يد الاتراك بعد مقاومة بسيطة عام ١٣٦٦ م ، وقبل ملك بلغاريا دفع الجزية للسلطان العثمانى . كما ألحق العثمانيون بقوات الصرب هزيمة منكرة بالقرب من ادرنة سنة ١٣٧١ م ، وقد فتح هذا النصر امام العثمانيين الطريق لاحتلال صوفيا ونيش سنة ١٣٨٥—١٣٨٦م وسمح لملك الصرب « لازار » بالاحتفاظ ببقية امارته مقابل دفع الجزية (٢) .

عاود الفزع والاضطراب امارات أوربا الشرقية من جديد فكونوا حلفا صليبيا جديدا لقهر العثمانيين وخرج اليهم السلطان مراد الاول بنفسه وتقابل الجمعان فى موقعة قوصوه (٣) (٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م) فكانت معركة مهولة سقط فيها الكثير من القتلى من الطرفين ، ولكنهما انتهت بانتصار العثمانيين ، ولكن لم تتم فرحة العثمانيين بانتصارهم فقد اغتيل السلطان مراد الاول بيد جندى صربى كان بين الجرحى ، اذ بينما كان السلطان يتفقد القتلى قام من بينهم هذا الجندى مظهرا رغبته فى تقبيل يد السلطان ، ثم طعنه بخنجر كان يخفيه فى كمه ، فكانت هى القاضية عليه بعد قليل (٤) ، وقد بذل العثمانيون جهودا جبارة حتى تمكنوا من اسر لازار ملك الصرب وعدد كبير من النبلاء وتم ذبحهم جميعا امام جثمان السلطان مراد الاول المسجى فى ساحة القتال (٥) .

---

(١) المصدر السابق ، ورقة (٥٢) ، والقرمانى ، المصدر السابق ، ص ٢٩٩ ، وابراهيم حليم بك — المصدر السابق ، ص ص ٤١ — ٤٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤١ — ٤٤ ، محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ص ٤٥ — ٤٧ .

(٣) تكتبها المراجع القديمة : « قوص أوه » و « قوص أو » (أنظر ابن الوكيل والقرمانى) .

(٤) ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ، الورقتان ، ٥٢ ، ٥٣ ، القرمانى — المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .

(٥) د .عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٦٠٦ — ٦٠٧ .

يقول القرمانى : « فمن ذلك سن العثمانية عند قدوم الوافد وتقبيل يد السلطان ان يمسك واحد من طرف كمه وآخر من كمه الآخر احترازا من ذلك » (١) .

وكان من اهم نتائج موقعة قوصوه هو ضياع استقلال بلاد الصرب ودخولها فى حوزة الدولة العثمانية وانتشار الاسلام بين الصربيين (٢) .

ولم تكن غزوات مراد الاول قاصرة على اوربا ، بل توسع ايضا فى الاناضول فاستولى على انقرة عاصمة امارة القرمان — كما سبق أن اشرنا — كما ضم بعض القلاع الحصينة الى ملكه عن طريق الشراء ، يقول القرمانى : « وفى سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨٠ م اشترى السلطان مراد خان من صاحب بلاد حميد قلاع وهى يلواج ، ويكى شهر ، وآق شهر ، وقره اغاج ، وسيدى شهر » (٣) .

بايزيد الاول (١٣٨٩ — ١٤٠٢) :

وفى عهد بايزيد الاول الذى لم يقل عن ابيه — مراد الاول — مهارة واقداما ، تم اخضاع باقى الامارات التركية فى الاناضول (٤) ، كما وطد اركان دولته فى اوربا حيث اقر ملك الصرب فى حكمها مقابل دفع الجزية كما اخضع اقليم والاشيا (فى رومانيا الحالية) ، ثم اكتسح بايزيد بلغاريا وقتل ملكها ، وضمها الى الاملاك العثمانية . اما ابن ملك الصرب فقد اسلم فعينه بايزيد حاكما لسامسون فى الاناضول (٥) ثم تفرغ بايزيد لحصار القسطنطينية تمهيدا لفتحها . اثارت انباء تلك الانتصارات العثمانية الدول الاوربية والبابا . وعم الهول والفزع انحاءها وقامت ضجة دينية تحض اوربا على المسارعة الى التصدى لطوفان الفتح العثمانى فى اوربا ، فتكون تحالف أوربى صليبى يتزعمه سيجسموند ملك المجر لان الخطر اصبح قاب قوسين أو أدنى من دولته ، والبابا بونيفاس التاسع ، وتحمست أوربا واسكتلندا للفكرة الصليبية فاشتركت فيها بقواتها وفرسانها كل من : انجلترا وفرنسا والمانيا واسكتلندا وسويسرا

(١) القرمانى ، المصدر السابق ، ص ٣٠٠ ، وانظر ابن الوكيل — مخطوط سبق ذكره ، ورقة (٥٣) .

(٢) د. الشناوى — المرجع السابق ، ص ٦٠٧ .

(٣) القرمانى ، المصدر السابق ، وانظر ابن الوكيل — المصدر السابق ، ورقة (٥٢) .

(٤) لمعرفة التفاصيل انظر المصدرين السابقين ، الاول ص ص ٣٠٠ — ٣٠١ ، والثانى الورقتان ٥٣ ، ٥٤ .

(٥) محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ص ٤٨ ، ٤٩ .

ولوكسمبورج والاراضى المنخفضة الجنوبية ، وبعض الامارات الايطالية، وقدمت البندقية الاموال والاسطول اللازمين ، كما انضمت الى الحملة قوات من بولندا ، واقليم والاشيا ، واقليم ترنسلفانيا ، كما ساهم ايضا فرسان القديس يوحنا المقيمين فى جزيرة رودس باسطولهم وفرسانهم، ولقد بلغ التجمع الاوربى فى تلك الحملة حوالى مائة وعشرين الف مقاتل من مختلف الجنسيات ، بقصد القضاء على التوسع العثمانى داخل القارة الاوربية ، وزحفت تلك الجموع الحاشدة حتى وصلت الى مدينة نيكوبوليس على نهر الدانوب ، وفرضت عليها حصارا شديدا .

اما بايزيد فانه رفع الحصار عن القسطنطينية ، ودمر ادوات الحصار الثقيلة خوفا من استيلاء العدو عليها ، واسرع كالبرق الى نيكوبوليس بجيش يقارب جيش الصليبيين عددا ويمتاز عنه بوحدته وحسن تنظيمه ، واتقاد الحماس الدينى الاسلامى بين جنوده . وفى فجر ٢٥ من سبتمبر سنة ١٣٩٦ م دارت رحى الحرب عند نيكوبوليس حيث لقى الصليبيون هزيمة منكرة وتفككت اوصالهم وتشتتت جموعهم ، ولاذ أغلبيتهم بالفرار من المعركة ، وخرج العثمانيون بغنائم كثيرة ، وعددا ضخما من الاسرى الذين كان من بينهم كثير من مشاهير الفرسان النبلاء فى اوربا ، الامر الذى جعل بايزيد يحصل منهم على فدية كبيرة . ولقد نتج عن انتصار العثمانيين على هذا التكتل الصليبى ، توطيد أقدام العثمانيين فى البلقان (١) .

وبعد واقعة نيكوبوليس اتجه بايزيد الاول بكل جهوده نحو فتح القسطنطينية التى طالما تاقت نفسه ونفس الفاتحين من المسلمين لغزوها، فطلب من امبراطور الدولة البيزنطية مانويل الثانى (٢) تسليم القسطنطينية والا جاءه بما لا قبل له به ، يقول القرمانى : « ... وأرسل الى تكور صاحب القسطنطينية يقول له : اما ان تخرج من البلاد وتسلمها الى واما يسرت اليك فاتيتك فى اعز اماكنك ، فخاف منه والتزم له بالخراج فى كل سنة عشرة آلاف ذهب ، وان يبنى للمسلمين فى داخل المدينة محلة يسكنون فيها ، ويكون لهم فيها مسجد وجامع وقاض يفصل فى الخصومات فرضى بذلك .. » (٣) غير أن الاستيلاء على القسطنطينية كان هدفا

---

(١) محمد فريد بك ، المصدر السابق ، ص ص ٤٩ — ٥٠ .
د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٦١١ — ٦٢٠ .
(٢) تطلق عليه المراجع العربية اسم « تكور » انظر القرمانى — ص ٣٠١ ، ابن الوكيل الورقة (٥٤) .
(٣) المصدران السابقان ، الاول ص ٣٠١ ، والثانى الورقة (٥٤) .

رئيسيا للسلطان بايزيد الاول ، ومن ثم فقد ضرب نطاقا محكما من الحصار حول العاصمة البيزنطية ، حتى ان أوربا كانت تتوقع استسلامها له بين الحين والآخر ، وفى تلك الاثناء جاءت الانباء بأن تيمورلنك قائد المغول يتقدم فى جيش جرار لاكتساح الدولة العثمانية من جهة الشرق ، فرفع بايزيد الاول الحصار عن القسطنطينية واتجه مسرعا لمواجهة الخطر المغولى (١) (*)

وتروى المراجع العربية أن سبب زحف تيمورلنك على الدولة العثمانية هو استنجاد أمراء الاناضول السابقين — الذين استولى بايزيد الاول على اماراتهم ففروا الى الحدود واستنجدوا — بتيمورلنك ، الامر الذى جعله يكتب الى بايزيد الاول قائلا : « انك رجل مجاهد فى سبيل الله وأنا لا أحب قتالك ، ولكن أنظر أى البلاد التى كانت معك من ابيك وجدك فاقتنع بها وسلم لى البلاد . . » الباقية ، الامر الذى جعل بايزيد يزداد غيظا منه ويرد عليه بخطاب كله تهوين من شأن تيمورلنك وازدراء به وبقومه وتعريض بهم وبأصلهم ، واشادة بشجاعة الاتراك العثمانيين « . . . وأين للتتار الطغام الضرب بالبتار الحسام ، وما لهم رشق سوى النبال والسهام بخلاف ضراغم الاروام ، وأما نحن فالحرب دأبنا والضرب طلابنا والجهاد صنعتنا ، رجالنا باعوا انفسهم وأموالهم من الله بأن لهم الجنة ، فكم لضرباتهم فى آذان الكفار من طنة ولسيوفهم فى قلانس الفوارس من رنة . . . » ثم ختم خطابه بعبارات استفزازية « . . . وأنا أعلم أن هذا الكلام يبعثك الى بلادنا انبعاثا ، فان لم تأت تكن زوجتك طالقا ثلاثا ، وان قصدت بلادى وفررت عنك ولم أقابلك البتة فزوجاتى اذ ذاك طوالق ثلاثا البتة » (٢) .

وفى يوم الاربعاء ١٧ من ذى الحجة سنة ٨٠٤ هـ / ٢٠ يوليو ١٤٠٢ م التقى الجمعان فى معركة انقرة الشهيرة ، وكانت الهزيمة من نصيب العثمانيين وأسر بايزيد الاول . وبقى فى اسره حتى مات كمدا بعد ذلك بثمانية اشهر ، وسمح تيمورلنك بنقل جسمانه الى مقبرته فى بروسة (*)

وقد أدت هذه المعركة الى تأخر فتح القسطنطينية حوالى نصف قرن ، والى نقض الامبراطور البيزنطى للعهود فأمر بهدم المساجد التى

(١) د. الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٦٢١ — ٦٢٢ .

(٢) القرمانى — المصدر السابق ص ص ٣٠١ — ٣٠٢ ، وانظر ابن الكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ، الورقة (٥٤) .

شيدت فى القسطنطينية ، وبطرد ائمة هذه المساجد وقاضى المسلمين ، واخراج الرعايا العثمانيين من العاصمة (١) . هذا فضلا عن نشوب الحرب الاهلية — التى استمرت اكثر من عشر سنوات — بين ابناء بايزيد الاول ، حيث انتهت باعتلاء محمد بن بايزيد عرش السلطنة وقد عرف فى التاريخ **بمحمد الاول ، ويسمى ايضا محمد جلبى (١٤١٣ — ١٤٢١ م)** (٢) ، ولم يكن لهذا السلطان فتوح حربية ولكنه أسدى للدولة العثمانية خدمة جليلة بعمله على ازالة آثار هزيمة معركة انقرة ، وباعادة تنظيم الدولة من جديد ، بحيث مهد السبيل أمام خلفائه من السلاطين ليتابعوا سياسة التوسع الاقليمى — سواء فى أوربا او فى غيرها — مرة اخرى .

مراد الثانى (١٤٢١ — ١٤٥١) :

تولى مراد الثانى بعد وفاة ابيه السلطان محمد الاول عرش السلطنة العثمانية ، ومنذ توليه السلطة بدا يواجه المكائد والمتاعب التى كرس امبراطور القسطنطينية جهده على اثارتها فى وجهه ، ذلك أن الامبراطور البيزنطى قام بتحريض ومساعدة أحد أمراء البيت العثمانى وهو مصطفى ابن بايزيد (عم السلطان مراد) (٣) ، فقام الامير مصطفى بمحاصرة غاليبولى بغية الاستيلاء عليها واتخاذها قاعدة له ، ولكن السلطان مراد الثانى استطاع أن يدفع الحصار عن المدينة ، وأن يقبض على الامير مصطفى ويعدمه ، ثم حاصر القسطنطينية تمهيدا لفتحها انتقاما من امبراطورها ، ولكنه لم يلبث أن اضطر الى رفع الحصار عنها لمواجهة خروج اخيه مصطفى عليه فى الاناضول ، وقد استطاع مراد الثانى اخماد هذه الفتنة ، واستسلم أخوه مصطفى حيث لقى مصيره المحتوم . ثم اتجه مراد الثانى الى احتلال سالونيك ، ولكن البنادقة اعترضوا طريقه ، واشتروا المدينة من الامبراطور البيزنطى ، فوافق السلطان مراد على هذا الوضع مقابل جزية تدفعها له البندقية وذلك حتى

---

(١) المصدران السابقان ، الاول ص ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ، والثانى ، الورقة (٥٤) ، د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ص ٦٢٢ .

(٢) للتفاصيل أنظر ابراهيم بك حليم — المصدر السابق ، ص ص ٥٠ — ٥١ ، محمد فريد بك ، المصدر السابق ، ص ص ٥١ — ٥٢ .

(٣) يذكر بعض المؤرخين أن مصطفى هذا لم يكن عم السلطان مراد الثانى ، بل كان شخصا آخر انتحل شخصية مصطفى بن بايزيد ، استنادا الى أن الاخير قد قتل فى انقرة ابان الحروب الاهلية التى اندلعت بين أبناء بايزيد (د. الشناوى — المرجع السابق هامش ص ٦٢٤) .

يستكمل استعداداته الحربية . وفى يوم ٢٠ من مارس سنة ١٤٣٠ اكتسحت قوات مراد الثانى مدينة سالونيك ودمرتها تدميرا شاملا (١) .

بعد ان فرغ مراد الثانى من قمع حركات التمرد فى البلقان وجه نشاطه الحربى فى جبهتين رئيسيتين هما : البانيا والمجر ، ففى البانيا استطاع مراد الثانى ان يبسط سيطرته على الجزء الجنوبى منها ، أما شمالى البانيا فقد خاض العثمانيون فيه صراعا حربيا مريرا ضد المقاومة العنيدة التى شنها الالبانيون ضد الجيوش العثمانية ، فكان مراد الثانى يرسل الجيش تلو الجيش ولكن الهزائم كانت لهم بالمرصاد ، حتى الحملتين اللتين قادهما السلطان مراد الثانى بنفسه لقيا الهزيمة المنكرة حتى اضطر السلطان فى النهاية الى الاسراع بالانسحاب خشية تعريض جيشه لخطر الابادة من جهة ، ولمواجهة الخطر المجرى من جهة أخرى. ويرجع عدم نجاح العثمانيين فى بسط سيطرتهم على البانيا الى الطبيعة الجبلية لهذا الاقليم ، الامر الذى يجعله لا يصلح الا لحرب العصابات ، أما الحرب النظامية فكانت تعرض الجيش المهاجم الى مذابح مروعة ، هذا فضلا عن المساعدات التى كان يظفر بها الالبانيون من جمهورية البندقية عن طريق البحر . فقد كانت حكومة الجمهورية تدرك خطورة السيطرة العثمانية على هذا الاقليم الهام بشاطئيه وموانيه الهامة ، وأن فى استطاعة العثمانيين قطع خطوط المواصلات البحرية التى تربط البندقية بحوض البحر المتوسط والعالم الخارجى ، وأن فى استطاعتهم حجز سفن البنادقة داخل بحر مغلق هو بحر الادرياتيك . ومن ثم لم يشهد السلطان العثمانى استقرارا للحكم العثمانى فى البانيا (٢) .

أما فى الجبهة الاخرى (جبهة المجر) ، فقد شن السلطان مراد الثانى هجمات متعاقبة حالفة التوفيق فيها ، الامر الذى جعل أوربا تهب من جديد الى تحالف صليبى بقصد طرد العثمانيين من أوربا ، وقد اشترك فى هذا الحلف : البابوية والمجر وبولندا ، والصرب ، ووالاشيا ، وجنوه والبندقية والامبراطورية البيزنطية ودوقية برجنديا ، كما انضمت الى الحلف كتائب من الالمان والتشيك ، واسندت قيادة جيوش الحلف الى القائد المجرى « هونياد » . وقد استطاعت القوات الصليبية الثأر لهزيمتهم فى واقعة نيكوبوليس ، وأيقاع أربع هزائم متتالية بالقوات العثمانية ، مما اضطر العثمانيين الى طلب الصلح ، فكانت معاهدة

(١) محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، د. الشناوى — المرجع السابق ص ص ٦٢٤ — ٦٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٦٢٦ — ٦٣٠ .

(سزيجيدن) (٨٤٨ هـ / يونية ١٤٤٤ م) التى فقد فيها العثمانيون اهم اقاليم بلاد الصرب والافلاق ، وتعهد فيها كل من السلطان مراد الثانى وفلاديسلاف ملك المجر ان يكون نهر الدانوب حدا فاصلا لا تعبره جيوش الفريقين لمدة عشر سنوات . وعلى اثر ذلك راى السلطان مراد الثانى ان يستريح من عناء الملك — لا سيما وقد ازدادت حالته النفسية سوءا بعد موت ابنه الاكبر علاء الدين — فنزل عن العرش لابنه « محمد الثانى » (وكان حديث السن لا يتجاوز الاربعة عشر ربيعا) واعتكف متعبدا فى مكان منعزل ، الامر الذى اطمع الصليبيون فى الدولة العثمانية، فزحف هونياد المجرى بجيشه على بلغاريا وحاصر مدينة « فارنا » (ورنة) ، مما اضطر مراد الثانى الى الخروج من عزلته الدينية وقاد جيشا كثيفا ، استطاع به ان يوقع بالصليبيين هزيمة ساحقة فى واقعة « فارنا » (نوفمبر ١٤٤٤) ، واراد السلطان مراد — بعد هذا النصر — ان يعود الى عزلته الدينية ، ولكن حدث ان قام الانكشارية سنة ١٤٤٥ بحركة تمرد وراى ان ابنه محمد اصغر من مواجهة الموقف ، فعاد نهائيا الى مباشرة سلطاته . وقد استطاع مراد الثانى خلال السنوات الباقية من حكمه ان يخضع الصرب سلميا عن طريق زواجه بابنة اميرها ، وان يوقع هزيمة ساحقة بالجيش المجرى بقيادة هونياد — الذى اراد ان يثار لهزيمته فى واقعة فارنا — فى معركة قوصوه الثانية (١٧ اكتوبر ١٤٤٨) (١) . وقد مات السلطان مراد الثانى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م فترك لابنه « محمد الثانى » ملكا واسعا ثابت الاركان .

محمد الثانى (الفاتح) ١٤٥١ — ١٤٨١ :

وقد استطاع السلطان محمد الثانى الشهير « بمحمد الفاتح » رغم صغر سنه فقد كان عند توليته العرش احدى وعشرون سنة — ان يحقق الحلم الذى داعب خيال الفاتحين الاسلاميين من قبله وهو فتح القسطنطينية .

فتح القسطنطينية (٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م)

يعتبر فتح القسطنطينية على ايدى العثمانيين سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م أهم احداث القرن الخامس عشر الميلادى ، بل ويعتبره جمهرة

(١) محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ص ٥٦ — ٥٨ ، ابراهيم بك حليم ، المصدر السابق ، ص ص ٥٨ — ٦٢ .
د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٦٣٠ — ٦٣٥ .

المؤرخين ذلك الحدث نهاية **العصور الوسطى** فى أوربا وبداية العصر الحـــديث .

ويرجع تاريخ القسطنطينية الى الامبراطور قسطنطين الاكبر الذى نقل عاصمة الدولة الرومانية القديمة الى مدينـــة « بيزنطـــة » عـــلى شـواطىء البوســـــفور ســـنة ٣٣٠ م ، وقـــد سميت من ذلك الحين بالقسطنطينية نسبة اليه . وفى سنة ٣٩٥ م تم تقسيم الدولة الرومانية لى قسمين : الدولة الرومانية الغربية وعاصـــــمتها روما ، والدولة الرومانية الشرقية (١) وعاصـــمتها القسطنطينية . ولم تعمـــر الدولة الغربية طويلا لكثرة غارات الامم المتبربرة عليها ، فسقطتتحت أقدام القوط سنة ٤٧٦ م . أما الدولة الشرقية (البيزنطية) ، فقد لبثت نحو ١٠٠٠ سنة تمكنت فيها بفضل مناعة موقعها من رد غارات الامم المتبربرة الاوربية من القوط والسلاف وغيرهم ، كما صدتهجمات الفرسوالعرب المسلمين عن حاضرتها نفسـها وعن معظم أوربا ، ولكنهـــا لم تســـتطع الدفاع عن اكثر ممتلكاتها خارج أوربا ، فقد انتزع المســـلمون من يدها شرقى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر وبرقة وافريقية ، وجزر الحوض الشرقى للبحر المتوسط . ورغم ضعف الدولة البيزنطية ، فقد ظلت القسطنطينية معقـــلا للمسيحية الشرقية ، ووكرا للمؤامرات التى تدبر ضد الدولة العثمانية التى امتدت فتوحاتها فى آســـــيا الصغرى والبلقان ، حتى أصبح امبراطور القسطنطينية ليس له سلطان خارج اســـوارها (٢) .

ومن الجـــدير بالذكر — قبل الحديث عن أحداث الفتح — أن نلقى بعض الضوء عن أهمية هذه المدينة وموقعها وحصانتها الطبيعية ،لنعرف مدى اهمية الجهود التى بذلت فى فتحها .

تحتل مدينة القسطنطينية موقعا حصينا فريدا بين مدن العـــالم ، ويكفى أن ندرك ذلك أن نلقى عليها نظرة على الخريطة ، فهى تحيط بها البحار من ثلاث جهات ، وتقع عند ملتقى القارتين أوربا وآسيا ، وقد حبتها الطبيعة بجانب ذلك بأسباب المنعة والقوة وجودة الطقس ، ولها

---

(١) ويطلق عليها ايضا اسم الدولة البيزنطية نسبة الى الاسم القديم لعاصمتها وهو « بيزنطة » ، كما يطلق عليها ايضا اسم « دولة الروم » ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذه التسمية الاخيرة بقوله تعالى فى سورة الروم « غلبت الروم فى أدنى الارض ... الآية » .

(٢) انظر — سليمان بن خليل بن بطرس جاويش — التحفة الســـنية فى تاريخ القسطنطينية ، ص ص ٥ — ١٠ .

ميناء هو القرن الذهبى يعد أوسع ميناء فى العالم ، كما تعتبر المدينة من أعظم المراكز التجارية اذ تأتى اليها المتاجر من كل صوب برا وبحرا .

وقد ادرك الغزاة والفاتحون منذ القدم خطورة هذه المدينة وأهمية موقعها،فحاولوا محاصرتها والاستيلاء عليها،غير أن المدينة بمناعة موقعها وقوة حصونها استطاعت أن تصد عنها كل من حاول الاستيلاء عليها ، وقد كان للمسلمين الاوائل نصيب كبير من محاولات الاستيلاء على القسطنطينية ، وأعظم محاولاتهم ما كان فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وسليمان بن عبد الملك فى القرن الاول الهجرى (السابع والثامن الميلاديين) ، وبالرغم من كثرة الجنود وعظم العدة التى أعدها الخليفة معاوية الاول ، ومن أتى بعده ، وما اظهروه من قوة العزم والبسالة فى الحصار والقتال برا وبحرا ، بالرغم من ذلك فقد ردتهم المدينة بأسوارها القوية ونيرانها الاغريقية المدمرة ، ولذلك ظلت المدينة حوالى عشرة قرون معقلا للمسيحية (١) .

وقد كان طبيعيا بعد أن استقر أمر الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى ، ولاصقوا دولة الروم أن يتجهوا الى هذه العاصمة المنيعة ، وقد ادرك سلاطين آل عثمان كغيرهم قيمة هذه المدينة وعظم قدرها فحاصروها وحاولوا فتحها ، ولكن لم يكن لديهم حينذاك من القوة والعدة ما يمكنهم من فتحها ، فحاصرها بايزيد الاول والسلطان مراد الثانى لكنهما لم يصلا الى فتحها كما رأينا وظل أمر المدينة كذلك حتى جاء السلطان محمد الفاتح الذى استطاع بما أظهره من قوة العزيمة واحكام القيادة ، وحسن التنظيم والمثابرة فى الحصار والقتال أن يبلغ فتح هذه المدينة ، وبذلك حقق حلم الفاتحين الذين كانوا يحلمون به منذ نحو ألف عام .

مقدمات فتح القسطنطينية :

ادرك السلطان محمد الفاتح — بعد أن تولى الحكم — أنه لن يستقر له أمن ولا طمأنينة ما بقيت مدينة القسطنطينية العاصمة الطبيعية لدولته فى يد غيره ، وقد كان تصرف امبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين الحادى عشر وبعض الامراء والحكام فى آسيا الصغرى ، وفى أوربا ازاء السلطان العثمانى مما استحثه على المبادرة الى القيام بهذا الفتح ، ذلك

(١) د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٦٣٨ — ٦٣٩ ، د. محمد كمال الدسوقى ، المرجع السابق ، صص ٣٣ — ٣٤ .

أن السلطان الفاتح لم يكد يجلس على العرش حتى قام ضـده « أمير القرمان » واثار معه عدة أشخاص زاعما أنهم ابناء الامراء القدامى لبعض الامارات الاخرى التى سيطر عليها العثمانيون مثل « كرميان وايدين ومنتشا ... الخ ، ودفعهم الى هذه الامارات ليستولوا عليها بحجة انها ميراثهم القديم ، وقد بعث السلطان الفاتح أمير أمراء الاناضول «اسحاق باشا » لاخماد هذه الحركة ، وسار هو فى أثره ، ولما فوجىء أمير القرمان ومن حذا حذوه بهذا الزحف الخاطف ، وأنه اضعف من أن يناجزه تقدم الى الفاتح مستعطفا راجيا اياه الابقاء على امارته ، فرق الفاتح له واجابه الى طلبه ، وقد انتهز قسطنطين زحف الفاتح الى آسيا الصغرى لقمع حركة أمير القرمان فغدر به ونقض معاهدة السلام التى ابرم تبينه وبين الفاتح بعد توليه الحكم (١) . وليس ببعيد أن يكون ثمة تآمر بين أمير القرمان وامبراطور البيزنطيين على الايقاع بالسلطان العثمانى ، والقضاء عليه ، لكن على اية حال فقد فشلت هذه المؤامرة المزدوجة ، وذلك بخضوع أمير القرمان كما رأينا ، اما قسطنطين فسنرى أن نهايته كانت افجع وانكى .

وبعد أن عاد الفاتح الى عاصمته ادرنة أخذ يعد العدة لتأديب الامبراطور قسطنطين وحصار القسطنطينية وفتحها لانها تهدد دولته من وقت لآخر ، وكان أول ما قام به من الاستعدادات أنه بنى قلعة منيعة على الشاطىء الاوربى من البوسفور على بعد سبعة كيلو مترات من القسطنطينية عند أضيق نقطة من البوسفور وهى قلعة « روم ايلى حصار » التى وقفت تجاه أختها القلعة التى بناها بايزيد على الشاطىء الاسيوى والتى تسمى قلعة « أناضولى حصار » . وهكذا أصبح العثمانيون يسيطرون على ضفتى البوسفور الاوربية والآسيوية بواسطة قواتهم وتحصيناتهم فى القلعتين ، وبذلك يحولون دون وصول أية مساعدة للقسطنطينية من البحر (٢) ، كما جدد السلطان الفاتح المعاهدات واتفاقيات الهدنة التى كانت تربط الدولة العثمانية بالمجر والصرب ووالاشيا وجمهوريات جنوه والبندقية وراجيز وأهل جنوه المقيمين فى حى جلاطة بالقسطنطينية ، وكانت تلك حركة سياسية بارعة لتأمين جانب القوات العثمانية عند هجومهما على القسطنطينية ، وقد رحب الجميع بتجديد تلك الاتفاقيات .

---

(١) ابراهيم بك حليم — المصدر السابق ، ص ص ٦٣ — ٦٤ ، محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ص ٥٨ — ٥٩ ، د. محمد كمال الدسوقى — المرجع السابق ،ص٣٥ .

(٢) ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ، ورقة (٥٦) .
محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ٥٩ .

وعندما رأى الامبراطور قسطنطين عظم القوة والاستعدادات التى اعدها الفاتح لغزو القسطنطينية أيقن ألا مناص من الحرب ، فبعث الى دول أوربا يستغيث ويستنجد ، وأعلن فى رسالته الى البابا انه يوافق على ما قرره « مجمع فلورنسا » خاصا بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وناشده الاسراع فى ارسال المعونة والمدد ، ولكن ملوك أوربا تقاعسوا عن نجدة الامبراطور لانشغالهم بمشاكلهم الخاصة ونزاعهم الداخلى ، وكان أكثرهم اهتماما بأمر القسطنطينية : البابوية وجنوه والبندقية لدوافع شخصية خاصة بها ، هذا فضلا عن بعض المتطوعين الذين لم يزد عددهم عن الالف مقاتل قدموا من اسبانيا وأيطاليا والمانيا ، بالاضافة الى ٧٠٠ مقاتل قدموا من جنوه تحت قيادة ضابط ماهر اسمه « جيوفانى جستنيانى » الذى لعب دورا اساسيا فى معاونة الامبراطور قسطنطين وكان سببا فى أطالة أمد الحصار (١) .

حصار القسطنطينية :

بعد أن أتم السلطان الفاتح كل استعداداته زحف بجيشه البالغ عدده (٢٦٥,٠٠٠) من المشاة والفرسان المسلحين بالبنادق تصحبهم المدفعية الثقيلة (٢) قاصدا القسطنطينية وكان فى طليعة هذا الجيش الشيوخ والعلماء والدراويش ، وما ان وصل الى مشارف المدينة حتى خطب فى الجيش خطبة عظيمة حثه فيها على الجهاد وصدق القتال ، وقرأ آيات من القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية الشريفة المبشرة بفتح المدينة ، وفى يوم ٢٧ ربيع الاول ٨٥٧ هـ / ٦ من ابريل سنة ١٤٥٣ م بدأ السلطان الفاتح فى محاصرة القسطنطينية فعلا بعد أن عبأ الجيش ونظم الصفوف ووزع آلات الحصار والقتال ووضع كل شىء فى موضعه ونسقه كأحسن ما يكون التنسيق . كما قام الاسطول العثمانى البالغ عدده حوالى (٤٠٠) سفينة بفرض حصار بحرى على العاصمة ، وان كان لم يستطع اكمال حلقة الحصار لتعذر دخوله ميناء القرن الذهبى نظرا لوجود سلسلة ضخمة فى مدخله تحرسها بعض السفن النصرانية (٣) .

---

(١) د. محمد كمال الدسوقى — المرجع السابق ، ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) التى صنعها احد المهندسين العسكريين المجريين ويدعى « أوربان » وكان فى خدمة الامبراطور البيزنطى الذى لم يدفع له مرتباته فانتقل الى خدمة السلطان الذى أجزل له العطاء (د. الشناوى — المرجع السابق ، ص ٦٤٣) .

(٣) ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ورقة (٥٦) .

ولكن نوضح خطة السلطان الفاتح فى حصار القسطنطينية ، نرى لزاما علينا أن نذكر فى ايجاز وصفا لموقع المدينة وحصانتها الطبيعية ، وتحصيناتها المنيعة .

فالقسطنطينية مدينة مثلثة الشكل ، اذ هى اشبه بمثلث متساوى الساقين محاط باسوار من كل جانب ، راسه بارز شرقا فى مياه البوسفور ، والضلع الشمالى يطل على الميناء المسمى بالقرن الذهبى، والضلع الجنوبى يطل على بحر مرمرة ، أما قاعدة هذا المثلث فهى الاسوار الغربية التى تفصل المدينة عن باقى القارة الاوربية ، وكان على هذا الجانب سوران عظيمان يمتدان من شاطىء القرن الذهبى الى شاطىء بحر مرمرة ، وكان السور الخارجى من المتانة والقوة بحيث يكفى لحماية اكبر مدينة من مدن العصور الوسطى ، وبين هذين السورين فضاء يبلغ متوسط عرضه نحو ٦٠ قدما ، ويقع أمام السور الخارجى سور ثالث ليس بذى خطر ، وقد سمى هذا السور بالمتراس، وأمام هذا المتراس خندق واسع يبلغ عرضه نحو ٦٠ قدما ، ويعتبر هذا الخندق بمثابة خط الدفاع الاول عن مدينة القسطنطينية ، وللسور الخارجى (الثانى) للمدينة ابواب كثيرة أهمها ثلاثة (١) .

اما خطة السلطان الفاتح فى الحصار ، فقد اقام الجيش أمام السور الخارجى وجعله ثلاثة أقسام : الميمنة والميسرة والقلب ،وقد اقام الفاتح وراء هذا القلب مركز القيادة العامة للاشراف على حركات الجند وسير القتال . أما قسطنطين فقد أعد كل ما استطاع اعداده من جند وعتاد لمقاومة هذا الحصار ، وقد شدد الحراسة بصفة خاصة على ميناء القرن الذهبى خشية أن تقتحمه السفن العثمانية ، فعمد الى سد مدخله بسلسلة ضخمة لحماية السفن النصرانية وراءها ، ووزع جنوده (٢) على أسوار القسطنطينية ، واتخذ هو مكانه فى القلب تجاه جيش السلطان الفاتح .

---

(١) سليمان بن خليل بن بطرس جاويش — التحفة السنية فى تاريخ القسطنطينية ، ص ص ٢٥ ، ٣١ ، ادوارد جيبون اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها (٣ أجزاء) ج ١ ترجمة د. محمد سليم سالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٦٩ م ، ص ٣٤٥ .

(٢) كان عدد سكان العاصمة الصالحين لحمل السلاح يبلغ نحو ٣٥ الفا لم يتقدم منهم للدفاع عنها سوى خمسة آلاف ، انضم اليهم نحو ٤٠٠ رجل من سكان جنوه وألف وستمائة من جنسيات مختلفة ، بالاضافة الى أعداد اخرى من المتطوعين من أوربا حيث بلغ المجموع الكلى لقوات الامبراطور عددا يتراوح بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف أما الاسطول فكان يتكون من ٢٣ سفينة يونانية و ٦ سفن أجنبية (د. عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ص ص ٦٤٣ — ٦٤٤) .

بعد ان احكم العثمانيون الحصار ، اخذت مدافعهم تطلق قذائفها الهائلة على سور القسطنطينية وسط دقات الطبول وتهليل الجنود المسلمين وتكبيرهم . وفي يوم ١٨ ابريل حاول العثمانيون اقتحام سور المدينة من الوسط ، كما حاولت بعض السفن العثمانية تحطيم السلسلة القائمة عند مدخل القرن الذهبي ، ولكن باءت المحاولتان بالفشل ، كما تمكنت بعد ذلك بيومين أربع سفن قادمة من جنوه تحمل الطعام والمعدات والرجال من دخول المدينة رغم محاولة الاسطول العثمانى منعها من توصيل الامدادات لسكان المدينة المحاصرين ، وقد اغتبط أهل القسطنطينية بنجاحهم في صد الاتراك برا وبحرا وقوى املهم في مقاومة العثمانيين وبدا أن المدينة ستتمكن من المقاومة لمدة طويلة (١) .

لم تدم فرحة أهل القسطنطينية طويلا ، فبعد يومين فقط أذهل السلطان محمد الفاتح الجميع داخل المدينة بما فعله ، حين نفذ خطة جريئة عجيبة فريدة من نوعها في التاريخ ، لقد أدرك الفاتح بفطنته وعبقريته العسكرية انه لا أمل في الاستيلاء على المدينة الا بالهجوم عليها برا وبحرا في وقت واحد ، وذلك لا يتاتى الا بالاستيلاء على ميناء القرن الذهبي ، ولكن انى له ذلك والميناء تسده سلسلة حديدية ضخمة تقوم بحراستها السفن النصرانية وتمنع دخول السفن العثمانية الى هذا الميناء لمهاجمة المدينة من اضعف جوانبها . امام تلك العقبات لاحت للفاتح فكرة بارعة موفقة لنقل سفنه برا الى القرن الذهبي دون التعرض للسلاسل الحديدية في مدخله ، لقد أمر بتمهيد طريق على البر وفرشه بالخشب المدهون بالشحم لتنزلق عليه السفن بسهولة حتى تصل من البحر عند البوسفور الى القرن الذهبي من الداخل عند الميناء . وبهذه الطريقة تمكن الفاتح من ادخال حوالى ثمانين سفينة عثمانية جرها العمال على المزالق والبكر لمسافة عشرة أميال (٢) . فاذا علمنا طول المسافة وضخامة السفن وكثرة العوائق وبساطة الوسائل ، بالاضافة الى انجاز هذا العمل الضخم في ليلة واحدة (٢١ — ٢٢ أبريل ١٤٥٣ م) لادركنا اهمية هذا الحدث التاريخي الفريد من نوعه في تلك العصور ، الامر الذى اثار الفزع والرعب في صفوف سكان القسطنطينية عندما استيقظوا صبيحة اليوم الثانى والعشرين من ابريل على صيحات المسلمين وتكبيراتهم المدوية عقب نزولهم بسفنهم في القرن الذهبي ، وقد بدأت تلك السفن — فور نزولها الى الميناء — في قذف المدينة واسوارها بوابل

---

(١) ادوارد جيبون المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ص ٣٤٩ — ٣٥١ .

(٢) ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ، ورقة (٥٧) ، ادوارد جيبون المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ص ٣٥٢ — ٣٥٣ ، د. الشناوى — المرجع السابق ، ص ٦٤٤ .

من القـــذائف (١) .

وبذلك أحكمت حلقة الحصار حول القسطنطينية : الســـــفن العثمانية فى القرن الذهبى وفى بحر مرمرة وفى مدخل البوسفور والدردنيل، والجيش البرى تجاه السور الخارجى الذى يطل على أوربا ، وبالطبع لم يكن من الممكن أبدا — والحالة هذه — أن تظل الســـــفن العثمانية والسفن النصرانية قابعة فى القرن الذهبى دون صـــدام ، كما شـــدد الفاتح هجماته البرية على ســـور المدينة ، الامر الذى أنهـــك قـــوى المحاصرين ، واتاح لهم عدم الراحة ، حتى اصبحت نفوسهم مكدودة ، واعصابهم مرهقة من طول الحصار الذى استمر حوالى خمسين يوما ، ونقص الطعام وترقب هجوم العثمانيين عليهم بين لحظة وأخرى .

الفتــــح :

أمر الفاتح باعداد الهجوم الشامل على المدينة من البر والبحر ، وفى فجر يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الاولى سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو ســـنة ١٤٥٣ م دقت الطبول فى جميع أرجاء المعسكر العثمانى ايذانا ببــــدء الهجوم ، انطلق بعدها الجنود العثمـــانيون يهجمـــون عـــلى ســـور القسطنطينية من البر والبحر ، واستمر القتال بين الفريقين مريرا عنيفا وقد أعلن السلطان بين جنوده قائلا لهم : ان « الغنايم كلها لكم وتكفينى المدينة » (٢) ، وتحت وابل من النبال والسهام التى أمطر بها المدافعون زحف الانكشارية على اسوار المدينة ، وفى مثل لمح البصر اقتحم الاتراك اسوار المدينة ، ورفرفت أعلامهم على بعض أبراجها ، ثم تدفقت جموع الاتراك الى المدينة كالطوفان يتسلقون الاســـــوار ويفتحون الابواب ويعملون فى أعــــدائهم القتل ، ورأى الامبراطور قسطنطين نهـــاية الامبراطورية البيزنطية ، وهو يزفر أنفاسه الاخيرة ، وقد أصيب بعدد كثير من الطعنات فى وجهه وفى مؤخرة رقبته وسقط صريعا بين أكوام الجثث (٣) ، ولم يقف شىء بعد قتله فى وجه الاتراك فدخلوا المدينة ظافرين، وكان ذلك اليوم العظيم هو يوم الثلاثاء ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م (٤) ، ثم توجه السلطان الفاتح على ظهر جواده يحف به كبــار رجال الدولة ، وما ان بلغ منتصف المدينة حتى توقف عن السير ، وخطب فى من حـــوله

---

(١) ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره ، ورقة (٥٧) .

(٢) المصدر السابق ، ورقة (٥٧) .

(٣) يروى جيبون : ان الامبراطور قسطنطين قال قبل أن يلفظ آخر أنفاسه على يد الاتراك « اليس من بين المسيحيين من يقطع رأسى ! » وذلك خوفا من وقوعه حيا فى يد الاتراك انظر ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

(٤) د. الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٦٤٧ — ٦٤٨ .

خطبة عظيمة حمد فيها الله واثنى عليه وهنأ رجال دولته بالنصر ، ونهاهم عن القتل والنهب ، ثم ترجل عن جواده واستقبل القبلة وسجد على الارض شكرا لله على ما منحه من توفيق ونصر (١) . وقد قام السلطان الفاتح بايفاد رسله الى جميع انحاء العالم الاسلامى ليبشرهم بالفتح فأرسلوا اليه وفود التهنئة (٢) .

اثر العامل الدينى فى فتح القسطنطينية :

لا شك أن العامل الدينى كان له أثره الفعال فى فتح القسطنطينية، لا سيما اذا عرفنا ان الدولة العثمانية منذ قامت اسلامية ، وانها اتخذت الجهاد فى سبيل الله شعارا لها فى توسعها فى أوربا ، وأن التكتلات الاوربية لوقف زحفها كانت صليبية بحتة ، ومن ثم غمر الحماس الدينى الطرفين المتحاربين ، واخذت الحرب بينهما الطابع الدينى ، فاستمات البيزنطيون فى الدفاع عن القسطنطينية باعتبارها معقل المسيحية الشرقية ، كما صمم العثمانيون على فتحها لاتخاذها عاصمة للاسلام ومن ثم قام العلماء العثمانيون من رجال الدين ، وافراد الطرق الصوفية بدور رائع فى تعبئة الشعور الدينى مرددين حديثا نسب الى النبى عليه الصلاة والسلام « لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الامير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » ، وكان السلطان محمد الثانى نفسه لا يكف عن ترديد هذا الحديث آناء الليل وأطراف النهار ، حتى أصبح بمثابة الشعار للجيش العثمانى ، ويردده كل فرد فيه بلغته التى يفهمها (٣) .

أضف الى ذلك ما رواه ابن الوكيل — فى مخطوطته التى بين ايدينا — من أن الشيخ آق شمس الدين — الذى خلف الفقيه الكبير الشيخ البخارى فى مكانته عند العثمانيين — قد بشر السلطان محمد الثانى بالنصر « وقال له ستفتح قسطنطينية ان شاء الله على المسلمين وسيدخلونها من المحل الفلانى فى اليوم الفلانى من هذا العام وقت الضحوة الكبرى ... » ، كما روى هذا الشيخ أنه رأى فى المنام أبا أيوب الانصارى الصحابى (٤) يحدد له موضع قبره الذى دفن

---

(١) محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ٦١ .

(٢) ابن الوكيل — المصدر السابق ، ورقة ٥٧ ، ابن اياس — المصدر السابق ، ج ٢ ص ص ٤٤ ، ٥٤ ، ١٢٢ ، ١٣٢ .

(٣) د. الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٦٤٤ — ٦٤٥ .

(٤) كان أبو أيوب أحد القادة المسلمين الذين ساروا لثمانية قرون خلت على رأس الجيش الاموى بقيادة يزيد بن معاوية لفتح القسطنطينية سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م على عهد الخليفة معاوية بن ابى سفيان ، وقد استشهد أبو ايوب الانصارى فى أثناء عمليات الحصار ودفن خارج القسطنطينية على مقربة من أسوارها .

فيه على مقربة من أسوار القسطنطينية ، ويقول : « شكرا لله بسعيكم الذى خلصتمونى من ظلمة الكفر » ، فأمر السلطان محمد الثانى الجنود العثمانيين بحفر المكان بحضور الشيخ ، فوجدوا القبر يضم جثمان هذا الصحابى الجليل (١) ، فكان لهذا الكشف أثره الكبير فى اشتعال نفوس الجند بالحماس الدينى الجارف لفتح القسطنطينية ، تلك المدينة التى استشهد أمام أسوارها أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى الجانب البيزنطى ايضا اذيعت نبوءات دينية استهدف منها أصحابها تثبيط همم اليونانيين وتخذيلهم عن الدفاع عن القسطنطينية بحجة أن سقوط القسطنطينية يخفف من حدة الويلات التى يتعرض لها سكان العاصمة ، وكان من بين هذه النبوءات قولهم انه حين يصل العثمانيون منتصرين الى مكان معين داخل العاصمة ، فسوف يهبط ملاك من السماء ويضع سيفا فى يد رجل يجلس عند قاعدة تمثال قسطنطين ، وعندئذ يقوم هذا الرجل ، وبقوة خارقة للعادة ، بتمزيق أجساد العثمانيين ، فيصبحون أثرا بعد عين ، وتلود قلوبهم بالهرب الى جوف آسيا (٢) ، وقد روج لهذه النبوءة فئة من رجال الكنيسة الشرقية وعلى راسهم جورج سكولاريوس ، وهو أول بطريرك يعين لهذه الكنيسة فى ظل الحكم العثمانى الاسلامى ، كما سنرى بعد قليل ، وقد روجوا لهذه النبوءة رغبة منهم فى احباط مشروع الاتحاد بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما ، وتفضيلا منهم لعمامة السلطان على قبعة البابا ، وقد فعلت هذه للنبوءة فعلها فى نفسية البيزنطيين ، اذ اشاعت فيهم روح التخاذل والتواكل ، والاستسلام (٣) . فلا غرو — بعد هذا — أن نجد جيوش العثمانيين الهادرة تقتحم القسطنطينية بحماس اسلامى دافق ، وهم يرددون فى صوت هادر رجت له ارجاء المدينة قولهم « لا اله الا الله، محمد رسول الله » ، ولا غزو أيضا أن نجد البيزنطيين واقفين فى الميدان ينتظرون حدوث المعجزة بنزول الملاك من السماء لانقاذهم وانقاذ مدينتهم ، فاستسلموا للعثمانيين الذين شدوا وثاقهم وساقوهم اسرى لهم (٤) .

* * *

---

(١) ابن الوكيل — مصدر مخطوط سبق ذكره — الورقتان ٥٧ — ٥٨ .
(٢) ادوارد جيبون ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦٣ .
(٣) د. الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٦٤٩ — ٦٤٧ .
(٤) المرجع السابق ، ص ص ٦٤٧ — ٦٤٨ .

العاصمة الجديدة للدولة العثمانية :

بعد أن تم فتح القسطنطينية قرر السلطان محمد الفاتح اتخاذها عاصمة لدولته فأطلق عليها اسم « اسلامبول » أى دار الاسلام ، ثم أصبحت تكتب استانبول ، كما حول أكبر كنائسها وهى كاتدرائية أيا صوفيا الى مسجد ، كما حول عددا آخر من الكنائس الى مساجد ، وقد أظهر السلطان الفاتح تسامحا عاليا فى معاملته لسكان القسطنطينية ، فمنح أهالى جنوه من سكان حى جلاطا شروطا مناسبة للصلح ، وأعطى لكبار رجال الدين المسيحى حرية دينية كاملة ، بل انه زاد من سلطانهم بأن وكل اليهم أمر القضاء المدنى . والفصل فى القضايا الخاصة بالاحوال الشخصية للمسيحيين من رعايا كنيستهم ، وأمر بانتخاب بطريرك لهم ، ففاز بهذا المنصب جورج سكولاريوس الذى كان يتزعم الحزب المعارض لانضمام كنيسة القسطنطينية الى كنيسة روما ، وقد اتخذ لنفسه بعد الانتخاب اسم « جناديوس » ، واحاطه السلطان الفاتح بكل مظاهر التكريم والتبجيل ، وسمح بعودة اليونانيين الذين غادروا المدينة قبل سقوطها ، وقد تمتعوا فى ظل الحكم العثمانى بالحرية الكاملة ، كما تدفق على العاصمة اعداد هائلة من المسلمين من مختلف أنحاء آسيا الصغرى ، ليستفيدوا من الموقع التجاري الممتاز للعاصمة ، ومن الخدمات والاوقاف التى رصدتها الدولة لخدمة العلم وطلابه ، وسرعان ما تحولت استانبول لتصبح المركز الفكرى الاول فى العالم الاسلامى ، وذلك بفضل تنافس سلاطين آل عثمان على تعميرها باقامة المستشفيات والمدارس والفنادق والمساجد والمصانع وتشجيع العلماء ، وجلب أمهر الصناع والفنيين لها من مختلف انحاء الامبراطورية (١) .

مواصلة التوسع بعد فتح القسطنطينية :

ولم يكن فتح القسطنطينية هو نهاية المطاف بالنسبة للسلطان محمد الفاتح الذى لم يكن قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره حين أصبح اسمه على كل لسان فى أوربا وفى العالم الاسلامى والعالم المسيحى على حد سواء ، لقد أعطى فتح القسطنطينية لمحمد الثانى الفرصة والرغبة فى مواصلة حروبه من أجل تدعيم الدولة العثمانية وتوسيع رقعة املاكها فى أوربا ، حتى أنه حين توفى السلطان محمد الفاتح فى ٢ مايو سنة ١٤٨١ م كانت قد أصبحت الامبراطورية العثمانية تشمل آسيا

(١) محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ص ٦١ ، ٦٧ .
د. محمد كمال الدسوقى — المرجع السابق ، ص ص ٤٣ — ٤٦ .

الصغرى وبلاد اليونان ومعظم شبه جزيرة البلقان ، وكان الاتراك قد وضعوا اقدامهم فى أوترانتو عند كعبشبه الجزيرة الايطالية ، واصبحوا يهددون سلامة ايطاليا وأوربا كلها .

ذلك أن السلطان الفاتح بعد أن تم له فتح القسطنطينية وجه جيوشه نحو بلاد الصرب والبوسنةوالهرسك والمورة والبانياوجمهوريتى جنوة والبندقية ومملكة نابلى ، وقد حالفه التوفيق فى معظم هذهالحروب، فأخضع المورة والصرب والبوسنة والهرسك ، أما البانيا فقد استطاع اسكندر بك الالبانى أن يصد هجمات العثمانيين عليها سنة ٨٧١ هـ / ١٤٦٧ م ، وأما بلغراد — وهى المفتاح الطبيعى لسهول المجر — فقد أخفق السلطان الفاتح فى الاستيلاء عليها ، ونظرا لتصدى القائد هونياد المجرى للعثمانيين وهزيمتهم ، كما أخفق فى غزو جزيرة رودس معقل فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يهاجمون منها السفن الاسلامية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وأما جنوة فقد استطاع السلطان الفاتح أن يبسط سيطرته على ممتلكات الجنويين ومحطاتهم التجارية فى بحر ايجة وفى البحر الاسود وفى الاناضول حيث استطاع مواصلة فتوحاته فى تلك الجهات فاستولى على مملكة طرابيزون من بقية أملاك الروم ، وعلى امارة اوزون حسن التركمان ، كما توغل فى أملاكالبندقية توغلا فزع منه البنادقة ولم يسعهم الا قبول الصلح المهين فى معاهدة سنة ١٤٧٩ م حيث قبلوا دفع جزية سنوية للسلطان والتنازل له عن عدة مدن وجزائر فى مقابل السماح لهم بممارسة التجارة فى الاراضى العثمانية . واما شبه الجزيرة الايطالية فقد كان خيالها يداعب فؤاد السلطان الفاتح الذى كان جل أمانيه فتحها ورفع لواء الاسلام على روما فى الغرب كما رفعه على القسطنطينية فى الشرق ، ومن ثم وجه همه لفتح ايطاليا فأرسل جيشا استولى على مدينة أوترانتو فى مملكة نابلى سنة ١٤٨٠ م واعتزم ان يتخذها قاعدة للزحف على شبه الجزيرة حتى يصل الى روما ، ولكن المنية عاجلته فى الثانى من مايو سنة ١٤٨١ م ، ثم انسحب العثمانيون من أوترانتو فى عهد خلفه،وقد تنفست اوربا الصعداء حين علمت بنبأ وفاة السلطان الفاتح ، وأمر البابا أن تقام صلاة الشكر ثلاثة أيام (١) .

---

(١) محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ص ٦١ — ٦٧ .
ابراهيم بك حليم — المصدر السابق ، ص ص ٦٤ — ٦٧ .
ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحروب والتوسعات : أنظر :
د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٦٥٥ — ٦٦٩ .

بايزيد الثانى (١٤٨١ - ١٥١٢ م) :

تولى بايزيد الثانى الحكم بعد والده السلطان محمد الفاتح ، عقب فترة من النزاع على العرش مع أخيه الامير جم الذى اقترح عليه تقسيم الامبراطورية العثمانية بينهما الى شطرين : شطر اوربى وآخر اسيوى، ولكن بايزيد الثانى رفض مبدأ التقسيم من اساسه ، وحارب جم الذى هزم واضطر الى اللجوء الى سلطان مصر المملوكى قايتباى (٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م) الذى سمح له بالخروج لمحاربة اخيه بايزيد الثانى ، فهزم جم مرة ثانية ، ثم فر لاجئا الى بلاد الفرنجة ، فأرسل اليه بايزيد من احتال على اغتياله (١) .

كان بايزيد الثانى محبا للسلم ، فاهتم باقامة المنشآت الفخمة ، وتعبيد الطرق واقامة الجسور وتشييد المساجد ، ولكن ذلك لم يشغله عن ارسال جيوشه الى أطراف الدولة لتوطيد سلطته عليها ، ورد غارات الاعداء عنها ، فقد حاول البولنديون غزو اقليم مولدافيا (البغدان) ولكن الجيوش العثمانية ردتهم على أعقابهم ، بل واتمت احتلال اقليم البوسنة احتلالا كاملا ، وقد اتخذ بايزيد من هذا الاقليم قاعدة لشن الهجوم على ممتلكات البندقية فى دالماشيا عندما نشبت الحرب فى عام ١٤٩٩ بين جمهورية البندقية وبينه ، وبعد حملات ثلاث عقد بايزيد الثانى صلحا مع البندقية عام ١٥٠٣ ، كما عقد فى نفس العام هدنة مدتها سبع سنوات مع المجر التى طالت احتكاكاتها بالدولة العثمانية ، وبذلك نعمت البلاد بفترة من السلم ، الى أن استولى ابنه سليم على السلطة فى عام ١٥١٢ ، تحت ضغط الانكشارية الذين التفوا حول سليم ، ثم اوعز سليم الى من دس السم لابيه بايزيد (٢) . وباعتلاء سليم العرش بدأت الدولة العثمانية دورا جديدا ، فقد توقفت الفتوحات العثمانية فى أوربا نحو الغرب ، وبدأت صوب الشرق ضد الدولة الصفوية فى ايران ، وضد الدولة المملوكية فى مصر والشام .

---

(١) ابن الوكيل - مصدر مخطوط سبق ذكره ، الورقتان ٥٩ ، ٦٠ ، وانظر السير وليم موير - تاريخ دولة المماليك فى مصر - ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، ط ١ القاهرة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م ، ص ١٦٠ .

(٢) ابن الوكيل - المصدر السابق ، الورقات ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، محمد فريد بك - المصدر السابق ، ص ص٦٨ - ٧٣ .

الفصـــل الثالث

العالم العربى تحت الحكم العثمانى

العالم العربى والاسلامى ابان الغزو العثمانى :

أطل القرن العاشر الهجرى أو السادس عشر الميلادى على العالم الاسلامى وفيه ثلاث دول كبرى وهى :

الدولة الصفوية فى بلاد فارس التى قامت على أساس دينى قومى ، ويعد الشاه اسماعيل الصفوى (١٥٠٠ — ١٥٢٤ م) المؤسس الحقيقى لهذه الدولة ، وقد وطد العزم على أن يقيم فى ايران دولة مستقلة يدين أهلها بالتشيع ، ويعمل على نشره حتى يصبح المذهب الغالب فى العـــالم الاسلامى ، ومن ثم اتجه الى العراق الذى كان يقاسى من اضـــطرابات كثيرة نتيجة اختلاف الدول المغولية والتركمانية على حكمه ، الامـــر الذى سهل على الشاه فتح بغداد سنة ١٥٠٨ م (١) ، ولكنه لم يستطع تحويل أهل العراق كلهم الى المذهب الشيعى ، برغم العسف الذى صبه عليهم ، فاستصرخوا القوى الاسلامية الاخـــرى لانقاذهم من عسف الصفويين ، وكانت الدولة العثمانية بقواتها الصـــاعدة هى المرشحة للقيـــام بهـــذا الدور (٢) .

الدولة العثمانية : التى أسسـها الاتراك كامارة صغيرة فى الاناضول (آسيا الصغرى) منذ القرن الثـــالث عشر ، ثم توســـعوا على أنقاض الامارات التركية غير العثمانية فى الاناضول ، وأملاك الدولة البيزنطية فى الاناضول والبلقان ، ولا سيما بعد ســـــقوط القسطنطينية على يـــد السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م ، حيث اتخذها العثمانيون عاصمة لهم واطلقوا عليها اسم « اسلامبول » (دار الاسلام) ، واستمر التوسع العثمانى فى البلقان وحوض نهر الدانوب ، وشكلوا بذلك خطرا شديدا

---

(١) ابن اياس — المصدر السابق (مجلد واحد طبعـــة الشعب القاهرة ١٩٦٠) ص ص ٧٧٣ — ٧٧٤ .

(٢) ابن العماد (عبد الحى بن العماد الحنبلى) ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٨ اجزاء) نشر مكتبة المقدس بجوار الازهر الشريف ١٣٥١ هـ ، ج ٨ ، ص ١٤٤ .

على أوربا ، حتى ظهر فى عالم السياسة الاوربية وقتذاك ما عرف باسم « المسألة الشرقية » التى كان معناها حينئذ اتقاء خطر العثمانيين الداهم على أوربا ، ولكن مفهوم المسألة الشرقية لم يلبث ان تطور عندما ضعفت الدولة العثمانية ، واصبح يعنى طـرد العثمانيين من أوربا ، وتقسيم ممتلكاتهم بين الدول الاوربية الكبرى .

على أن الدولة العثمانية لم تلبث عند ظهور الصفويين ان وجهت نشاطها الحربى نحو الشرق ، حيث قام صراع حربى سافر بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية ، واستطاع سليم الاول سلطان الدولة العثمانية أن يوقع الهزيمة باسماعيل الصفوى شاه الدولة الصفوية فى موقعة تشالديران (اغسطس ١٥١٤ م) ، ودخل تبريز عاصمة الدولة الصفوية ولكنه أرتد عنها ، نظرا لشدة القحط وقلة المئونة ، وتأخر وصول الامدادات بسبب عرقلة الغورى لقوافلها (١) ، الامر الذى جعل سليما يدرك مدى خطورة دولة المماليك فى مصر . على الدولة العثمانية كما جعله يزحف بعد عامين على الشام لتأديب المماليك ، ومن ثم جاء اصطدام العثمانيين بالدولة المملوكية فى مصر .

الدولة المملوكية فى مصر : (دولة المماليك البرجية) وكانت تحكم مصر والشام ، ولها السيادة على بلاد الحجاز واليمن ، وقد أصابت الحضارة الاسلامية حظا كبيرا من الازدهار فى العصور الوسطى فى مصر نتيجة لرواج التجارة بين الشرق والغرب عبر الطرق التى تجتاز البلاد العربية ، غير أن موارد البلاد اخذت فى النضوب منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند سنة ١٤٩٨ م ، على يد البرتغاليين الذين شرعوا فى احتكار تجارة الشرق وانتزاعها من أيدى المسلمين من أجل تحطيم قوتهم وتجارتهم فى البحار الشرقية ، فاستولى البرتغاليون على قواعد حصينة عند مداخل هذه البحار — حتى يسهل عليهم حصار العرب وابعادهم عن ميدان التجارة الشرقية — كجزيرة سوقطرة بقرب مدخل البحر الاحمر ، وجزيرة هرمز ومسقط عند مدخل الخليج العربى ، هذا وقد تأثرت الدولة المملوكية تأثرا ملحوظا بهذا التحول التجارى الذى اتخذ لونا صليبيا صارخا حين عمل البرتغاليون على تحطيم القوى الاسلامية فى الهند ، كما سعوا الى النفاذ الى البحر الاحمر أملا فى النزول

(١) المصدر السابق ج ٨ ص ١٤٤ ، الغـزى (نجم الدين بن بدر الدين ... بن احمد) الكواكب السائرة باعيان المائة العاشرة ، (ثلاثة أجزاء) ، ج ١ تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، المطبعة الامريكانية بيروت ١٩٤٥ ، ص ٢٠٩ ، القرمانى — المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

الى الحجاز ، وانتهاك حرماته بالتحالف مع الحبشة ، وقد بذلت مصر جهودا عسكرية رائعة لوقف هذا النشاط البرتغالى فى البحار الشرقية ، ولكن لم يقدر لها النجاح ، ووطد البرتغاليون أقدامهم فى قواعدهم الحصينة ، وأمعنوا فى احتكار التجارة الشرقية ، والضغط على القوى الاسلامية والعربية فى تلك الجهات (١) .

وهكذا واجه الشرق العربى فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر حالة خطيرة : الضغط الصفوى الايرانى — من ناحية — لتنفيذ سياسة مذهبية معينة ، والضغط البرتغالى — من ناحية أخرى — لحرمان الشرق العربى من اهم موارده وهو نشاطه فى تجارة الشرق .

أما المغرب العربى : فقد قامت على أنقاض دولة الموحدين — التى سقطت سنة ١٢٦١ م أى بعد سقوط بغداد فى المشرق العربى بثلاث سنوات ، والتى كانت تجمع عرب المغرب جميعا من برقة الى المحيط الاطلنطى فى وحدة سياسية واحدة — قامت على أنقاض هذه الدولة دول صغيرة دب بينها الخلاف والتنازع ، الامر الذى أطمع فيها الدول الاوربية المواجهة لها على البحر المتوسط ، ومنها جنوه والبندقية ومالطة والامارات المسيحية فى الاندلس التى كانت تزحف على ما بقى للمسلمين هناك ، وبسقوط غرناطة — آخر معقل للمسلمين — سنة ١٤٩٢ م انتهى ملك المسلمين فى الاندلس ، ونقل الاسبان تلك الحرب الصليبية الى شمال افريقيا ، فشرعوا يستولون على أهم الثغور العربية ، ومن ذلك طرابلس فى ليبيا ، فقد استولى عليه الاسبانيون سنة ١٥١٠ م واتخذوه قاعدة لعملياتهم الحربية فى البحر المتوسط لمدة عشرين سنة ، كذلك اشتدت غارات الاسبان على تونس حيث كان الحكم لامراء بنى حفص ، وضغط الاسبان على الجزائر وحاولوا الاستيلاء عليها سنة ١٥١٦ م ، ولكنهم فشلوا أمام مقاومة الجزائريين بقيادة عروج بربروس ، كما لم يسلم المغرب الاقصى (مراكش) من اعتداءات الاسبان والبرتغاليين المتكررة ، ولكن قيام دولة الاشراف السعديين فى أوائل القرن السادس عشر معتمدة على الحماس الدينى والقومى وضع النهاية لهذه الاعتداءات ، واستطاع المغرب الاقصى أن يعزز مكانته كدولة مستقلة أجبرت العثمانيين الذين كان نفوذهم قد امتد الى الحوض الغربى للبحر المتوسط على احترام استقلالهم .

---

(١) سيديو — تاريخ العرب العام — ترجمة عادل زعيتر — ط ٢ ، عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٦٩ م ، ص ص ٤٢٠ — ٤٣٢ .

وهكذا كان العالم العربى سواء فى المشرق أو المغرب يواجه ظروفا تكاد تكون متشابهة نتيجة لعدوان البرتغاليين والاسبان على بلادهم ، الامر الذى مهد لتقدم الاتراك العثمانيين لرد هذا العدوان وضم البلاد العربية الى ملكهم (١) .

اتجاه العثمانيين نحو الشرق :

اثار ترك السلطان سليم الاول ميدان الفتح والتوسع فى أوربا واتجاهه بفتوحاته ناحية الشرق ، أثار ذلك تساؤلات الباحثين عن السبب فى ذلك ، فمنهم من أرجعه الى الوصول الى درجة التشبع فى الميدان الاوربى ، ولعل ذلك مردود عليه باتجاه ابنه السلطان سليمان المشرع الى الفتح والتوسع فى أوربا مرة اخرى ، وهناك رأى آخر حول ذلك وهو أن اتجاه العثمانيين الى الشرق يرجع الى رغبتهم فى حماية المشرق العربى الاسلامى من الخطر البرتغالى الاستعمارى الصليبى . الذى دأب على القضاء على النشاط التجارى العربى الاسلامى فى البحار الشرقية ، ولكن الجدير بالملاحظة أن العثمانيين اذا كانوا قد وصلوا الى اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية ، واتخذوا منها قواعد للتصدى للبرتغاليين ، ونجحوا فى جعل البحر الاحمر بحيرة اسلامية صرفة ، فان هذه الاجراءات من جانب العثمانيين كانت وقائية دفاعية ، فضلا عن أنهم لم يقدموا عليها الا بعد وصولهم الى تلك المناطق ، وأصبح من الواجب عليهم حمايتها والدفاع عنها بعد أن صارت ممتلكات عثمانية . وهناك رأى ثالث يقول : ان اتجاه العثمانيين الى الشرق يرجع الى رغبة السلطان سليم فى اخضاع العالم العربى الاسلامى ، والاماكن المقدسة الاسلامية فى دولة واحدة تحت سيادته حتى يعطى للدولة العثمانية الصبغة الاسلامية السنية فى مواجهة أوربا المسيحية من جهة ، ودولة الصفويين الشيعية من جهة أخرى (٢) ، غير أنه يمكن القول أن السلطان سليم وان كان قد استطاع تحقيق هذه النتائج فعلا ، الا أنه لا يمكن القول بأنها كانت فى مخططه وهو يتجه بجيوشه صوب الشرق ، فكثيرا ما تتمخض الاحداث عن نتائج لم تكن فى الحسبان قبل وقوع تلك الاحداث ، اذ ان الثابت من التاريخ أن السلطان سليم عندما توجه لمحاربة المماليك فى الشام لم يكن يفكر جديا فى الاستيلاء على مصر ، بل كان الهدف هو تأديب المماليك لعرقلتهم وصول قوافل المؤن اليه أثناء

---

(١) د. جلال يحيى — العالم العربى الحديث ، المدخل — دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ص ٣٥ — ٤٩ .

(٢) د. عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ص ص ٥٨٢ — ٥٨٥ .

عملياته الحربية ضد الصفويين (١) ، بدليل أنه بعد هزيمة المماليك فى موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ ، واستيلائه على الشام ، حاول التوصل الى صلح مع المماليك مكتفيا بالجزء الشمالى من الشام تاركا مصر وبقية أجزاء الشام فى حوزتهم فى ظل السيادة العثمانية ، ولكن رفض المماليك بالاضافة الى تحريض خايربك وجان بردى الغزالى للسلطان سليم هو الذى دفعه الى السير فى حروبه حتى دخل مصر ، وهناك دليل يؤكد ذلك وهو أن السلطان سليم جاء على لسانه فى حديث له مع طومان باى بعد هزيمة الاخير والقبض عليه : « ياطومانباى .... انى أرسلت لك من الشام أن تجعل السكة والخطبة باسمى ، وانت مقيم على ملك مصر ، وأنا ظهيرك ومعين لك على سائر ملوك الارض ، فأبيت ذلك .... والله ما كان قصدى أذيتك ونويت الرجوع من حلب ، ولو أطعتنى من الاول وجعلت السكة والخطبة باسمى ما جئت لك ولا دست أرضك » (٢) . وهناك دليل آخر وهو أنه عندما اشتدت المقاومة الشعبية المصرية بقيادة طومان باى للعثمانيين بعد واقعة الريدانية (يناير ١٥١٧ م) ، والحقت بالعثمانيين خسائر فادحة ، ندم سليم على مجيئه الى مصر أكثر من مرة وهم بالبطش بخايربك الذى زين له الزحف على مصر (٣) .

على أن التفسير الاقرب الى المنطق لترك السلطان سليم الاول الميدان الاوربى ، واتجاهه الى دمشق ، هو أن الاحداث التى كانت تجرى وقتئذ فى تلك المنطقة ، هى التى حتمت عليه أن يوجه جهوده الحربية هذه الوجهة ، فقد كانت تجاور دولته فى الشرق دولتان اسلاميتان (الصفوية فى فارس ، والملوكية فى مصر والشام) بما يحمله وجودهما فى طياته من خطر يتهدد دولته ، ويجعل الصدام أمرا محتوما ، فالدولة الصفوية التى قامت على أساس قومى دينى دأبت على نشر مذهبها الشيعى الفوضوى المسمى « بقزل باش » اى الراس الاحمر بين رعايا الدولة العثمانية فى الاناضول ، حيث استجاب بعض الرعايا له ، فكان من الطبيعى أن تهب الدولة العثمانية السنية لمواجهة هذا الزحف الشيعى الذى يهدد كيانها سياسيا ودينيا ، فاتجه السلطان سليم الى العراق ومنها الى فارس ، حيث أنزل الهزيمة بالشاه اسماعيل الصفوى فى

---

(١) ابن العماد — المصدر الاول ، ج ٨ ، ص ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٢) ابن زنبل (الشيخ أحمد الرمال) — آخرة المماليك واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى — تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٢ ص ص ١٣٤ ، ١٣٦ .

(٣) انظر بحثا للمؤلف بعنوان « السلطان الاشرف طومان باى والمقاومة المصرية للغزو العثمانى » .

موقعة تشالديران (١٥١٤ م) ، ودخل تبريز العاصمة ، ثم عاد الى عاصمته بعد أن اطمأن الى زوال الخطر عن دولته ، ولكن هذه الحرب كانت لها نتيجة اخرى ، وهى انه باستيلاء العثمانيين على بعض الجهات من الصفويين اصبحت الممتلكات العثمانية مجاورة دولة المماليك فى الشام، فضلا عن توفر اسباب الخصومة بين الدولتين ، الامر الذى ادى الى وقوع الصدام بينهما (١) .

الغزو العثمانى للعالم العربى

الشام ومصر

تأرجحت العلاقات بين الدولة العثمانية الفتية ، وبين دولة المماليك البرجية ، بين الود وحسن الجوار والتكريم المتبادل بينهما الذى وصل الى حد تبادل الهدايا والتهانى بالانتصارات العسكرية حينا ، وبين النفور والشقاق والتنازع الذى وصل الى حد الصدام العسكرى على الحدود بين الدولتين حينا آخر (٢) ، وقد وصل العداء بينهما الى درجة شديدة تنذر بقرب الصدام الحاسم بين الدولتين فى عهد السلطان قانصوه الغورى ومعاصره السلطان سليم الاول العثمانى ، فقد توفرت أسباب النزاع بين هذين السلطانين مثل : الخلاف على الحدود بين الدولتين ، وايواء الغورى لبعض الامراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم ، واتخاذهم اداة لاثارة المتاعب والقلاقل فى الدولة العثمانية ، وموقف الغورى غير الودى من العثمانيين أثناء حربهم ضد الصفويين ، وهو موقف لم يتسم بالحكمة ، ذلك أن الغورى لم يقف على الحياد بين الطرفين المتحاربين ، ولم ينضم صراحة الى جانب الصفويين ولقد كان بوسعه فى هذه الحالة أن يقدم مساعدة فعالة للصفويين أثناء توغل الجيش العثمانى فى الاراضى الفارسية ، وذلك اما بالزحف فى أثره وايقاعه بين شقى الرحى ، الجيش الصفوى من الامام والمملوكى من الخلف مما يعرضه لخطر الابادة ، واما بقطع خط الرجعة على الجيش العثمانى الى بلاده ، واما بالتوغل فى الاراضى العثمانية أثناء غيبة الجيش العثمانى عنها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، واكتفى الغورى بالتأييد الشكلى الذى بذله للصفويين ، وذلك بمنعه الهدايا التى كانت مرسلة

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق ، ص ص ٥٧٧ — ٥٧٨ .

(٢) لمعرفة التفاصيل انظر بحثا للمؤلف بعنوان « السلطان الاشرف طومان باى والمقاومة المصرية للغزو العثمانى » ، تحت عنوان (العلاقات بين العثمانيين والمماليك فى مصر) .

من الهند الى استانبول ، وعرقلته وصول قوافل المؤن للجيش العثمانى مما أعاق تقدمه ، وجعل سليما يدرك خطورة الدولة المملوكية ، ويصمم على الانتقام ، وقد كان ذلك ففى طريق عودته الى بلاده — بعد انتصاره على الصفويين ودخوله عاصمتهم تبريز — استولى سليم على المناطق التى كانت تفصل بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية شرقى الشام وغربى الفرات فأصبحت الدولة العثمانية بحدودها الجديدة فى مواجهة دولة المماليك فى تلك المنطقة ، وبات الخطر وشيكا ، ولم تلبث ان اشتعلت الحرب بين الدولتين ، بعد أن فشلت محاولات الصلح بينهما . واستطاع العثمانيون انزال هزيمة ساحقة بالجيش المملوكى فى موقعة مرج دابق شمالى حلب (٢٥ رجب ٩٢٢ هـ / ٢٤ اغسطس ١٥١٦ م) وسقط السلطان الغورى من فوق حصانه من هول الصدمة وضاعت جثته بين آلاف الجثث ، وقيل ان بعض أتباعه — عندما وجدوه قد سقط على الارض — قطعوا رأسه والقوها فى جب حتى لا يجده العدوفيقتلونه ويأخذون رأسه يطوفون بها جميع البلاد العثمانية (١) .

عقب هزيمة المماليك فى مرج دابق وسع سليم نطاق عملياته الحربية فتساقطت تباعا وبسهولة فى يده المدن الشامية الكبرى : حلب وحماه وحمص ودمشق ، وتسابق أمراء البلاد واعيانها الى اعلان الولاء للحكم الجديد ، وخطب باسم سليم فى المسجد الاموى ، ثم أرسل سليم الى طومان باى سلطان مصر الجديد يعرض عليه الصلحبشرط اعترافه بالسيادة العثمانية ، وهم طومان باى بالموافقة على ذلك ، ولكن امراء المماليك صمموا على القتال وقتلوا رسل سليم ، فزحف سليم قاصدا مصر ، فالتقت مقدمة جيشه ، بمقدمة جيش المماليك عند غزه ، حيث هزم الجيش المملوكى ، وواصل سليم زحفه الى مصر ، فدخل العثمانيون القاهرة بعد هزيمة الجيش المملوكى فى موقعة الريدانية (٢٩ من ذى الحجة ٩٢٢ هـ / ٢٢ يناير ١٥١٣ م) (٢) .

---

(١) ابن اياس — المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٥٨ .
الاسحاقى (محمد عبد المعطى بن أبى الفتح الاسحاقى) ، لطائف أخبار الاول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، القاهرة ١٣١٥ هـ ، ص ص ١٢٨ — ١٢٩ .
ابن زنبل — المصدر السابق ، ص ٣١ .

(٢) ابن الحمصى (أحمد بن عمر بن ابراهيم الانصارى الشافعى) ، حوادث الزمان وأنباؤه ووفيات الاعيان وأبناؤه ، جـ ٣ مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٣٩ ومنها نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية رقم الفيلم (٤٨٠) ص ص ١١٩ — ١٢٠ .
ابن اياس — المصدر السابق ، جـ ٣ ص ص ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ — ١٠٠ .

لم يستسلم السلطان طومان باى بل ظل يجمع الانصار وينظم الصفوف استعدادا للمقاومة ، وقد ظل يناوىء العثمانيين زمنا طويلا في حماسة منقطة النظير ، وفى شهامة بالغة ، ووقعت بين الفريقين وقائع مروعة فى بولاق والصليبة وفى الجيزة وغيرها ، وشهدت هذه الاماكن قصصها اسطورية وملاحم عسكرية لهؤلاء المماليك وهم يدافعون عن مصر ، كما شهدت ضروبا من الخيانة وخسة الضمير من بعض العربان ومن الغزالى ، وأخيرا لجأ طومان باى بعد هزيمته فى واقعة وردان (١٠ ربيع الاول ٩٢٣) الى صديقه حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة الذى سلمه الى السلطان سليم فشنقه على باب زويلة يوم الاثنين ٢١ من ربيع الاول ٩٢٣ هـ / ٢٣ ابريل ١٥١٧ م . وطويت بذلك دولة المماليك البرجية ، وانتقلت من مسرح التاريخ الى كتب التاريخ(١) .

الحجاز :

وقد ترتب على ذلك أن دخل الحجاز سلميا تحت السيادة العثمانية فقد بادر شريف مكة باعلان ولائه للعثمانيين ابقاء على الروابط الاقتصادية التى تربط اقليم الحجاز بمصر ، فأرسل ابنه الى القاهرة يحمل التهانى ومفاتيح الحرمين الشريفين ، فأكرمه سليم واعطاه تفويضا بحكم والده ، وقرىء التفويض فى مكة المكرمة وخطب باسم سليم ، واحتفظت الدولة العثمانية بنظام الشرافة كما كان أيام دولة المماليك . وانشأت صنجقية عثمانية فى جده ، وقد ترتب على بسط السيادة العثمانية على اقليم الحجاز ، ظهور العثمانيين فى البحر الاحمر ، ومحاولتهم استكمال سيطرتهم عليه بالاستيلاء على اليمن ، وانقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالى الزاحف عليه من المحيط الهندى ، بعد أن اصبحت لهم ممتلكات تقع على شاطئيه ، واصبح الدفاع عن هذه الممتلكات واجبا تفرضه كرامة الدولة العثمانية ومصلحتها (٢) . وقد أخذ العثمانيون يتوغلون بعد ذلك شرقا وغربا وجنوبا ويستولون على البلاد العربية الواحدة تلو الاخرى بحيث لم يمض على موقعة مرج دابق ١٥١٦ م أربعون عاما حتى كان العثمانيون قد استولوا على جميع البلاد العربية ، عدا المغرب الاقصى من جهة ، وقلب الجزيرة العربية من جهة أخرى (٣) .

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ص ١٠١ ـ ١١٥ ، ابن زنبل ـ المصدر السابق ص ص ٥٠ ـ ١٤٣ .
(٢) د. عبد العزيز الشناوى ـ أوربا فى مطلع ... ، ص ٥٨٢ .
(٣) ساطع الحصرى ـ البلاد العربية والدولة العثمانية ـ ص ص ٩ ، ١٠ ، ٤٠ .

اليمن :

اتجه العثمانيون — بعد سيطرتهم على الحجاز — الى اليمن ، وقد تمكنوا من بسط سيادتهم عليه سلميا فى بادىء الامر ، وذلك بتثبيت واليه اسكندر الجركسى مثلما كان فى عهد المماليك ، غير أن استمرار النزاع بين القواد الجراكسة فى اليمن أدى الى زعزعة النفوذ العثمانى ، الامر الذى دفع العثمانيين الى تجريد حملة بقيادة سليمان باشا الخادم سنة ١٥٣٨ م ، دخلت عدن بترحيب من حاكمها عامر بن داود الطاهرى الذى كان فى نزاع مع امام الزيدية باليمن ، وقد غدر سليمان باشا بحاكم عدن الذى ساعده على دخولها ،كما قامتقواته بنهبها ،بينما فشلفىالايقاع بامام الزيدية . وعلى الرغم من نجاح العثمانيين فى التفاهم معامام الزيدية عام ١٥٥١ م مستثمرين نجاحهم فى بسط نفوذهم على الساحل الشرقى لافريقيا (سواكن ومصوع) ، الا ان سوء الحكم العثمانى ادى الى تجدد النزاع بين العثمانيين والزيديين الذين نجحوا فى طرد العثمانيين من عدن ومن معظم جهات اليمن ، الامر الذى اضطرت معه الدولة العثمانية الى ارسال حملة كبرى لاعادة فتح اليمن من جديد بقيادة سنان باشا (١٥٦٨ — ١٥٦٩) الذى استولى على عدن ثم دخل فى حرب عنيفة ضد الزيدية، حتى توصل الطرفان الى اتفاق يقضى بأن يحكم امام الزيدية مع اعترافه بالسيادة العثمانية ، غير ان النزاع لم يلبث ان تجدد بعد ذلك ، ونجح الزيديون فى تخليص صنعاء وعدن وتعز واخرجوا العثمانيون من اليمن كله عام ١٦٣٦ ، وعلى الرغم من عودة الحكم العثمانى الى اليمن مرة أخرى الا ان الامور لم تستقر للعثمانيين فيه نتيجة الاضطرابات والثورات المستمرة (١) .

الخليج العربى :

أما منطقة الخليج العربى فقد توالت حملات العثمانيين البحرية الى البحار الشرقية ، فانتزعوا مسقط من البرتغاليين . ونفذوا الى الخليج العربى حيث بسطوا سيادتهم على عمان والاحساء والبحرين والكويت ، ولكنها كانت مجرد سيادة اسمية ، فقد احتفظ الامراء والمشايخ العرب باستقلالهم ، غير ان اتجاه العثمانيين الى البحار الشرقية جعلهم يصطدمون بالنفوذ البرتغالى ، فارسل السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ — ١٥٦٦) عدة حملات بحرية بغية التصدى للبرتغاليين ، وقد وصلت

---

(١) د. محمود صالح منسى — حركة اليقظة العربية فى الشرق الاسيوى — دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ، ص ص ٢٥ — ٢٦ .

بعض هذه الحملات الى ساحل الهند ، ولكن التوفيق لم يحالفهـــا فى النهاية ، وعجز العثمانيون عن تحطيم القـــوة البرتغـــالية فى البحـــار الشرقيـــة (١) .

العـــراق :

واما العراق فقد بسط العثمانيون سيطرتهم على المناطق الشمالية منه (كردستان وديار بكر والموصل) عقب انتصارهم على الصـــفويين فى معركة تشالديران (اغسطس ١٥١٤) كما سبق أن رأينا ، اما العراق الجنوبى والاوسط فقد ظل تحت السيطرة الايرانية الى ان كان عهـــد السلطان سليمان المشرع الذى قاد بنفسه الجيش العثمانى فقضى على تمرد بعض امراء الحدود الذين تواطأوا مع شاه الفرس ، ثم اتجـــه الى تبريز ففتحها وترك بها حامية عثمانية ، ثم قصد بغداد ففتحها ســـــنة ١٥٣٤ م ، وقد اقام بها السلطان العثمانى مدة اربعة اشهر ، رتب خلالها الادارة الداخلية ، وزار قبور ائمة الشيعة — ترضية لهم — وقبر الامام على بن ابى طالب فى مدينة النجف ، وقبر ابنه الحسين فى كربلاء (٢) ، وقبل أن يغادر سليمان العراق بعث اليه حاكم البصرة العربى بابنـــه راشد يحمل اليه مفاتيح المدينة رمزا للخضـــوع والولاء ، وبذلك ضمت البصرة الى الممتلكات العثمانية ، واصبح العراق شماله وجنوبه خاضعا للحكم العثمانى (٣) .

غير أن الايرانيين فى عهد الشاه عباس ، استطاعوا دخول بغـــداد بالتواطؤ مع رئيس الشرطة بها الذى ثار على واليها وقتله وسلم المدينة للايرانيين ، فأرسل السلطان مراد الرابع عدة حملات لاسترجاع بغداد باءت كلها بالفشل ، فخرج بنفسه على رأس جيش كبـــير ، واســـترد عاصمة الرشيد بعد حصـــار لها دام اربعين يوما (١٥ نوفمبر — ٢٥ ديسمبر ١٦٣٨ م) (٤) ، ولم ينته الصراع بين ايران والدولة العثمانية الا فى عام ١٧٤٧ م حين خلص العراق للحكم العثمانى (٥) .

---

(١) محمد فريد بك — المصدر السابق . ص ص ١٠٠ — ١٠١ ، ساطع الحصرى — المرجع السابق ، ص ٩ .
(٢) محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ٩٠ .
(٣) د. محمود صالح منسى — المرجع السابق ، ص ٢٨ .
(٤) محمد فريد بك — المصدر السابق ، ص ص ١٢٥ — ١٢٨ .
(٥) د. الشناوى — أوربا فى مطلع العصور الحديثة — ص ٥٩٣ .

المغرب العربى (ليبيا وتونس والجزائر) :

واما بالنسبة للمغرب العربى ، فنود أن نقرر حقيقة هامة ، وهى أن التوسع العثمانى فى المغرب العربى قد اختلف فى شكله ووسائله عن التوسع فى المشرق العربى ، فبينما اتخذ التوسع فى المشرق شكل الغزو العسكرى ، واتخذ اسلوب القهر والقتل سبيلا لبسط السيادة والنفوذ ، الامر الذى نتج عنه اعتبار العثمانيين غزاة ، ومن ثم كانت المقـــاومة الشديدة بل والعنيدة لهم ، كما حدث فى مصر بصفة خاصـــة — نجد أن سيطرة العثمانيين على المغرب العربى قد اتخذت شـــكلا آخر تماما ، ووجد الاتراك العثمانيون ترحيبا من أهل هذه البلاد ، بل وكان ذهابهم اليها بدعوة من أهلها ؛ ذلك أن أســبانيا كانت قد استكملت وحـــدتها السياسية ١٤٩٢ بسقوط غرناطة — آخر معقل للمسلمين فى الاندلس — ولم يكتف الاسبان بطرد المسلمين من الاندلس وتخييـــر البـــاقين بين التنصير او القتل ؛ بل قاموا بمطاردة المسلمين الفارين بدينهم فى عرض البحر المتوسط ، فقتلوا الرجال وبقروا بطون النساء ؛ واستولوا على ما كان المســـــلمون قد حملوه معهم مما خف حمله وغلا ثمنه بل وتمادى الاسبان فى قرصنتهم فهاجموا موانى الساحل الشمالىالافريقى واستولوا على بعض القلاع ، فتصدى لهم المغاربة ، واســـــتعان حاكم الجزائر بالاخوين عروج وخير الدين — اللذين كانا قد كونا امارةمستقلة فى جزيرة جربة واتخذا منها قاعدة بحرية لجمع المتطوعين والسفن — لمعاونته فى طرد الاسبان ، فتمكن عروج من خلع حاكم الجزائر وحل محله ، ولكنـــه لم يلبث ان مات فى احدى المعارك ضد الاسبان ؛ فخلفه أخوه الاصـــغر خير الدين المعروف باسم « بربااروسا » اى ذى اللحية الحمراء ، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها بربااروسا فلم يســـتطع مواجهـــة الاسبان بجيوشهم وأساطيلهم ، فطلب مساعدة السلطان العثمانى الذى لبى طلبه ، فمنحه لقب « بك بكوات افريقيا » ونصبه قائدا للاســـطول العثمانى فى غرب البحر المتوسط ، وتدفقت عليه التعزيزات العثمانيـــة التى بفضلها تمكن بربااروسا من طرد الاسبان من قلعـــة « بنـــون » الساحلية ، كما استولى على بيزرته ، ثم تونس التى كان ملكها الوطنى مولاى الحسن تحت سيطرة الاسبان الذين استطاعوا بفضل المعـــونات الاوربية أن يستردوا تونس لفترة .

وقد استطاع « دراغوث » الذى خلف بربااروسا بعـــد وفاته أن يستولى على طرابلس ويطرد منها فرسان القديس يوحنا سنة ١٥٥١م، أما تونس فقد بقيت فترة من الزمن يتعاقب عليها العثمانيون والاسبان ؛

حتى استطاع سنان باشا أن يخلص تونس من الاستعمار الاسبانى . وقضى نهائيا على الدولة الحفصية سنة ١٥٧٤ م (١) ، وبذلك أصبح الشمال الافريقى جميعه — ما عدا المغرب الاقصى (مراكش) — تحت سيادة الامبراطورية العثمانية .

* * *

طبيعة العلاقات العربية التركية

نتج عن الغزو العثمانى والسيطرة السياسية على البلاد العربية، ووصول العثمانيين الى البحار الشرقية ان وقع على كاهلهم واجب الدفاع عن ممتلكاتهم فى هذه المناطق ضد الخطر البرتغالى الزاحف من المحيط الهندى ، كما سبق ان رأينا ، كما اكتسبت الدولة العثمانية صبغة عربية لم تكن لها من قبل ، ولا غرو فقد أصبح العرب يكونون نسبة كبيرة من سكانها ، كما تدعم مركزها كدولة اسلامية ، بعد ضم الاماكن المقدسة الاسلامية اليها ، وانتقال الخلافة الاسلامية الى آل عثمان مما دعم زعامتها للعالم الاسلامى .

أما عن طبيعة العلاقات التى قامت بين العرب والاتراك العثمانيين، فقد حددتها لفترة طويلة حقيقتان هامتان — **الاولى** أن الاتراك العثمانيين بعد بسط سيطرتهم العسكرية والسياسية على البلاد العربية احتفظوا بالبناء الاجتماعى والاقتصادى الذى كان سائدا فى تلك المنطقة قبل دخولها فى حوزتهم ، الا ماكان يتعارض مع السيادة العثمانية على البلاد المفتوحة (٢) فاكتفوا بفرض سيطرتهم العسكرية والسياسية عليها ، وتركوا لشعوب هذه البلاد مؤسساتهم القديمة ، وحرية الاحتفاظ بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم . ويقرر الاستاذ محمد شفيق غربال أن الباحثين اعتادوا أن ينسبوا كل شر أصاب العرب لخضوعهم للحكم العثمانى « والواقع أنه بالنسبة لمصر وسورية لا نجد أن التغيير الذى أصاب تلك الاقطار نتيجة للغزو العثمانى مس شيئا أساسيا من مقومات المجتمع . فبقيت عناصره كما كانت : فلاحوه وبدوه وصناعه وتجاره وعلماؤه وأجناده ، وأصحاب المناصب ، وما بين تلك العناصر من علاقات بقى كما كان ، ونظم حيازة الارض ونظم الجباية هى هى ، والواقع الذى يحدث كل يوم هو هو ،

(١) د. محمود صالح منسى — المرجع السابق ط ٣ سنة ١٩٧٨ — ص ص ٤٥ — ٤٨

(٢) محمد رفعت رمضان — على بك الكبير ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، ص ٨ .

والمثل الاعلى هو هو » (١) ولكن كان هناك فارق كبير بين مصر وبلاد الشام ، فقد حافظ العثمانيون على وحدة مصر اداريا ، فظلت ولاية واحدة من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ، ويحكمها باشا معين من قبل السلطان . أما بلاد الشام فقد انقسمت اداريا الى عدة ولايات منذ ان دخلها العثمانيون ، وظلت التقسيمات الادارية تتغير من وقت الى آخر ، وقد بدأ القرن التاسع عشر وسوريا مقسمةالى أربع ولايات تحمل أسماء عواصمها ، وهى ولايات : حلب ودمشق وطرابلس وصيدا ، الا ان عكا كانت هى العاصمة الفعلية لولاية صيدا (٢) ، كما ترك العثمانيون لهذه الشعوب حرية ممارسة شعائرهم الدينية بصورة علنية ، وحرية التقاضى فى الامور الشخصية والمدنية لدى رؤسائهم الدينيين مكتفين بفرض الجزية على المسيحيين منهم كبدل الاعفاء من الخدمة العسكرية(٣) كما ابقوا على نظام الطوائف التى كان ينقسم اليها أصحاب الحرف ، وكانت الطائفة بمثابة منظمة اجتماعية واقتصادية لها دستورها غير المكتوب من العادات والتقاليد الموروثة ، ولها شيخ يتولى شئونها وتنظيم علاقتها بالحكومة فيما يختص بالضرائب وحفظ النظام داخل الطائفة ورعاية مصالحها ، وقد ابقت الدولة العثمانية على هذا الوضع لكى يساعدها على حفظ النظام بين السكان والاتصال بالاهالى عن طريق شيوخهم (٤) . وقد ساعد هذا الوضع على احتفاظ العرب — فى ظل الحكم العثمانى — بمقوماتهم الاساسية من لغة وثقافة وعادات وتقاليد، كما أن العثمانيين — نتيجة لانعزالهم واستعلائهم — لم يحاولوا تتريك أو عثمنة الشعب العربى وصبغه بالصبغة العثمانية ولذلك فقد « ظلوا غرباء فى المناطق العربية التى أصبحت جزءا من امبراطوريتهم ، والذين توطنوا منهم الولايات العربية كانوا قلة » (٥) .

---

(١) محمد شفيق غربال — منهاج مفصل لدروس العوامل التاريخية فى بناء الامة العربية على ما هى عليه اليوم ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة، ١٩٦١ ، ص ١٣٠ .

(٢) د. عبد الكريم غرايبة — سوريا فى القرن التاسع عشر (١٨٤٠ — ١٨٧٦) ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦١/١٩٦٢ ص ٧١ .

(٣) توفيق على برو — العرب والترك فى العهد الدستورى (١٩٠٨ — ١٩١٤) ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٣ .

(٤) د. عبد العزيز الشناوى : الوحدة العربية فى التاريخ الحديث والمعاصر ، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، المجلد السابع ، العدد الاول ديسمبر ١٩٦٣ ص ١٦ .

د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤ — ١٩١٤ ، الانجلو المصرية القاهرة ، ١٩٦٣ ص ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٥) د. زين نور الدين زين / نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية فى العلاقات العربية التركية ، دار النهار — بيروت ، ط ٢ سنة ١٩٧٢ ، ص ص ١٩ — ٢٠ .

والحقيقة الثانية — أن العثمانيين منذ دخولهم البــــلاد العربية ارتبطوا بسكانها بوشيجة الاسلام ، فكان الدين هو القاسم المشـــترك بينهما وظل الامر كذلك حتى مطلع القرن العشرين فكان العرب « يعتبرون أن الدولة دولتهم فهى دولة الإسلام ، وأن السلطان المسلم هو الوارث الفعلى لرئاستهم وحامى حمى الاسلام ورافع لواء الجهاد ضـــد الكفر والكفار » (١) . وترجع هذه النظرة الى ما قبل الغزو العثمانى للبـــلاد العربية حينما اندفع العثمانيون فى موجات فتوحاتهم فى أوربا فقـــد كان المسلمون فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى يعتبرون هذه الحروب جهادا فى سبيل الله وتوسيعا لرقعة الاسلام الامر الذى « كان يرفـــع مكانتهم — أى العثمانيين — فى أنظار المسلمين ويقوى تيار المتطوعين لخدمتهم » (٢) فلا غرو أن اعتبر السلطان سليم استيلاءه على مصر وسوريا « انقاذا لها من جور المماليك » (٣) ولا غرو أيضا أن يبادر شريف مكة وأميرها بتقديم مفاتيح الكعبة الى السلطان سليم كدليل على حركة بسط السيادة العثمانية على الحجاز (٤) .

وهناك حادثة تدل دلالة عميقة على عمق العاطفة الاسلامية وعلى أن مجتمعات ذلك الوقت كانت مجتمعات اسلامية بعيــــدة عن مفهوم القومية وهى : أن السلطان طومان باى طلب من المغاربة المقيمين فى مصر اثناء غزو سليم الاول لها (يناير ١٥١٧) أن يشكلوا فرقة قوامها الف مقاتل لمحاربة العثمانيين فأجمع المغاربة على موقف واحد واجهــوا به السلطان طومان باى بكل شجاعة وهو أنهم لا يحاربون الا المسيحيين ، أما الاتراك العثمانيون فهم مسلمون وليس من الاســـــلام أن يشهروا سلاحهم فى وجوه اخوانهم فى العقيدة واصروا على رفض محاربة الاتراك العثمانيين على الرغم من تهديد طومان باى لهم بالسجن (٥) .

مما سبق يتضح لنا أن الاسلام كان أهم عامل جمع الاتراك والعرب فى رابطة متينة طيلة أربعة قرون وجد العرب أنفسهم خلالها جزءا من

---

(١) توفيق على برو : مرجع سابق ذكره ص ٤ .
وانظر أيضا د. زين نور الدين — مرجع سابق ذكره ص ٢٥ .
(٢) ساطع الحصرى — البلاد العربية والدولة العثمانية — مرجع سبق ذكره ص ١٦
(٣) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ص ٤ .
(٤) كان الدافع الاساسى للشريف بركات فى قبول السيادة العثمانية هــو رغبته فى الابقاء على الروابط الاقتصادية التى تربط مصر بالحجاز الذى كان يعتمد على ايراد أوقاف الحرمين الشريفين وتتمثل فى أموال سائلة تسمى الصرة وترسل مع قافلة الحج كل عام لتوزع على الاشراف وأصلاح الحرمين الشريفين وفقراء الحجاز ، كما تتمثل فى الغـــلال والحبوب التى كانت تشحن على مدار السنة الى جدة وينبع .
(٥) ابن اياس بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٣ ص ٩١ .

أعظم واقوى امبراطورية اسلامية عرفت منذ ظهور الاسلام ، وأما كون هذه الامبراطورية عثمانية فلم يكن ذلك فى نظر العرب المسلمين حتى مطلع القرن العشرين — وبعد أن أصبحوا يشعرون سياسيا بقوميتهم العربية — امرا ذا بال ما دامت هذه الامبراطورية التى يعيشون فى كنفها امبراطورية اسلامية فقد كان الجميع (عربا وتركا) يشعرون أنهم اعضاء فى أمة اسلامية عظيمة يربط بينهم دين واحد ويدينون بالولاء لحاكم مسلم هو السلطان العثمانى . يقول فى هذا الصدد أحد الباحثين العرب « كانت الامبراطورية العثمانية دولة اسلامية يحمل سلطانها لقب خليفة ويطبق احكام الشرع الاسلامى علىالمسلمين ، ولا يفرق بين عربىوتركى وكردى ما دام الاسلام قد وحد بينهم ، ولم يشعر العرب المسلمون السنيون انهم أقلية محكومة لانهم لم يكونوا كذلك وارتاح المسلمون واطمأنوا الى حكم سلطان السلاطين » (١) الذى كان ينظر اليه على انه « خليفة المسلمين » و « خادم الحرمين الشريفين » و « حامى القدس الشريف وحاكمها » وقد استبدل العثمانيون باسم عاصمة امبراطوريتهم القسطنطينية اسم آخر هو « اسلامبول » (أى دار الاسلام) أى حيث يزخر أو يغزر الاسلام (٢) .

وجدير بالذكر أن لفظة «عرب» لم تكن تطلق على السكانالمسلمين الذين هم من اصل عربى فى الوثائق والكتب والمعاملات بل كانتتسميتهم الشائعة هى كلمة « مسلمين » هم والترك على حد سواء فى وقت كان الدين هو الفارق المميز بين الجماعات (٣) ، او كلمة « تركى » التى كانت تشمل جميع المسلمين القاطنين فى الامبراطورية بغض النظر عن أصلهم العرقى ، أما لفظة « عربى » فكانت تطلق على البدو الرحل فى الصحراء بنوع خاص (٤) .

---

(١) د. عبد الكريم غرايبة — مرجع سبق ذكره ص ١٩ .

(٢) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ص ص ٢٥ ، ٢٦ ، هامش رقم ٢٥ ص ١٧٩ .

اما كلمة الاستانة فهى فارسية بمعنى دار السعادة ، وكان اسم دار السعادة العربى يطلق عليها أيضا فى الدواوين والمراسلات السلطانية (محمد عزة دروزة : نشأة الحركة العربية الحديثة طبعة منقحة وموسعة للقسم الاول من الجزء الاول من كتاب حول الحركة العربية الحديثة ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٧١ ط ٢ ، ص ١٥٧) .

(٣) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ص ٤ .

(٤) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ص ص ٢٦ ، هامش رقم ٢٦ ص ١٧٩

د. محمد بديع شريف ، زكى المحاسنى ، أحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ، من مطبوعات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، الانجلو المصرية ، لم تذكر سنة الطبع ص ١٩٣ .

انتقال الخلافة من العباسيين الى العثمانيين :

اختلف الباحثون واثاروا جدلا طويلا حول انتقال الخلافة العباسية الى العثمانيين عقب استيلائهم على الشام فمصر سنة ١٥١٧ ، فذهب المؤرخ الرومانى « قسطنطين دوسون » فى كتابه « صورة عامة للامبراطورية العثمانية » الى أن الخليفة المتوكل على الله قد قدم تنازلا عن الخلافة الى السلطان سليم الاول ، بعد استيلائه على مصر ؛ كما أعطاه شعائر الخلافة التى كانت موجودة بالقاهرة وهى بردة النبى (ص)؛ وبعض شعرات من لحيته الشريفة وسيف عمر بن الخطاب ؛ هذه الشعائر التى أرسلها سليم الى الاستانة ولا زالت موجودة بها الى اليوم ، ومنذ ذلك الوقت انتقلت الخلافة الى آل عثمان فى رأى هذا المؤرخ ، وان كان لم يذكر الوثائق او المصادر التى استند اليها فى تحقيق هذا الموضوع الخطير (١) . (وعن هذا المؤرخ أخذ معظم الباحثين يرددون فكرة التنازل) .

غير أن أستاذنا الدكتور عبد العزيز الشناوى ينفى هذه الفكرة ويرى أن الخليفة المتوكل — الذى كان قد خرج مع السلطان الغورى الى الشام — عاد الى مصر فى ركاب الجيوش العثمانية وقد حاول سليم استغلاله فى استمالة المصريين الى حكمه فأعطاه بعض النفوذ فداخله الغرور وبدت منه تصرفات اغضبت السلطان فأرسله الى العاصمة مع بعض ذويه سنة ١٥١٧ وعندما عاد سليم الى استانبول وجد الخليفة يعيش حياة ملؤها المجون والاستهتار والتكالب على جمع المال فاضطر الى حبسه حيث ظل فى محبسه حتى توفى سليم عام ١٥٢٠ وخلفه سليمان فأفرج عنه وسمح له بالعودة الى مصر فظل بها محتفظا بلقب خليفة حتى وفاته سنة ١٥٤٣ ، يؤيد ذلك أنه عندما ثار احد باشوات مصر ويدعى أحمد باشا على السلطان بغية الانفصال بحكم مصر أصدر له المتوكل تفويضا بذلك على غرار ما كان يفعل الخلفاء العباسيون فى مصر ابان حكم المماليك ورغم أن السلطنة العثمانية قضت على تلك الثورة الا أنها لم تلحق بالمتوكل سوءا واكتفت بتركه يعيش خامل الذكر حتى وفاته التى انتهت بها الخلافة العباسية فى مصر .

---

(١) نقلا عن د. عبد العزيز الشناوى — أوربا فى مطلع العصور الحديثة ص ٥٩١ .
د. حسن عثمان منهج البحث التاريخى — دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٠ ط ٣ ص ١٧٧
د. محمد انيس مرجع سبق ذكره ص ١٤٤ .

أما عن نقل شعائر الخلافة الى الاستانة فلا يعتبره استاذنا الدكتور الشناوى — دليلا على حدوث التنازل لان سيم الذى انتزع رخام المساجد واستولى على المخطوطات ونقلها مع العمال المهرة الى عاصمته لم يكن يستعصى عليه نقل شعائر الخلافة الى الاستانة أيضا فمجرد النقل لا يعنى أن حادثة التنازل قد وقعت بالفعل ولا سيما وأن مؤرخا مصريا معاصرا للغزو العثمانى — كابن اياس — رغم ذكره لتفصيلات كثيرة عن الخليفة المتوكل فى الشام ومصر والآستانة — لم يذكر شيئا عن مسألة التنازل هذه ، يضاف الى ذلك أن السلطان سليم فى رسائله التى كان يبعثها الى ابنه سليمان عند فتوحاته فى مصر والشام لم يذكر شيئا فيها عن حادثة التنازل (١) .

على ان الرأى الراجح — لدى أستاذنا الدكتور الشناوى — هو ان سلاطين آل عثمان لم يهتموا بعد غزوهم لمصر بلقب خليفة لان ذلك اللقب كان قد فقد مكانته منذ فترة طويلة سابقة اذ لم يكن يعطى لحامله سلطة فعلية بل اصبح مجرد رمز للتبرك ، ولم يكن سليم — الذى حقق مجدا عسكريا بانتصاراته المذهلة — بالشخص الذى يهتم بأن يرث لقب خليفة عن مثل خليفة القاهرة الضعيف الهزيل ، أما اللقب الذى كان يستهوى سليما ويعتز به بعد فتحه لمصر ، فهو لقب « خادم الحرمين الشريفين » الذى كان يتلقب به سلاطين المماليك بحكم تبعية الحجاز لمصر فورثه سليم بعد استيلائه على مصر وسيادته على الحجاز (٢) .

غير أن اهتمام سلاطين الدولة العثمانية بابراز لقب خليفة ضمن القابهم المتعددة لم يبدأ الا منذ القرن الثامن عشر نتيجة لظروف الدولة السياسية حيث بدأت تواجه ضغطا أوربيا يستهدف اقتطاع ممتلكاتها ، ومن ثم كان تمسك سلاطين آل عثمان بالخلافة كوسيلة لمقاومة هذا الضغط بتهديد الحكومات الاوربية بتحريك رعاياها المسلمين الخاضعين للحكم المسيحى من ناحية أو فرض سلطة روحية على المسلمين جميعا بما فيهم الواقعين تحت سيطرة الدول المسيحية من جهة اخرى ، وقد ظهرت آثار ذلك فى معاهدة كتشك كينارجى (١٧٧٤) المبرمة بين روسيا والدولة العثمانية والتى بمقتضاها استولت الروسيا على بلاد القرم الاسلامية فقد نص فى هذه المعاهدة على جعل المسلمين فى بلاد القرم

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ص ص ٥٨٨ — ٥٨٩
(٢) المرجع السابق ص ٥٩٠ .

خاضعين لسيادة السلطان العثمانى الروحية فأصبح من حقه تعيين المفتى والقضاة فى هذه البلاد (١) .

على اننا نجد أحد الباحثين وهو الاستاذ ساطع الحصرى لا يكتفى بانكار واقعة التنازل هذه بل يطلق عليها « اسطورة » اختلقها رجال الحكم فى الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليم بفترة كبيرة بهدف تقوية نفوذ الدولة العثمانية وتسهيل حكمها ، ويسوق العديد من الادلة على ذلك — كسكوت ابن اياس ويوميات فريدون بك التى سجلت أعمال السلطان سليم منذ خروجه للغزو حتى عودته الى العاصمة ، وتاريخ التواريخ الذى الفه ابن شيخ الاسلام الذى رافق السلطان سليم خلال غزوه مصر — عن ذكر واقعة التنازل (٢) .

كما انكر واقعة التنازل هذه المستشرقان الاوربيان : توماس أرنولد الانجليزى ، وكارلو الفونسو نلينو الايطالى وخلاصة دراستهما أن واقعة تنازل الخليفة المتوكل عن الخلافة للسلطان سليم لم تحدث الا انهما يقرران من جهة اخرى أن سلاطين آل عثمان قد اتخذوا لقب الخلافة بين القابهم العديدة قبل الغزو العثمانى لمصر بنحو قرن ونصف وأن هؤلاء السلاطين لم يكونوا يهتمون كثيرا بلقب « خليفة » بعد استيلائهم على مصر فلم يستعملوه الا قليلا بغير نص اذ كانوا يؤثرون عليه لقب « خادم الحرمين » غير أن مسألة الخلافة العثمانية قد اتخذت صيغة سياسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لمواجهة الضغط الاوربى من ناحية ولكسب عطف العالم الاسلامى وجمعه حول عرش الخلافة من ناحية اخرى (١) .

على أننا نجد أن الدكتور حسن عثمان يلقى ظلالا من الشك على كافة الآراء السابقة المؤيدة لفكرة التنازل والمعارضة وذلك بالتشكيك فى مصادر هذه الآراء وظروف تدوينها .

فسكوت ابن اياس عن ذكر الواقعة — فى رايه — لا يستلزم انها لم تقع بل يجوز وقوعها لان سكوته عن ذكر الواقعة ربما يكون كراهية فى العثمانيين الذين قضوا على دولة المماليك الذى هو أصلا ينتسب اليهم وشعورا منه بالعزة المصرية أو العربية وهى كراهية طبيعية .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٩٠ — ٥٩١ .

(٢) ساطع الحصرى : مرجع سبق ذكره ص ص ٤٢ — ٤٦ .

(٣) د. حسن عثمان — مرجع سبق ذكره ص ١٧٧ — ١٧٨ ، د. عبد العزيز الشناوى أوربا فى مطلع العصور الحديثة ص ص ٥٩١ — ٥٩٢ .

كما ان آراء الاستاذين أرنولد ونلينو ، ليست — فى رأيه — قاطعة لانهما اعتمدا فى اثبات آرائهما على الناحية الفقهية التى تعتبر نظام الخلافة الاسلامية الصحيحة منته بانتهاء عصر الراشدين كما أنهما اعتمدا ايضا على بعض النماذج المختارة المطبوعة من مراسلات السلاطين العثمانيين التى نشرها فريدون بك والمحتوية على القابهم والتى لا تعنى بلقب الخلافة العناية الكافية وذلك ليس دليلا على عدم اهتمام العثمانيين بلقب الخلافة فى العهد التالى أو القريب من غزو مصر ، كما أنه ربما أن يكون هذين الاستاذين قاما ببحوثهما بهدف الوصول الى نتيجة سياسية معاصرة معينة ، وهى تنفير الشعوب الاسلامية من الخلافة العثمانية تحقيقا لمصلحة بلديهما اللتين كانتا فى حرب مع الدولة العثمانية حيث أنهما قاما بهذه البحوث ابان الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) التى جعلت من المتعذر عليهما من ناحية أخرى الحصول على وثائق أرشيف الاستانة ، ومن ثم كانت آراؤهما غير دقيقة (١) .

مما سبق يمكن القول بأن واقعة التنازل عن الخلافة لا زال يكتنفها الغموض حتى الآن ، اذ لم يرد دليل قاطع ينفى أو يؤكد وقوعها ، وكل الذى نستطيع أن نؤكده هنا أن اهتمام سلاطين آل عثمان بلقب الخلافة كان بعد استيلائهم على مصر بوقت قصير ، وبالتحديد منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر وفى عهد سليمان المشرع ، وفى وقت كانت فيه الدولة العثمانية فى أوج عظمتها حيث لم يكن هناك ما يدعو الى اجتذاب المسلمين اليه تحقيقا لغرض سياسى فهناك مخطوطة تركية بمكتبة جامعة القاهرة تحمل رقم (٤٨٤٨) وهى صورة لمجموعة من المجموعات القانونية التى أصدرها السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ — ١٥٦٦) فى أوربا وتحتوى على بعض ألقاب السلطان ومنها ما يلى نصه : « خليفة رسول رب العالمين وحايز الامامة العظمى ووارث الخلافة الكبرى » كما توجد مخطوطة أخرى فى أرشيف فينا التاريخى وتحتوى على لقب الخلافة وهى عبارة عن رسالة من السلطان احمد الاول الى الامبراطور ماتياس النمسوى ، وتحمل تاريخ القسطنطينية فى ٢ جمادى الآخرة ١٠٢٦ هـ — ٢٦ يونيو ١٦١٧ م ، ومنها ما يلى نصه : « ظهر الله تعالى فى الارضين المتمكن على المقام الشريف انى جاعل فى الارض خليفة ... حامى وحاكمى السلطنة العلية ومقر الخلافة السنية ... » (٢) .

---

(١) د. حسن عثمان . مرجع سبق ذكره ص ص ١٧٨ — ١٧٩ .
(٢) المرجع السابق ص ص ١٧٩ — ١٨٠ .

وايضا كان ملوك أوربا يخاطبون السلاطين فى تلك الفترة المبكرة (أواخر القرن السادس عشر) بلقب الخلافة ، مما يدل على شـــيوع هذا اللقب ، ففى رسالة ملك فرنسا هنرى الرابع الى السلطان مراد الثالث سنة ١٥٩٣ — التى يتوسل فيها اليه ألا يلقى اذنا صـاغية لمن يجيئه من قبل ملك اسبانيا الذى كان يشن حربا ظالمة ضد ملك فرنسا . نجده يخاطبه بقوله : « الى السلطان خليفة المسلمين مراد خان السلطان المعظم القادر الفاضل الكريم الظافر الذى لا يقهر صاحب المجد والفضيلة صديقنا العزيز الودود ... » (١) .

ويمكن تفسير اهتمام سلاطين آل عثمان بلقب خليفـــة فى أوقات قوتهم ، أنه بعد سقوط بغداد على أيدى المغول سنة ٦٥٦ هـ — سنة ١٢٥٨ م ، شاع استخدام كلمة خليفة بين حكام المسلمين فى منـــاطق مختلفة من العالم الاسلامى ، استنادا الى كونهم يعتبرون أنفسهم خلفاء الله فى الارض ، ولذلك فهم يستمدون سلطانهم من الله مباشرة ، وهـــو ما عرف فى أوربا بالحق الالهى أو المقدس للملوك ، وكان سلاطين آل عثمان قبل استيلائهم على مصر يتلقبون بلقب خليفة ، كمراد الاول وبايزيد الصاعقة ومحمد الاول ، كما لقب سليم بهذا اللقب قبل أن يلى العرش (٢)، فاذا كان سليم — الذى لقب بهذا اللقب قبل توليته كما لقب به غيره من سلاطين آل عثمان الذين سبقوه — قد أنف بعد غزوه مصر أن يرث هذا اللقب من قبل خليفة القاهرة فما المانع أن يتلقب به سلاطين آل عثمـــان بعد وفاة المتوكل على الله سنة ١٥٤٣ ، وانتهاء الخلافة العباسية من الوجود لا سيما وقد شملت الدولة العثمانية فى عهد سليمان المشرع جميع العالم الاسلامى السنى ، بعد أن ابتلعت الدولة المملوكية ، وانتزعت العراق من الدولة الصفوية ، التى أصبحت ضعيفة أمام القوة العثمانية التى اصبحت ترفع علم الجهاد ضد أوربا وتمثل الواجهة الاســـلامية ، والقوة الاسلامية الناهضة . نقول ما المانع فى ذلك ؟ والعالم الاســـلامى بدون خليفة . وهل كان سلاطين آل عثمان يحتاجون الى تنازل رسمى ليتلقبوا بألقاب الخلافة ؟ ان العالم الاسلامى عاش فترة من الزمان كان فيه ثلاث خلفاء فى وقت واحد ، أحدهما عباسى والثانى فاطمى والثـــالث أموى بالاندلس وذلك خلال القرن الرابع الهجرى بدون أن يتنازل أى منهم للآخر عن لقب الخلافة وكان اثنان منهم فى أوج قوتهما .

---

(١) د. زين نور الدين زين : مرجع سبق ذكره ص ١٨١ هامش رقم ١١ .

(٢) د. عبد العزيز الشناوى . أوربا فى مطلع العصور الحديثة ص ٥٨٩ — ٥٩٠ .

الفصـــــل الرابع

خصائص الحكم العثماني وأثرها فى المجتمعات الاسلامية التى خضعت للعثمانيين

تميز الحـــكم العثمانى للعالم العربى بعدة خصائص كان لها أثر بارز فيما انتهت اليه الامبراطورية العثمانية من فساد وفوضى ثم ضعف وانهيار وتفكك ادى بها فى النهاية الى التقلص والتفتت نتيجة وقــوع اجزاء منها تحت السيطرة الاوربية ، واستقلال اجزاء اخرى وذلك خلال القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وتتمثل هـــذه الخصائص فيما يلى :

أولا ــ الاستعلاء والعزلة :

فقد عاش العثمانيون فى البلاد العربية « طبقة ارستقراطية منعزلة عن الشـــعوب العـــربية » (١) وكان « طابعها الصلف والصرامة والاستعلاء » (٢) الذى تمثل فى أسلوب حياتهم وفى طريقـــة استيطانهم العالم العربى ، فهم لم يختلطوا بالعرب ولم يصهروا اليهم بل تقوقعوا جنسيا واجتماعيا وثقافيا الامر الذى نتج عنه عدم اندماجهم فى العرب وانصهارهم معهم ، وهذا بعكس ما حدث بعد الفتح العربى للمنطقة فى صدر الاسلام حيث تتابعت الموجات البشرية المنطلقة من قلب الجـــزيرة العربية تبشر بالاسلام والعروبة فاقترب العرب من سكان البلادالاصليين منذ نهاية القرن الثانى واوائل القرن الثالث الهجرى « واختلطـــوا بهم واندمجوا معهم واصهروا اليهم فتدخلت الدماء العربية فى دماء اهل البلاد وهى الظاهرة التى تسمى « بالتعريب الجنسى » (٣) التى كان من أبرز

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى ، الوحدة العربية ، مرجع سبق ذكره ص ١٤ .

(٢) د. عبد العزيز الشناوى : دور الازهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى ، من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس ــ ابريل سنة ١٩٦٩ ، مطبعة دار الكتب ١٩٧١ ، ص ٤ .

(٣) د. عبد العزيز الشناوى ــ الوحدة العربية ــ مرجع سبق ذكره ص ص ١٤ــ١٥ ، وعن التعريب الجنسى ، أنظر جورج أنطونيوس يقظة العرب ، تاريخ حـــركة العـــرب القومية ، ترجمة دكتور ناصر الدين الاسد ، دكتور احسان عباس دار العلم للملايين ، بيروت ط ٢ ، ١٩٦٦ ص ص ٧٣ ــ ٧٥ .

آثارها ظهور الامة العربية المتحدة اللغة والعادات والتقاليد فوق تلك الرقعة الفسيحة من المحيط الى الخليج على مدى الاجيال المتعاقبة . وبناء على ما سبق ذكره يمكن القول أن الغزو العثمانى للعالم العربى كان عملية سيطرة عسكرية بحتة « لم يحدث فى أعقابها امتزاج وانصهار بين العثمانيين وبين شعوب الامة العربية ، وبعبارة أخرى لم يقع مايمكن أن نطلق عليه ظاهرة تتريك جنسى للعرب » (١) وترجع هذه الخاصية الى نظرة العثمانيين الى المجتمع الذى كانوا يقسمونه الى طبقتين : الحكام الاتراك ، والرعية المحكومين الذين كانت مهمتهم خدمة الطبقة الاولى لذلك لا عجب أن انعزل العثمانيون عن بقية المجتمع وترفعوا عن الاتصال به (٢) ، ومما هو جدير بالذكر أن هذا الاستعلاء وهذه العزلة عن الجماهير العربية كانا لهما اثر ايجابى فقد ساعدا العرب على الاحتفاظ بمقوماتهم الاساسية من لغة وثقافة وعادات وتقاليد (٣) التى كانت أساسا قامت عليه حركتهم القومية .

ثانيا — الحكم غير المباشر :

تميز الحكم العثمانى للعالم العربى بخاصية أخرى ساعدت على انعزال العثمانيين عن الشعوب العربية المحكومة هى « طبيعة الحكم العثمانى نفسه فقد كان حكما غير مباشر » (٤) لم تتصل فيه الدولة العثمانية برعاياها العرب اتصالا مركزيا مباشرا اذ كانت فكرة الحكم عند العثمانيين بسيطة للغاية حيث اقتصرت وظيفة الدولة فى نظرهم على : كفالة الامن الخارجى والداخلى ، وجمع الضرائب وتوزيعها فى شتى وجوهها ، والفصل فى الخصومات بين الناس ، اما ما عدا ذلك من خدمات عامة كالصحة أو التعليم وغير ذلك من مسئوليات تعتبر فى عصرنا الحاضر من اهم واجبات الحكومة فقد أهملتها الدولة وتركتها للافراد والجماعات (٥) وقد ارتبط بهذا المفهوم لوظيفة الدولة عند العثمانيين حقيقة هامة وهى أن الحكم العثمانى كان قليل التأثير فى حياة المجتمعات العربية حيث احتفظت هذه المجتمعات بنظمها الاجتماعية والاقتصادية

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى — الوحدة العربية — مرجع سبق ذكره ص ١٥ .
(٢) د. محمود صالح منسى — المرجع السابق ، ص ٣١ .
(٣) د. عبد العزيز الشناوى ، الوحدة العربية ص ١٥ .
(٤) د. عبد العزيز الشناوى — دور الازهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ص٥
(٥) المرجع السابق ص ص ١٥ ، ١٦ ، محمد أنيس — مرجع سبق ذكره ص ١٤٠ ، توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ص ١٣ .

وتقاليدها نتيجة ابقاء العثمانيين على تلك الانظمة التى كانت سائدة فى البلاد العربية قبل أن تدخل فى حوزتهم والتى من أهمها نظام الطوائف كما سبق ان ذكرنا .

على أن هذه الحقيقة كان لها أثرها الفعال فى نمو الفكرة القومية العربية لان العثمانيين طوال هذه الفترة لم يعملوا على عثمنة العرب أو التأثير فى ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم .

ثالثا — حكم عسكرى :

كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية وقيل تأكيدا لهذا المعنى ان الجيش العثمانى عبارة عن عملة ذات وجهين أحدهما الحرب والثانى الحكم فكان رجال الجيش يتقلدون المناصب المدنية (١) وكانت الامور الادارية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالامور الحربية ، ذلك أن الدولة كانت تمنح رجال الجيش فى بعض الولايات العربية كالعراق أرضا لزراعتها والاستقرار فيها تسمى : « تيمار » أو « زعامت » أو « خاص » وهؤلاء كانوا يقومون بدورهم بتوزيع هذه الاراضى على أتباعهم وذلك فى نظير قيام أصحاب هذه التيمارات أو الزعامات بتقديم الخدمات الحربية من خيالة وفرسان محاربين وتجهيزهم بكل ما يحتاجون اليه من أسلحة وخيول عند حروب السلطان (٢) .

وقد رحب سلاطين الدولة العثمانية بهذا النظام لانه كان يضمن لهم زراعة الاراضى من ناحية والحصول على القوات اللازمة فى أثناء الحروب دون تحمل الدولة لاعباء تجهيز هذه القوات أو دفع مرتبات لها من ناحية أخرى (٣) . هذا بالنسبة للمناطق الخاضعة للنظام الاقطاعى العسكرى كالعراق ، أما بالنسبة للمناطق التى لم تعرف هذا النظام كولاية مصر فقد اتبع فيها نظام الحاميات (الاوجاقات) التى كانت تتكون من عسكريين محترفين تدفع لهم الدولة مرتباتهم من غلة الاراضى التى كانت محبوسة على أفراد تلك الحاميات وهذا مما يؤكد « أن النظام

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى — أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، ص ٥٢٩ .

(٢) المرجع السابق ص ص ٥٢٢ — ٥٢٣ ، ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ص ص ٢٩ — ٣٢ ، د. محمد أنيس — مرجع سبق ذكره ص ١٤١ .

(٣) د. محمد أنيس ، د. السيد رجب حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ص ٤٦ — ٤٧ .

الزراعى كان هو الآخر الى جانب النظام الادارى مرتبطا اوثق الارتباط بنظام الحاميات العثمانية داخل بعض الايالات » (١) .

رابعا — الاهتمام بالجانب الدينى :

كانت « الدولة العثمانية — فوق ذلك كله — دولة ثيوقراطية أى دينية » (٢) فقد كانت منذ تأسيسها وحتى وقت سقوطها تكرس كل امكانياتها للزود عن الاسلام ضد اى اعتداء خارجى وقد تمثل ذلك فى حروبها المستمرة ضد الغرب المسيحى طوال ستة قرون تقريبا مستهدفة محاولة فرض حكم اسلامى على مساحة كبيرة من اوربا اولا ثم شن الحروب الدفاعية الوقائية بغية ايقاف الهجوم المعاكس الذى قام به الغرب ثانيا (٣) .

وجدير بالذكر انه كان للهيئة الاسلامية فى العاصمة مركز مرموق اذ كان يطلق على رئيسها المفتى أو مفتى استانبول ثم اطلق عليه فيما بعد لقب شيخ الاسلام الذى كانت تخضع لنفوذه جميع الهيئات الدينية والقضائية ، وقد حرص سلاطين آل عثمان على تدعيم سلطة شيخ الاسلام بهدف استغلالها كلما حزبهم امر او اقدموا على مشروع خطير وذلك باستصدار الفتاوى التى كانت تخدم مآربهم وتضفى على تصرفاتهم صفة الشرعية ، ومن ذلك استناد السلطان سليم فى دخوله الحرب مع الصفويين وقتله جميع الشيعة الموجودين فى البلاد العثمانية على فتوى تعتبر هؤلاء الشيعة مرتدين عن الاسلام (٤) وكذلك استناده فى دخوله الحرب مع المماليك على الرغم من كونهم مسلمين وسنيين كالعثمانيين سواء بسواء على فتوى تجيز محاربتهم لانهم ايدوا الشيعة ابان المعارك التى دارت رحاها بين السلطان سليم والشاه اسماعيل الصفوى (٥) .

وهكذا كانت مبادىء الشريعة الاسلامية هى الاساس الذى تقوم عليه الاحكام فى الدولة العثمانية التى كانت تعمل من جانبها على تقوية العاطفة الدينية المشتعلة فى نفوس رعاياها بهدف الافادة منها فى دفع

---

(١) د. محمد انيس — الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٤٢ .
(٢) د. عبد العزيز الشناوى . دور الازهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ، ص ١١
(٣) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ص ٢٨ .
(٤) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ص ٣٣ .
(٥) د. عبد العزيز الشناوى — دور الازهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ص ص ١١ — ١٢ .

حركات التوسع العسكرى فى اوربا بوجه خاص ، وكان من مظاهر هذا الاتجاه الدينى فى سياسة الدولة تشجيعها ظاهرة التصوف وتقريبها العلماء والاتقياء حتى أن « العالم المتخصص فى الشريعة الاسلامية واصول الدين كان يظفر بتقدير عميق من الحكام والمحكومين على السواء » (١) ، كذلك حرص سلاطين آل عثمان على أن تكون ارادتهم السلطانية وفرماناتهم وقوانينهم الوضعية لا تتعارض بأى شكل من الاشكال مع مبادىء الشريعة الاسلامية بلكان ينبغى أن تنسجممعها (٢).

على هذا النحو كان واضحا اهتمام العثمانيين بالجانب الدينى ، وقد ساعد ذلك كثيرا على استسلام العرب للحكم العثمانى وأخر كثيرا نشوء الفكرة القومية العربية .

خامسا — حكم رجعى :

كذلك تميز الحكم العثمانى بالرجعية ، فقد كانت النظم الحكومية تحرص على الابقاء على الحالة التى عليها البلاد قبل دخولها تحت حكمهم فقد قبلوا التقسيم الذى كان شائعا فى المجتمعات الاسلامية حيث قسمت هذه المجتمعات الى طبقات رجال السيف ورجال العلم والتجار واصحاب الحرف واهل الذمة والعبيد ، كما بقيت مجموعة القوانين العثمانية التى وضعها كل من سليم الاول وسليمان المشرع اساسا يسير على نهجه سلاطين الدولة بعد ذلك . ذلك أن الدولة لم تكن ترحب كثيرا بأىتجديد فى نظم الحكم السائدة الامر الذى نتج عنه اجهاض الافكار الاصلاحية الجديدة التى كان اصحابها وهم من كبار ممثلى الدولة « لا يحوزون رضاء السلطنة بل ربما يكونون موضع ريبتهم وسخطهم » (٣) . وكان ذلك من العوامل الاساسية التى ادت الى ضعف الدولة العثمانية بينما كانتاوربا تسابق الزمن فى الاخذ باساليب النهضة الحديثة ، فكان أن انقضت فى النهاية على ممتلكات الدولة العثمانية تلتهمها الجزء تلو الآخر .

مزايا وعيوب الحكم العثمانى :

تعرضنا لخصائص الحكم العثمانى الذى عاش العرب فى ظلهقرابة اربعة قرون والذى اذا نظرنا اليه من الزاوية العربية نجد انه قد انطوى

---

(١) المرجع السابق ص ١٣ .
(٢) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ص ٣١ ، د. محمد انيس وزميله — مرجع سبق ذكره ص ٤٨ .
(٣) د. محمد أنيس — الدولة العثمانية والشرق العربى — ص ١٤٢ .

على عيوب لا مراء فيها ولكنه ايضا لم يخل تماما من المزايا ، وقد استطاع العرب ان يفيدوا من مزاياه ومن بعض عيوبه ، أما عن المزايا فتتجلى فى النواحى الآتية :

١ ــ انه جعل البحر الاحمر بحرا اسلاميا مغلقا بمعنى تحريم الملاحة فى هذا البحر على السفن المسيحية ، وكان التبرير لهذا الاجراء هو أن البحر الاحمر تطل مياهه على الاماكن المقدسة الاسلامية فيجب الا تدنس تلك المياه بوجود سفن مسيحية ، فكانت تلك السفن تدخل البحر الاحمر حتى ثغر مخا فى اليمن حيث تفرغ شحناتها ثم تعود الى المحيط الهندى من حيث اتت ثم يعاد شحن تلك البضائع على سفن اسلامية بحارتها مسلمون وتبحر فى البحر الاحمر الى جدة أو ينبع أو السويس .

ويرجع السبب فى هذا التشريع الوقائى الى ان البرتغاليين بعد ان وصلوا الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ م بدأوا يمارسون سياسة صليبية عنيفة فهاجموا منطقة الخليج والسواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية وتعاونوا مع الحبشة فى هذه المشروعات الصليبية التى كان من اخطرها محاولة البرتغاليين ارسال حملة بحرية الى جدة للاستيلاء على هذا الميناء والزحف منه برا للاستيلاء على الاماكن المقدسة الاسلامية (١) وخاصة المدينة المنورة لنبش قبر الرسول (ص) ، ولكن هذه الحملة فشلت بسبب الريح العاتية التى سخرها الله عليهم قبل وصولهم الى جدة . ثم حاول البرتغاليون مرة أخرى الهجوم على ميناء السويس فرات الدولة العثمانية اغلاق هذا البحر كلية فى وجه الملاحة المسيحية دفاعا عن ممتلكاتها وقد ساعدها على تنفيذ ذلك وقوع اليمن تحت الحكم العثمانى . وقد ظل هذا التشريع العثمانى نافذ المفعول حتى منتصف القرن السابع عشر حين طرد العثمانيون من اليمن ، وعندئذ فتح حكامها الجدد ثغر مخا للسفن المسيحية ثم فتح ثغر جدة خلال القرن الثامن عشر لهذه السفن على عهد على بك الكبير الذى انفرد بحكم مصر ، ولكن المنطقة الواقعة بين جدة والسويس ظلت محرمة على تلك السفن (٢) .

٢ ــ انها ــ اى الدولة العثمانية ــ حفظت لشمال افريقيا عروبته واسلامه ، ذلك أن الحكم المسيحى الصليبى الذى سيطر على الاندلس

---

(١) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ ص ص ١٣ ــ ١٩ ، د. محمد بديع شريف وزميلاه ــ مرجع سبق ذكره ص ١٩٢

(٢) د. عبد العزيز الشناوى ــ الوحدة العربية ــ مرجع سبق ذكره ص ١٧ .

عقب سقوط الحكم الاسلامى فى هذه البلاد (١) سرعان ما انتهج سياسة صليبية مسرفة فى عدائها للمسلمين ، اذ خيروا المسلمين الموجودين فى الاندلس بين التنصير أو شق البطون الذى كان أبسط عقوبة الامر الذى دفع المسلمين الى الهرب بدينهم قاصدين شمال افريقيا كأقرب دار اسلام لهم ، ولكن اساطيل الاسبان كانت لهم بالمرصاد تتعرض لهم فى البحر المتوسط فتستولى على ما معهم وتلقى بهم فى البحر ، وامعانا فى هذه المطاردة البحرية انشأ الاسبان قواعد بحرية أو محطات عسكرية على طول الساحل الشمالى لافريقيا حتى بنى غازى لتموين سفنهم ، عندئذ أسرع السلطان سليمان المشرع بارسال الاسطول العثمانى الى الحوض الغربى من البحر المتوسط لمنع السفن المسيحية من التعرض للمسلمين، وفى ذات الوقت عملت القوات العثمانية على تطهير ساحل افريقيا الشمالى من الجيوب الصليبية التى لولا هذه الوقفة المضرية لنمت هذه القواعد الصليبية نموا سريعا وتوغلت فى داخل افريقيا ، ولهذا فان الفضل فى ذلك يرجع الى الدولة العثمانية لانها حفظت لشمال افريقيا عروبته واسلامه (٢) .

٣ — نعم العالم العربى فى ظل الحكم العثمانى بالهدوء والاستقرار والامن فى وقت كان فى أشد الحاجة اليه بعد حالة الاعياء والانهاك التى اصابته نتيجة تعرضه للحملات الصليبية وغزوات المغول (٣) .

٤ — حقق الحكم العثمانى للعالم العربى وحدة سياسية متجانسة متكاملة وكانت وحدة عملية وعلى الطبيعة دون الحاجة الى اعلان أو دستور ينظمها ، فلم يكن هناك فرق بين مصرى وشامى وعراقى وليبى وتونسى وجزائرى الجميع رعايا الدولة العثمانية والجميع يسمح لهم بالسفر والانتقال من اقليم عثمانى الى آخر دون جواز سفر أو تأشيرة دخول وخروج ، أو تحديد اقامة اذ لم تكن هناك حدود سياسية فاصلة بين اقليم وآخر ولا حواجز جمركية فى ظل هذا الحكم ، فالجميع رعايا السلطان (٤) .

٥ — حفظ الحكم العثمانى العالم العربى من الزحف الاستعمارى الاوربى ما بقيت الدولة العثمانية قوية (٥) ، فقد ظل العالم العربى بمنأى

(١) كانت غرناطة آخر معقل اسلامى فى الاندلس وقد سقطت سنة ١٤٩٢ .

(٢) د. عبد العزيز الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، ص ص ٥٢٥ ، ٧٠٤

(٣) د. عبد العزيز الشناوى — الوحدة العربية ص ١٤ .

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٥) د. زين نور الدين — مرجع سبق ذكره ص ٢٢ .

عن الاستعمار الاوربى حتى اواخر القرن الثامن عشر (١) حين تعرضت مصر للغزو الفرنسى سنة ١٧٩٨ م ، ثم الانجليزى سنة ١٨٠٧ م وقد فشلت هاتان المحاولتان ، وباستثناء الجزائر التى وقعت فى قبضة الفرنسيين سنة ١٨٣٠ فقد استفادت البلاد العربية من السياسة التى اتبعتها بعض الدول الاوربية الكبرى حتى عام ١٨٧٨ ، هذه السياسة التى كانت تستهدف المحافظة على الدولة العثمانية والابقاء على ممتلكاتها (٢) ثم سقطت تونس فى يد فرنسا سنة ١٨٨١ ومصر فى قبضة انجلترا سنة ١٨٨٢ ومراكش تحت الحكم الاسبانى الفرنسى سنة ١٩١٢ ، وليبيا فى يد ايطاليا سنة ١٩١١ ، وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى سنة ١٩٢٠ ، وشرق الاردن والعراق تحت الانتداب البريطانى، وقبل ذلك وفى سنة ١٩١٧ صدر وعد بلفور للصهيونية بسلب فلسطين من أهلها العرب .

٦ — حافظت الدولة العثمانية على سيادة المذهب السنى فى العالم العربى امام المحاولات المستميتة التى بذلها اهل فارس لنشر المذهب الشيعى المتحرر (قزل باش) اى الرأس الاحمر (٣) .

هذه هى محاسن الحكم العثمانى فى العالم العربى الذى استطاع ان يجنى ثمارها ويفيد منها طوال قرون اربعة حتى كان الربع الاخير من القرن التاسع عشر حينما ضعفت الدولة العثمانية فذرت العناصر غير الاسلامية الخاضعة للدولة العثمانية قرنها لتدرأ عن نفسها خطر حركة الجامعة الاسلامية فتنادى المسيحيون الذين كانوا يعيشون على هامش الحياة بالقومية العربية كبديل لحركة الجامعة الاسلامية كما سنرى فى فصل قادم اثناء حديثنا عن الحركة القومية العربية فى القرن التاسع عشر.

اما عن مساوىء الحكم العثمانى فيمكن استخلاصها من الخصائص التى ذكرناها ، والواقع أن معظم عيوب الحكم العثمانى ان لم تكن جميعها قد نشأت نتيجة استعلاء العثمانيين وعزلتهم عن المجتمعات التى خضعت لهم الامر الذى أدى الى عدم انصهارهم ونشر لغتهم فى البلاد العربية على الرغم من حكمهم لها مدة ناهزت أربعة قرون ، مع أن الاتراك العثمانيين كانت فى أيديهم ورقة رابحة لم يحسنوا استخدامها وهى انهم مسلمون سنيون كالشعوب العربية ولكن حال دون ذلك روح الاستعلاء

---

(١) د. محمد انيس — مرجع سبق ذكره ص ١٣٩ .
(٢) د. عبد العزيز الشناوى — الوحدة العربية ص ١٤ .
(٣) د. عبد العزيز الشناوى — أوربا فى مطلع العصور الحديثة ج ١ ص ٥٧٧ .

التى سـيطرت عليهم وجعلتهم ينظرون الى العـرب نظرة فيها ازدراء واحتقار فكانوا يطلقون عليهم أوصافا شتى مثل الفلاحين وأولاد العرب ويفسر المؤرخ الانجليزى أرنولد توينبى أسلوب العثمانيـين فى حـكم الشعوب التى دانت لحكمهم تفسيرا يستمده من واقع البيئـة الاولى للعثمانيين وهى اراضى الاستبس فى اواسط آسيا فيقرر أن السلطان العثمانى كان يحكم البلاد الخاضعة له كما كان العثمـانى يمارس رعى الماشية فى منطقة البرارى « وهى ممارسة تتكون من ثلاثة عنـاصر : الراعى والماشية وكلب الحراسة ... الراعى هو السلطان ، والماشية هى الشعوب التى خضعت لحكمه وكلب الحراسة هو الجيش العثمانى أو الانكشارية » (١) .

وعلى الرغم من وضوح هذا العيب — الاستعلاء — وما نتج عنه من آثار سيئة فقد أفادت الشعوب العـربية منه بعض الشىء ، حيث احتفظت بعروبتها وبمقوماتها الاساسية — اللغـة والدين والثقـافة والعادات والتقاليد — التى كانت الاسـاس الركين الذى قامت عليه حركتهم القومية فى التاريخ الحديث والمعاصر .

وهناك عيوب أخرى يهتم الباحثون بابرازها وتعدادها مثل : عزلة العالم العربى تحت حكمهم والرجعية والتخلف والجمود وما الى ذلك حتى أصبحت تلك النعوت « كليشيهات » يمهر بها الباحث الدولة العثمانية عند حديثه عنها ، اما لغرض فى نفسه وهو النيل من الدولة العثمـانية الاسلامية ، واما ترديدا لاقوال الآخرين بدون تفحص ودراسة وعـلى ذلك فاننا سوف نأخذ هذه العيوب بحذر شديد ونناقشها بما لها وماعليها حتى نضع الامور فى نصابها .

فالعزلة التى فرضت على العالم العربى ابان الحكم العثمانى ترجع فى حقيقة الامر الى عاملين أحدهما خارجى ، والآخر داخلى .

أما العامل الخارجى فكان يتمثل فى « خوف العثمانيين من خطـر الاستعمار الغربى الماثل على حدود مناطق الشرق الادنى الشرقية منـذ بداية القرن السادس عشر » (٢) وذلك عقب اكتشـاف طريق رأس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين سنة ١٤٩٨ ومحاولتهم الهجوم على سواحل البلاد العربية الشرقية والجنوبية — كما سبق أن ذكرنا —

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى — الوحدة العربية ص ١٦ .
(٢) د. محمد أنيس — مرجع سبق ذكره ص ١٣٩ .

فعندما فشل العثمانيون فى طرد البرتغاليين من مناطق الخليج العربى ، وفى القضاء على نشاطهم فى المحيط الهندى أحاطوا العالم العـــربى « بسياج منيع عن العالم الخارجى اعتقادا منهم أن هذا السياج وسيلة ناجعة من وسائل الدفاع عن الشرق العربى » (١) .

وأما العامل الخارجى : فكان يتمثل فى أن الشـــعوب العربية لم تشعر فى القرون الثلاثة الاولى للحكم العثمانى (١٦ ، ١٧ ، ١٨) بالحاجة الى الاتصال بأوربا خاصة وأن مستواها الفكرى والمادى لم يكن يسمح لها بذلك الاتصال ، فمن الناحية الفكرية كان هناك « شعور من الشك والريبة فى البلاد الاسلامية ازاء الفرنجة ونحو كل ما هــو اوربى » (٢) لانها لم تكن تعرف عن أوربا الا وجهها القبيح المتمثل فى الحروب الصليبية وكانت رواسب هذه الحروب لا تزال عالقة فى الاذهان فلم يكن معقـــولا ان يتجه العرب الى أوربا فى ذلك الوقت ينشئون معها صلات ، وأما من الناحية المادية فلم تكن السبل ميسرة للاتصال السهل السريع الآمن بين دول الشرق العربى والمدن الاوربية اذ كانت السفن التى تجوب البحر المتوسط مصنوعة من الخشب وتسير بالشراع ، ولم يكن الحديد والبخار قد استخدما بعد فى صناعة البواخر وتسييرها .

اما عن التخلف والجمود والفقر الذى أصاب العالم العربى ابان الحكم العثمانى فلم تكن الدولة العثمانية مسئولة عنه مسئولية كاملة ، ذلك أن الشرق العربى بالاضافة الى انه كان يعانى من الانحلال والضعف والوهن فى أواخر العصر المملوكى (٣) نتيجة عوامل شتى منها هرم الدولة المملوكية ، فقد واكب الغزو العثمانى للبلاد العربية حادث هام وهو أن الشرق العربى فقد مركزه كطريق للتجارة الشرقية بعد اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح البحرى الى الهند وتحول الشريان التجارى اليه (٤) مما كان له أثره فى الركود الاقتصادى وفى التخلف الاجتماعى بحيث كانت « هذه المجتمعات على شفا الانهيار فى الشرق الادنى قبل دخول العثمانيين مباشرة الا أن دخول العثمانيين أخر هـــذا الانهيار ... حتى النصف الثانى من القرن الثامن عشر » (٥) وان كنا لا ننكر أثر الحـــكم العثمانى

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى ــ الوحدة العربية ص ١٧ .
وانظر أيضا ــ توفيق على برو ــ مرجع سبق ذكره ص ص ١٢ ــ ١٣ .
(٢) د. محمد أنيس وزميله ــ مرجع سبق ذكره ص ١٣٩ .
(٣) د. زين نور الدين زين ــ مرجع سبق ذكره ص ٢٢ .
(٤) توفيق على برو ــ مرجع سبق ذكره ص ١٢ .
(٥) د. محمد أنيس ــ مرجع سبق ذكره ص ١٤٦ .

ومساهمته فيما أصاب العالم العربى من تخلف وجمود وفقر ، وان كانت بعض البلاد العربية ــ كسوريا ــ قد افادت فى القرون الاولى من الاحتلال العثمانى « نتيجة للعلاقات التجارية التى اقامتها مع بلدان أخرى » (١).

أما عن **مسئولية العرب** ــ وهى فى واقعها مسئولية ناجمة عن نظم الحكم العثمانى وممتزجة بالمسئولية العثمانية ــ عما ألم بهم من تخلف، وجمود وفقر فيرجع ذلك الى أن العرب منذ الغزو العثمانى وحتى منتصف القرن التاسع عشر وبسبب نظم الحكم العثمانى قد عاشوا بسبب الاقطاع والانقسامات الداخلية والانظمة القديمة والتنافس بين العائلات التى تتولى الحكم ، والنزعة الفردية المطلقة فى الحكم ــ فى فقر وحرمان وتخلف (٢) .

(١) د. زين نور الدين زين ــ مرجع سبق ذكره ص ٢٧ .
(٢) المرجع السابق ص ص ٢٧ ــ ٢٨ ، د. محمد أنيس ــ مرجع سبق ذكره ص١٣٩

الفصـــل الخـــامس

ضعف الدولة العثمانية وتدهورها

وصلت الدولة العثمانية الى أوج اتساعها وقمة مجدها فى عهـد السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ — ١٥٦٦ م) حيث امتدت حدود تلك الدولة من الدانوب الى الخليج العربى ، ومن أراضى الاستبس فى أوكرانيا الى الشلال فى جنوب مصر ، ولكنها اخذت بعد ذلك وفى أواخـر القرن السادس عشر تسير نحو التدهور ماديا ومعنويا حتى القرن التاسـع عشر (١) ونستطيع أن نرجع ذلك الى عوامل داخلية وأخرى خارجية .

اما العوامل الداخلية — وهى الاساس فى هذا التدهور — فتتمثل فيمـا يأتى :

أولا — أن السلاطين الذين جاءوا بعد سـليمان المشرع كانوا سلسلة من الحكام الضعاف (٢) فبجانب ضعف شخصيتهم وحداثة سن بعضهم ، وافتقارهم الى الدراية باحتياجات الامبراطورية الجديدة (٢) ، كانوا منهمكين فى لذائذهم وأسرافهم وتحجبهم فى القصـور ، وعـدم اضطلاعهم شخصيا بقيادة جيوشهم ، وتحملهم اعباء الحرب كمـا كان يفعـل اسـلافهم العظام ، هذا فضلا عن زواجهم بالاجنبيات الاوربيات اللائى كن يتلاعبن بمصالح الدولة وسياستها ، وما نتج عنه من فسـاد البطانة والحاشـية وتلاعبها بمقدرات الدولة ، اضف الى ذلك كثرة المنافسات بين الاخوة التى كانت تؤدى الى الفتن وسفك الدماء ، وجهل معظم الوزراء وفساد اخلاقهم ، وشـدة مطامعهم التى ادت الى تفشى الرشوة والفساد بين رجال الدولة وموظفيها .

ثانيا — اختلال نظام الانكشارية ، فقد تغير وضع هذا الجيش تغيرا أساسيا فى عام ١٥٦٦ ، حيث سمح لافراد الانكشارية بالزواج ، ففقـد هذا الجيش بالتدريج كل ما كان له من مزايا اذ اصبحوا يكونون طبقـة وراثية متميزة عن غيرها من ناحية كما بدأوا يفقدون روحهم العسـكرية

---

(١) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ص ٤٧ .

(٢) د. محمد أنيس ، د. السيد رجب حراز — المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) البرت حورانى — الفكر العربى فى عصر النهضة — ترجمة كريم عزقول ، دار النهار ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٥١ .

(٤) عمر الاسكندرى وسليم حسن — تاريخ مصر من الفتح العثمانى الى قبيل الوقت الحاضر — ط ٦ — مطبعة المعارف ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص ص ٣٩ — ٤٠ .

من ناحية أخرى(١) ، وتحولوا آخر الامر الى آلة فساد وفوضى ، فتضاءل ارتباطهم بثكناتهم ولم تعد حرفتهم الجندية الصرفة كما كان أمرهم ابان قوة الدولة العثمانية ، وانما اصبحت الجندية بالنسبة لهم مهنة ارتزاق. فلم يعد يذهب كثير منهم الى ثكناتهم الا لاستلام مرتباتهم ، وكانوا لا يجتمعون الا للمطالبة بزيادة (العلوفات) المرتبات والعطايا ، أو لطلب عزل وزير او تنصيب آخر ، أو شنق جماعة من الوزراء مندفعين فى كل ذلك بتحريض ارباب المنافع والاغراض ، وقد استبدلوا بمهمتهم الاساسية — وهى القتال فى المعارك ، التى اصبحوا يفرون منها — قيامهم بالتعدى على الاموال والارواح والاعراض (٢) ، ولم يكتفوا بذلك بل وقفوا حجر عثرة أمام كل اصلاح ، حتى ان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩—١٨٠٧م) دفع حياته ثمنا عندما أقدم على ادخال عدد من الاصلاحات فى الدولة العثمانية ، اذ ثارت الانكشارية عليه وخلعته ثم اغتالته بغية اجتثاث آثار الاصلاح من جذورها ، وقد ظلت الانكشارية عقبة كأداء فى سبيل الاصلاح حتى نجح السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) فى القضاء عليهم نهائيا سنة ١٨٢٦ (٣) ، وفى الوقت الذى كانت فيه اداة الحكم العثمانى تصاب بتدهور شديد كانت الهزائم تتوالى على الدولة العثمانية فى المجال الخارجى على يد الدول الغربية ، اذ كان على السلطان محمود الثانى أن يعترف بالحكم الذاتى للصرب ، وتبع ذلك ثورة على باشا فى البانيا (١٨٢٠ — ١٨٢٥) ، وثورة اليونان فى المورة التى عجز السلطان العثمانى عن اخمادها فاستعان بوالى مصر محمد على لسحق هذه الثورة .

ويمكننا القول أن اختلال نظام الجيش الانكشارى كان عاملا اساسيا وحاسما فى تدهور الدولة العثمانية ، اذ أن هذا الجيش ، كان هو العمود الفقرى للنظام العثمانى العسكرى الذى يعتبر من أهم خصائص الدولة العثمانية ، وقد نجم عن ذلك الاختلال اعتداء رجال الجيش على السلاطين والوزراء ، والتدخل فى السياسة كسلاح فى يد كثيرين من رجال الدولة يستخدمونهم فى مآربهم ومكائدهم الشخصية ، فكثرت ثوراتهم وأصبح السلاطين وكبار رجال الدولة العوبة فى أيديهم ، يخلعون وينصبون ما يشاءون ويقتلون ما يشاءون ، حتى لقد بلغ عدد المخلوعين والمقتولين من السلاطين بأيدى رجال الجيش المذكور تسعة ،

---

(١) د. محمد انيس — مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٥ .

(٢) د. عبد العزيز الشناوى — أوربا فى مطلع العصور الحديثة ج١ ص ص٧٥٦—٧٥٧

(٣) ابراهيم بك حليم — المصدر السابق ص ص ١٩٢ ، ١٩٩ ، وانظر ساطع الحصرى — المرجع السابق ص ص ٤٧ — ٤٨ ، ٧٣ — ٧٤ .

عدا عشرات الوزراء ورجال الدولة الذين كانت تسفك دماؤهم فى أثناء حركاتهم التمردية (١) .

ثالثا — من الطبيعى ان ينتج عن العاملين السابقين — ضعف السلاطين واختلال نظام الانكشارية — سريان الفساد فى أجهزة الادارة المركزية والمحلية بوجه عام ، ذلك أن نظام الادارة العثمانى الذى كان يمنح رؤساء الايالات والالوية سلطات واسعة فيجعلهم قوادا لجيوش يجهزونها بأنفسهم (٢) والذى كان يعطى الامراء الاقطاعيين والزعماء المحليين « استقلالا داخليا يكاد أن يكون استقلالا ناجزا » (٣) لم يكن يولد محاذير بارزة طالما كانت الحكومة المركزية قوية والجيش الانكشارى — الذى يعتمد عليه السلاطين فى قمع اى تردد — منتظما ومطيعا ، ولكن ضعف الحكومة المركزية واختلال نظام الانكشارية جعلا هذا النظام يؤدى الى نتائج سيئة : فقد افسح المجال لانطلاق الولاة والامراء الاقطاعيين والزعماء المحليين فى تحقيق أطماعهم الشخصية بواسطة القوة العسكرية التى كانت تحت أيديهم ، غير عابئين بأوامر العاصمة ، كما اتصل بعضهم بدول اجنبية مثل على بك الكبير فى مصر وضاهر العمر فى فلسطين اللذين اتصلا بالروسيا ، فعم البلاد من جراء ذلك الفوضى والفساد (٤) ، وانتشرت الاضطرابات الداخلية والمنازعات الثارية « الناجمة عن تنافس الامراء وتحاسدهم ، والتى كانت تؤدى الى الثورات والحروب الدامية » (٥) ، كما افسح المجال لان يصبح نظام الالتزام من حق من يعد بتقديم أكبر حصة من الاموال الى خزانة الدولة ، حيث أصبحت أمور جباية الاموال الاميرية تفوض الى اشخاص عن طريق المزايدة ، واخذ هؤلاء الملتزمون يمارسون سلطة الحاكم الاقطاعى الذى يلجأ الى شتى وسائل الغدر والتسلط ، لكى يحصلوا على اكبر قدر من الجباية يضمن لهم ثروة كبيرة بعد دفع ما التزموه من أموال (٦) .

وقد ادى كل ذلك الى اضطراب أمور الدولة واختلالها مما زاد فى ضعفها وارتباكها وفيما كان يقاسيه رعاياها من البلاء والعناء والارهاق،

---

(١) محمد عزه دروزه — المرجع السابق ص ١٦٣ .
(٢) ساطع الحصرى — المرجع السابق ص ٤٩ .
(٣) د. زين نور الدين زين — المرجع السابق ص ٣٤ .
(٤) د. محمد بديع شريف وزميلاه — المرجع السابق ص ص ٢٣٥ — ٢٤٦ .
وانظر ايضا ساطع الحصرى — المرجع السابق ص ص ٤٩ ، ٥١ .
(٥) د. زين نور الدين زين — المرجع السابق ص ٣٥ .
(٦) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ص ١٦٢ .

هـذا مع العلم بأن التشريع الضرائبى العثمانى ، لم يكن مرهقا لرعايا الدولة ، اذا قورنت الضرائب التى دفعها الفلاحين والتجار فى مصر والشام أيام سلطنة المماليك ، وفى العراق أيام الحكم الايرانى بما دفعوه أيام الحكم العثمانى (١) .

أما العوامل الخارجية فتتمثل فيما يلى : —

أولا — كان عجز البحرية العثمانية عن مواجهة الخطر البرتغالى فى البحار الشرقية — منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر — نتيجة ضعف تلك البحرية الذى كان نتيجة الضعف العام السياسى والادارى والعسكرى فى الدولة العثمانية ، ادى هذا العجز الى قيام البحرية البرتغالية بفرض حصار بحرى على التجارة العربية فى البحار الشرقية ، أخرجها من تيار التجارة العالمية ، فأصبح الشرق العربى فى عزلة اقتصادية بجانب عزلته السياسية والفكرية ، التى استمرت حتى القرن التاسع عشر ، هذا بالاضافة الى انكماش سلطة العثمانيين عن الجزيرة العربية حيث لم يبق لهم فيها الا الحجاز الذى كان الحكم المباشر فيه لاشراف مكة ، كما نتج عن ضعف القوات البحرية العثمانية فى البحر المتوسط انفصال ولايات المغرب العربى على أيدى عصبيات عسكرية بحرية فى كل منها ، كالدايات فى الجزائر ، والبايات من الاسرة الحسينية فى تونس ، والاسرة القرمانية فى طرابلس ، وهكذا تدهورت الدولة العثمانية سياسيا واداريا وعسكريا واقتصاديا (٢) .

ثانيا — انه فى الوقت الذى اخذت فيه اجهزة الدولة العثمانية فى الضعف والتدهور كان الغرب الاوربى ينهض من سباته ، حيث اخترعت اسلحة حربية حديثة ، وتطورت وتقدمت نظم الحرب وأساليبها بسرعة كبيرة ، وتفنن رجال الجيش فى أساليب التحصين والهجوم والدفاع تفننا كبيرا ، ومن ثم لقيت الدولة العثمانية فى أوربا هزائم كبيرة ، وأخذت حدودها تتقلص وتتراجع فى الجهات المتاخمة للدول الاوربية ، وذلك كمقاطعة القرم الاسلامية التى تخلت عنها الدولة العثمانية لروسيا فى نهاية حرب (١٨٦٨ — ١٨٧٤ م) ، فكانت أول مقاطعة اسلامية تنسلخ عن الامبراطورية العثمانية (٣) ، وذلك نتيجة جمود هذه الدولة وعزلتها وعدم مسايرتها للنهضة الاوربية الحديثة فى العلوم والفنون والتنظيمات

---

(١) د. محمد انيس وزميله — مرجع سبق ذكره ص ٤٨ .

(٢) محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٩٤ — ١٩٧ .

(٣) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ص ٥٧ .

العسكرية والادارية (١) ، والسر فى ذلك انه منذ القرن السادس عشر بدأ التوازن الذى كان بين الدولة العثمانية والدول الاوربية ، والذىكان فى صالح الدولة العثمانية باعتبارها نظامًا اقطاعيا أكثر مرونة منالاقطاع الغربى ، بدأ هذا التوازن يتحول لصالح الدول الغربية نتيجة تحولها من دول اقطاعية الى دول رأسمالية تجارية ، ثم رأسمالية صناعية ، عقب الانقلاب الصناعى بحيث أصبح ميزان القوى فى صالح الدول الاوربية بشكل نهائى (٢) .

ثالثا — الدسائس التى كانت تدسها الدول الاوربية بين العناصر المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية تحت ستار حمايتها ، مستفيدة من معاهدات الامتيازات الاجنبية ، حيث ادعت فرنسا حماية الاقليات الكاثوليكية ، وادعت روسيا حماية الارثوذكس وأصبغت عليها الصبغة الرسمية فى معاهدة كوتشك كاينرجى سنة ١٧٧٤ م ، واتخذت كل منهما هذه الحماية ذريعة للتدخل فى شئون الولايات (٣) .

وهكذا تكاتفت العوامل الداخلية والخارجية على الدولة العثمانية حتى انهكتها ، فكان عليها لكى تبقى ، أو تحافظ على ما بقى لها ، أو حتى تؤخر توقيت سقوطها المحتوم أن تتجه الى الاصلاح والتجديد علىأساس اقتباس النظم الغربية أو استلهامها بما يتفق والشريعة الإسلامية .

الامتيازات الاجنبية :

ومن النظم التى تسللت الى الدولة العثمانية وكانت عاملا هاما من عوامل ضعفها نظام الامتيازات الاجنبية الذى قام بدور بارز فى تاريخ الدولة العثمانية اذ عرقلت هذه الامتيازات كثيرا جهود الاصلاح والتقدم فى عهد التنظيمات ذلك أن الدول الاوربية الكبرى كانت لا تنفك عن التدخل فى شئون الدولة العثمانية بطرق وأساليب مختلفة وذلك استنادا الى نظام الامتيازات الاجنبية ، كما عانت البلاد العربية الخاضعة للحكم العثمانى الكثير من آثار هذه الامتيازات ، كايقاظ النعرة الطائفية والانقسام والفرقة بل والفتن والمذابح كما حدث فى بلاد الشام ، وذلك لان هذه الامتيازات كانت قد اخذت شكل النظم التعهدية ولم تعد الدولة

(١) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ، ص ٤٨ ، محمد عزه دروزه — المرجع السابق ، ص ١٦١ .
(٢) د. محمد انيس وزميله — مرجع سبق ذكره ، ص ٧٣ .
(٣) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٧ — ٥٨ .

العثمانية تملك حق الغائها أو تعديلها من تلقاء نفسها ولا سيما بعد أن وصلت الى ما وصلت اليه من الضعف نتج عنه ان اعتبرت الدول الاوربية تلك الامتيازات بمثابة حقوق مكتسبة لها ولرعاياها وحتى لكل من تشملهم بحمايتها من رعايا الدولة العثمانية نفسها (١) .

ويرجع تاريخ هذه الامتيازات الى عهد السلطان العثمانى محمد الفاتح الذى اقر — فور فتح القسطنطينية ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ ، وبناء على العرف الذى اخذ به أسلافه من السلاطين — اقر مبدأ الاستقلال الذاتى للطوائف الدينية من غير المسلمين ووضع أحكاما خاصة للاجانب المقيمين فى امبراطوريته مما ساعدهم على تدبير امورهم بطريقتهم الخاصة ، كما منح الجاليات الاجنبية الكبيرة التى كانت تشتغل بالتجارة فى الامبراطورية العثمانية امتيازات خاصة ، تشجيعا لها لانعاش الحالة الاقتصادية فى الامبراطورية ، ومخطوطة أجرتون رقم ٢٨٧١ الموجودة فى المتحف البريطانى تذكر الامتيازات الخاصة التى منحها السلطان محمد الفاتح للتجار الجنويين المقيمين فى غلاطة (وهى ضاحية من ضواحى القسطنطينية) بعد سقوط القسطنطينية وتاريخ اصدار هذه الامتيازات هو اليوم الاول من شهر يونيو (حزيران) سنة ١٤٥٣ (٢) .

ثم كان عهد سليمان المشرع الذى امتاز — من زاوية علاقات الدولة العثمانية الدولية — بالتحالف بين الدولة العثمانية وبين فرنسا هذا التحالف الذى كان نتيجة طبيعية للعداء التقليدى بين فرنسا وامبراطورية الهابسبورج — التى كانت فى حالة حرب مع الدولة العثمانية من جهة ، وبين فرنسا وايطاليا واسبانيا التى كانت بدورها تشتبك فى صراع طويل مع الدولة العثمانية حول السيطرة على الحوض الغربى للبحر المتوسط وشمال افريقيا من جهة أخرى (٣) .

وهكذا كانت الظروف الدولية مهيأة لعقد الاتفاق الشهير بين السلطان سليمان المشرع وفرنسوا الاول سنة ١٥٣٥ م وهو اول ملك أوربى يحصل على مثل هذا الامتياز ، فقد حصل الفرنسيون بموجبه على امتيازات تجارية واسعة فى الامبراطورية العثمانية . فصارت سفنهم التجارية تجوب البحر المتوسط بين مرسيليا والموانى العثمانية للاتجار

(١) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ص ص ١٤٢ — ١٤٣ .
(٢) د. زين نور الدين — مرجع سبق ذكره ص ص ٣٢ ، ٣٣ .
(٣) د. محمد أنيس — مرجع سبق ذكره ص ١٦٥ .

معها والاقامة والتجول بكل حرية (١) ، وبجانب هذه المعاهدة التجارية يبدو انه كان هناك معاهدة أخرى عسكرية ، وهى التى نجح السفير الفرنسى السابق الذكر فى عقدها مع السلطان سليمان المشرع سنة ١٥٣٧ م ، لاننا نجد انه فى سنة ١٥٤٣ م قد حدث تعاون — وبصورة عملية — بين فرنسوا الاول والسلطان العثمانى فى المعارك البحرية ضد آل هابسبورج فى البحر المتوسط . وفى سنة ١٥٩٣ م كتب ملك فرنسا هنرى الرابع الى السلطان مراد الثالث يتوسل اليه الا يعطى اذنا صاغية لن يجيئه من قبل ملك لسبانيا الذى يشن حربا عدوانية ضد ملك فرنسا، وفى هذه الرسالة يخاطب هنرى الرابع السلطان بقوله : « الى السلطان خليفة المسلمين مراد خان السلطان المعظم القادر الفاضل الكريم ، الظافر الذى لا يقهر ، صاحب المجد والفضيلة صديقنا العزيز الودود » (٢) .

وبتفحص هذه الرسالة يمكننا أن نضع أيدينا على حقيقتين هامتين هما :

الاولى — أن هذه الامتيازات لم تظهر اثرها السيىء ابان قوة الدولة العثمانية .

الثانية — مخاطبة ملوك اوربا للسلطان العثمانى على انه خليفة المسلمين مما يؤيد الراى القائل بأن الخلافة قد انتقلت الى آل عثمان ابان القرن السادس عشر .

وفى ٢٥ فبراير (شباط) سنة ١٥٩٧ عقدت معاهدة اخرى بين هنرى الرابع امبراطور فرنسا والسلطان محمد الثالث امبراطور المسلمين ، وقد جددت هذه المعاهدة امتيازات سنة ١٥٣٥ ، كما منح ملك فرنسا بمقتضاها امتيازا جديدا يقضى بأن يحظى سفير فرنسا بالاسبقية على جميع السفراء فى الآستانة وعلى الخصوص سفير ملك اسبانيا (٣) .

---

(١) انظر نصوص هذه المعاهدة فى كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريدبك، ص ص ٩١ — ٩٤ .

(٢) د. زين نور الدين زين — المرجع السابق ، ص ص ٣٣ ، ١٨١ هامش ١١ . محمد عزه دروزه — المرجع السابق ، ص ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٣) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ص ١٨١ هامش رقم ١١ .

هذا بالنسبة لفرنسا التى كانت اسبق الدول الاوربية الى توطيد علاقاتها السياسية والتجارية مع الدولة العثمانية ففتحت القنصليات الفرنسية فى أنحاء الدولة العثمانية (١) .

اما انجلترا الخصم العنيد لفرنسا والمنافس الاول لها فقد حصلت رسميا سنة ١٥٨٠ — فى عهد الملكة اليزابيث — على امتيازات خاصة برعاياها وارسلت وليم هاربون أول سفير لها لدى الباب العالى ثم اتبعت ذلك بافتتاح قنصليات لها فى سوريا ومصر منذ سنة ١٥٨٣ (٢) ، كما استطاعت بعد ذلك دول أوربية أخرى مثل الروسيا والنمسا وايطاليا والمانيا الحصول على مثل هذه الامتيازات فى الدولة العثمانية (٣) .

وجدير بالذكر ان هذه الامتيازات التى كانت فى الاصل منحةوتفضلا قد صارت قيدا فى عنق الدولة العثمانية ومخلة بكرامتها وسيادتها فى عهود ضعفها (٤) فقد ظهرت مساوئها التى أصبحت تهدد كيان الدولة فى كل بقعة من اراضيها :

أولا — جعلت الاوربيين الذين يقصدون الدولة العثمانية للعمل والارتزاق مفضلين على أهالى البلاد فى ميدانى القضاء والاقتصاد فقد قضت هذه الامتيازات الممنوحة للجاليات الاجنبية بتشكيل محاكم قنصلية خاصةذاتصلاحية كاملة للنظر فىالخصوماتبين الرعايا الذين ينتمونالى هذه القنصلية او تلك وكان القاضى فى هذه المحاكم القنصلية هو القنصل نفسه ، وكانت الاحكام التى تصدر عن هذه المحاكم ، تنفذ على الارض العثمانية ، وهذا يفسر لنا السر فى طلب القنصل البريطانى « نيفن كر » فى قبرص فى رسالته المؤرخة فى ٦ اغسطس (آب) سنة ١٨٤٤ من حكومته السماح له ببناء سجن صغير بالقرب من مقر القنصلية (٥) . ذلك ان رعايا هذه الدول كانوا لا يحاكمون فى محاكم الدولة ولا تسرى عليهم قوانينها ، وما كان يحق لسلطات الامن والعدل أن تفتش مسكن أحد من هؤلاء الاجانب لاى سبب كان ولا أن تحقق معه او تحاكمه الا بحضور

---

(١) محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ص ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٦ ، د. زين نور الدين — مرجع سبق ذكره ص ٢٣ .
(٣) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ص ١٥٩ .
(٤) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٥) د. زين نور الدين — مرجع سبق ذكره ص ص ٢٣ ، ١٨٢ هامش رقم ١٣ .

ممثل عن قنصلية الدولة التى ينتمى اليها (١) . وكثيرا ما كان يلتجىء المتهم الى دار القنصلية او السفارة ، فيصبح من المستحيل اعتقاله ، بل كثيرا ما كان يفعل نفس الشىء بعض رعايا الدولة العثمانية حينما تطاردهم سلطاتها بسبب جرم ارتكبوه فلا يمكن اعتقالهم ، وقد كان بعض رعايا الدولة وخاصة المسيحيين يسعون للحصول على رعوية احدى الدول الاجنبية ليتسنى لهم الاستفادة من تلك الامتيازات (٢) .

ولم يكتف القناصل بهذه الحقوق التى ضمنتها لهم الامتيازات ، فاغتصبوا بالعرف والعادة بعض المزايا ، ففى ولاية مصر ، وفى عهد خلفاء محمد على الضعاف استطاع القناصل أن ينتزعوا سلطة الفصل فى القضايا والخصومات التى تقع بين رعاياهم من جهة وبين كل من الاهالى أو الحكومة من جهة أخرى (٣) ، وغنى عن البيان أن ذلك كان يعرقل سير العدالة ، ويحول دون احقاق الحق ، أو انزال العقاب ، هذا من ناحية القضاء .

أما من الناحية الاقتصادية ، فبناء على تلك الامتيازات لم يكن يحق للحكومة العثمانية أن تجبى أية ضريبة مباشرة من الاجانب ، فكانت متاجرهم ومصانعهم ومصارفهم تعمل فى البلاد العثمانية بكل حرية وتتصرف فى أرباحها كما تشاء دون أن تدفع أية ضريبة عن تلك الارباح للحكومة ، وحتى الضرائب غير المباشرة كالرسوم الجمركية كانت مقيدة بقيود الامتيازات الاجنبية ، حيث كانت مقررة على أساس ٨٪ من قيمة البضائع المستوردة أيا كان نوعها ، فما كان يحق للدولة أن تزيد نسبة هذه الرسوم ، حتى فى المحاولة التى نجحت فيها الدولة العثمانية سنة ١٩٠٧ فى رفع هذه الرسوم بنسبة ضئيلة جدا (٣٪) كان ذلك مشروطا بمدة سبع سنوات فقط ، وأن تصرف حصيلة هذه الزيادة فى الاصلاحات فى ولايات مقدونيا الثلاث (سلانيك — مناستر — قوصوة) (٤) .

ثانيا — استفادت المؤسسات الاجنبية (الاقتصادية والثقافية والدينية والخيرية) المنتشرة فى البلاد العثمانية من هذه الامتيازات حيث

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى : حادث جريدة البوسفور اجيبسيان — أزمة سياسية بين مصر وفرنسا فى اوائل عهد الاحتلال البريطانى — المجلد التاسع — مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٢ ص ص ١٥٠ — ١٥٣ .

(٢) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ص ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى — عصر اسماعيل ج ٢ ط ٢ النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ ص ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(٤) ساطع الحصرى — المرجع السابق ، ص ص ١٤٣ — ١٤٤ .

لقيت التشجيع من الدول التى تنتسب اليها لانها ـــ اى تلك المؤسسات ـــ كانت تسهم اسهاما كبيرا فى تقوية وتوسيع نفوذ هذه الدول ماديا ومعنويا الامر الذى يساعدها على تحقيق اطماعها فقد كان النفوذ الاقتصادى والثقاف الذى اكتسبته بعض هذه الدول بواسطة تلك المؤسسات كثيرا ما يسبق النفوذ السياسى الذى كان غالبا ما يتوج بالاحتلال العسكرى(١).

ثالثا ـــ اتاحت هذه الامتيازات للدول الاوربية الفرصة للتدخل فى شئون الدولة العثمانية الداخلية ، وكان هذا التدخل يجرى على الاكثر من قبل دولة واحدة منفردة لتسوية قضية تخصها وحدها،او تتعلق برعاياها وذلك كما حدث فى مصر حين تدخلت فرنسا لنصرة احد رعاياها أثناء حادث جريدة البوسفور اجيبسيان سنة ١٨٨٥ (٢) ، وأحيانا كان يأخذ هذا التدخل شكلا جماعيا تشترك فيه مجموعة من الدول من اجل قضية اتفقوا عليها وغالبا ما كان يصاحب هذا التدخل التهديد والوعيد الذى كان يدعم فى بعض الاحوال بحركات عسكرية واعمال احتلالية ، وذلك كما حدث فى مصر واليونان ولبنان (٣) .

هذه هى الامتيازات الاجنبية التى منحتها الدولة العثمانية ـــ ابان قوتها وعظمتها ـــ للدول الاوربية التى اعتبرت هذه الامتيازات حقوقا مكتسبة عند ضعف الدولة العثمانية وتدهورها فكانت عاملا من العوامل التى ساعدت على انهيار هذه الامبراطورية الاسلامية وتفتتها وسقوطها فى النهاية .

---

(١) المرجع السابق ص ص ١٤٥ ـــ ١٤٧ .
(٢) أنظر د. عبد العزيز الشناوى ـــ حادث جريدة البوسفور اجيبسيان .
(٣) ساطع الحصرى ـــ مرجع سبق ذكره ص ١٤٧ .

الفصـــل الســـادس

الانتفاضات العربية على الحكم العثمانى

ظل العرب يخلصون للاتراك العثمانيين ، ويعتبرونهم حماة الدين ويستظلون بظل الخلافة ، واشترك العنصران فى الحرب والسلم ضد الاعداء ، وتولى العرب بعض المناصب الكبرى فى الدولة ، ولا غرو فقد كانوا يؤلفون الجزء الاسلامى الاكبر فى مجموعة الدولة وهم راضـــون مطمئنون ، غير أن الضعف الذى أصاب الدولة العثمانية بعـد سليمان المشرع (١٥٢٠ — ١٥٦٦) والذى تغلغل فى كيانها الادارى والسـياسى والاقتصادى والعسكرى ، ساعد على قيام عدد من الحكام الاقوياء بفتن وثورات ، بهدف الانفصال عن جسم الدولة ، أو تدعيم اســـتقلالهم الاقليمى ، وتدعيم زعاماتهم وعصبياتهم فى المناطق التى يحكمونها ، أو التى ولدوا فيها ، فانفصلت ولايات المغرب العربى فى أيدى عصـبيات عسكرية بحرية فى كل منها . كالدايات فى الجزائر ، والبايات من الاسرة الحسينية فى تونس ، والاسرة القرمانية فى طرابلس (١) ، كمـا قامت انتفاضات فى بعض أقطار المشرق العربى على الحـكم العثمانى مثل : حركة فخر الدين المعنى فى لبنان فى القرن السابع عشر ، وظاهر العمـر فى فلسطين ، وعلى بك الكبير فى مصر فى القرن الثامن عشر ، فلم يكتف هؤلاء بالخروج على الدولة العثمانية ، وانما حرصوا على تنمية علاقاتهم ببعض الدول الاوربية ، بهدف الاعتراف بالكيـان الذى يعملون عـلى اصطناعه لانفسهم ، أملا فى أن يمكنهم ذلك من دعم كيانهم بما تقدمه لهم الدول الاوربية ذات العلاقة بهم من سلاح وعتاد وخبرة فنية ، هـــذا فضلا عن رواج التجارة ، وانتعاش الاقتصاد المحلى ، والخروج ببلادهم من نطاق العزلة المفروضة عليهم ، وما يستتبع ذلك من ايجاد مصـــالح ثابتة متنوعة للاوربيين فى تلك الولايات تجعل دولهم أكثـر اهتماما بها وبمصيرها ، وكل هذا يستخدمه حاكم الولاية ، أو صاحب العصبية فيها لتقوية مركزه ازاء السلطة العثمانية ، ولكن الدولة العثمانية كانت حريصة

---

(١) د. جلال يحيى — العالم العربى الحديث (المدخل) — ص ص ٧٤ — ٧٦

أشد الحرص ، وبذلت أقصى جهدها للقضاء على تلك المحاولات (١) .

هذا بالاضافة الى حركات الائمة الزيدية فى اليمن . ومحمد على فى مصر ، وبشير الشهابى فى الشام ، والوهابية فى نجد والسنوسية فى ليبيا ، والمهدية فى السودان .

على ان هناك حركتين من هذه الحركات السابقة سوف أخصهما بشىء من التفصيل نظرا لانهما كانتا اكثر اهمية واعمق اثرا فى مجريات الاحداث فى المنطقة العربية وهما : الحركة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية ، وحركة محمد على فى الشام .

اولا — الحركة الوهابية :

تعتبر الحركة الوهابية أول حادث جليل هز حبل الارتباط بين الدولة العثمانية والبلاد العربية (٢) وليس ذلك راجعا الى كونها حركة قومية ، لان الحركة الوهابية قامت على اساس دينى خالص ، ذلك « أن العقيدة فى ذلك الزمن كانت العامل الاقوى فى توجيه الناس الى الاهداف السياسية » (٣) ، ولكن يرجع ذلك الى انها كانت « اول صوت عربى شديد بدأ محاولة اعادة السلطان الى العرب » (٤) ، وذلك عن طريق تكوين وحدة دينية سياسية فى شبه الجزيرة العربية يكون دستورها الاسلام الصحيح ، ووسيلتها العودة بالاسلام الى ما كان عليه السلف الصالح (٥) ، وهذا ما ازعج السلطات العثمانية فى الآستانة من هذه الحركة التى تؤذن بقيام دولة عربية اسلامية تناوئها السيادة الاسلامية على العالم العربى ؛ وما جعل السلطان العثمانى يعمل جاهدا على قبرها قبل أن تتسع آفاقها .

---

(١) انظر الجبرتى — عجائب الاثار فى التراجم والاخبار ، ج ٣ تحقيق : حسن جوهر وعمر الدسوقى (ط ١ ، لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٦٤ ص ص ٥ — ٥٠ ومابعدها) .
وانظر عيسى اسكندر المعلوف — تاريخ الامير فخر الدين المعنى الثانى ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ، ١٩٦٦ ص ص ٥٢ — ١١٠ .

(٢) د. محمد بديع شريف وزميلاه — مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ .

(٣) مصطفى الشهابى القومية العربية ، تاريخها وقوامها ومراميها ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، ط ٢ القاهرة ١٩٦١ ص ٣٩ .

(٤) د. محمد بديع شريف وزميلاه — مرجع سبق ذكره ص ٢١ .

(٥) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى — حركة التجديد الاسلامى فى العالم العربى الحديث (من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية — القاهرة ، ١٩٧١) ص ٢٨ .

ومؤسس هذه الحركة هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١) النجدى الذى درس علوم التفسير والحديث والفقه على المذهب الحنبلى ، وطاف بكثير من مراكز الثقافة الاسلامية طلبا للعلم ، فأدرك ان عقيدة التوحيد — وهى ميزة الاسلام الكبرى — قد دخلها كثير من الفساد ، حيث أشرك المسلمون مع الله الاولياء وتمسحوا بهم ، طالبين جلب الخير ورفع الضر ، بل وأشركوا معه النبات والجماد ، كما ادرك أن قفل باب الاجتهاد فى الاسلام ، والاقتصار على تقليد المذاهب الاسلامية السابقة هو سر تدهور الاسلام وجموده (٢) ، ومن ثم كانت دعوته أساسها التوحيد (أى

---

(١) ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١٦٩٦ م على احد الاقوال (د. محمد بديع شريف مرجع سبق ذكره ص ١٨) أو سنة ١٧٠٣ (كما يرى أحمد امين فى كتابه زعماء الاصلاح ص ١٠ ، د. عبد الرحيم عبد الرحمن فى كتابه الدولة السعودية الاولى من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٦٩ ص ١٩) ونشأ فى بلدة تسمى « عيينة » من أعمال نجد ، وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب يقوم بجانب وظيفته القضائية بتدريس التفسير والحديث والفقه على المذهب الحنبلى ، فكان بيته مقصد طلاب العلم وبعض العلماء ، حيث يمضون الوقت فى جدال فقهى أو نقاش دينى ، وكان يحلو لمحمد أن يراقب مجلس أبيه عن كثب ، فينصت لاحاديث القوم ومجادلاتهم ، ولذلك نشأ واسع الثقافة بالنسبة للجيل الذى عاصره ، حافظا للقرآن قبل أن يبلغ الربيع العاشر من عمره ، شغوفا بالعلم والدراسة يصرف كل وقته فى القراءة والاطلاع على كتب الفقه والتفسير والحديث والعقائد ، كما عكف على دراسة كتب ورسائل ابن تيمية التى كانت مصدر الهام له فى كثير من المسائل ، ولم يكتف بذلك بل رحل فى طلب العلم الى المدينة ، وبعد أن استزاد من شيوخها شرع يطوف فى أرجاء العالم الاسلامى ، فوصل البصرة ومكث فيها أربع سنوات ، وفى بغداد خمس سنوات ، ثم قصد الاحساء حيث لم تطل اقامته بها ، ثم رحل عائد الى بلده حيث انزوى فى داره مدة من الزمن ثم خرج على الناس بدعوته الجديدة (هذا موجز للترجمة التى ذكرها د. عبد الرحيم عبد الرحمن فى كتابه سالف الذكر ص ص ١٩ — ٢١ ، وانظر أحمد أمين — مرجع سبق ذكره ص ١٠ ، د. محمد بديع شريف ، مرجع سبق ذكره ص ١٨) غير ان المرجعين الاخيرين يذكران أن محمد بن عبد الوهاب قد امتدت رحلاته فى طلب العلم الى بلاد فارس ، حيث قضى فترة من الزمن فى كل من كردستان وهمزان وأصفهان حيث درس فلسفة الاشراق والتصوف ، وهذا ما ينفيه دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن فى كتابه السابق ص ص ٢١ — ٢٣ ، مستندا الى عدم وجود آثار للشيخ محمد بن عبد الوهاب تدل على معرفته بالفارسية قراءة وكتابة ، كما لم يشر مؤرخو نجد الى ما يفيد ذلك ، وأيضا لم يوجد فى كتبه أو رسائله أى أثر لفلسفة التصوف والاشراق . وأخيرا فان الشيخ نفسه ذكر فى رسائله العديدة البلاد التى زارها ، وتلقى العلم فيها على يد علمائها ، ولم يذكر بلاد فارس ، كما لم يوجد له رسائل موجهة الى أى من علماء فارس فى عصره ، فهل عاش فى بلاد فارس ودرس بها ، دون ان يكون له علاقة مع أحد فيها ؟ ! وفى هذه الادلة ما يثبت أنه لم يزر بلاد فارس اثناء رحلته لطلب العلم وهذا ما نميل اليه .

(٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٨ — ٢٩ ، احمد امين ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٠ — ١٢ ، البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

افراد العبادة لله وحده ، وعدم اشراك غيره معه فى العبادة فمعنى « لا اله الا الله » نفى صفة الالوهية عن كل المخلوقات واثباتها لله وحده) وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، فليس كلام احد حجة فى الدين الا كلام الله ورسوله ، ومن ثم فكل مستوف لادوات الاجتهاد له الحق فى أن يجتهد حسب فهمه لنصوص الكتاب والسنة ، ذلك ان قفل باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين اذ اضاع شخصيتهم ، وقدرتهم على الفهم والحكم ، وجعلهم جامدين مقلدين حتى انحط شأنهم وتفرقوا شيعا واحزابا (١) .

وقد اطلق محمد بن عبد الوهاب على نفسه وعلى اتباعه « الموحدين » ، أما اسم الوهابية فقد اطلقه عليهم خصومهم ، ليبرهنوا للناس أن مبادءه التى يدعو اليها بدعة جديدة خارجة على مبادىء الاسلام ، وقد استعمل هذا اللفظ الاوربيون ثم جرى على الالسن (٢) بل ان أعداء الدعوة من الاتراك ومن سار على دربهم قد غالوا فى ذلك ، واطلقوا على اتباع الدعوة « الروافض » و « الخوارج » ، حتى ان الوثائق الرسمية التى تبودلت بين محمد على والباب العالى ، تنعت الامير السعودى الذى اعتنق هذه المبادىء وعمل على نشرها باسم « الخارجى » ، أما اتباع الدعوة فكان يحبون ان يطلق عليهم ، اما « الموحدون » — كما سبق — أو « الحنابلة » أو « الاخوان » أو « السلفيون » (٣) .

تأثر ابن عبد الوهاب بابن تيمية :

على أن هذه الدعوة ليست مذهبا جديدا فى الاسلام حيث أنها لم تأت بجديد ، وانما غاية ما فيها هو الرجوع الى اصول الاسلام الصحيحة (٤) ، فهى اذن دعوة سلفية وقد أصاب من أطلق عليها اسم « الدعوة السلفية النجدية » ، تمييزا لها عن الدعوات السلفية الاصلاحية الاخرى التى ظهرت فى أجزاء مختلفة من العالمين العربى والاسلامى (٥)، ومن المؤكد أن ابن عبد الوهاب قد تأثر الى حد بعيد بابن تيمية عن طريق

---

(١) د. محمد بديع شريف . مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ ، د. عبد الرحيم عبدالرحمن — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٦ — ٢٩ ، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى — مرجع سبق ذكره ص ص ٢٨ — ٢٩ .

(٢) أحمد أمين — مرجع سبق ذكره ، ص ١٠ ، د. احمد عبد الرحيم مصطفى — مرجع سبق ذكره ص ٢٩ .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم — مرجع سبق ذكره ص ٢٥ .

(٤) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ ، جورج أنطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ٨٢ .

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٥— ٢٦ .

عائلته التى كان أعضاؤها من علماء الحنابلة (١) ، بل تبنى آراءه ونادى بها ، فقد درس آثار ابن تيمية من كتب ورسائل وفتاو بل ونسخ بعضها لنفسه ، ويوجد فى المتحف البريطانى بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب (٢) ، ويؤكد ذلك ايضا ، أن كل رسائل ابن عبد الوهاب التى كتبها الى علماء عصره او الى اصحاب الشأن ، او وجهها الى الناس عامة مملوءة بشواهد من كلام ابن تيمية ، أو من شروحه لبعض الآيات القرآنية والاحاديث النبوية (٣) . وقد نادى كل منهما بالرجوع الى القرآن والسنة ، وآثار السلف الصالح ، ومقاومة البدع والخرافات التى الصقت بالاسلام ، كما فتح كل منهما باب الاجتهاد أمام كل راغب ، وعدم التقليد، حتى وان أدى ذلك الى مخالفة الائمة الاربعة (٤) ، وهكذا كان ابن تيمية امامه ومرشده ، وباعث تفكيره ، والموحى اليه بالاجتهاد والدعوة الى الاصلاح .

خطورة الدعوة الوهابية على الدولة العثمانية :

بدأ محمد عبد الوهاب يدعو بدعوته — التى اشرنا اليها — فى لين ورفق ، ثم أخذ يرسل الدعاة الى أمراء الحجاز ، والعلماء فى الاقطار الاخرى يحثهم على استنهاض الهمم فى مكافحة البدع والخرافات والرجوع الى الاسلام الصحيح (٥) ، والى هنا والامر لا يعدو فى ظاهره سوى دعوة اصلاحية سلفية شأنها شأن اية دعوة هبت ثم مرت بسلام ، وان شابها شىء فسجن الداعى او التشهير به ، او رميه بالزندقة ، ثم ينتهى الامر ، وتعود الامور سيرتها الاولى ، ولكن واقع الامر ، أن هذه الدعوة كانت تمثل خطورة حقيقية فى وقتها لعدة أمور :

أولا : أنها بدعوتها الى العودة الى الاسلام الحقيقى كانت تعنى « أن ذلك الاسلام الذى كان السلطان يحميه ليس بالاسلام الحقيقى ، وهذا يعنى ضمنا أن السلطان ليس الامام الحقيقى للامة » (٦) ، فيكون مفهومها يتعارض مع السيطرة العثمانية والنفوذ السياسى والاسلامى القائم

---

(١) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .
(٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٩ — ٣٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠ ، عبد الرحيم عبد الرحمن — مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤
(٤) أحمد أمين — مرجع سبق ذكره ، ص ١٣ ، عبد الرحيم عبد الرحمن — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٢ — ٢٤ .
(٥) أحمد أمين — مرجع سبق ذكره ص ١٨ .
(٦) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ٥٦ .

على سيطرة السلاطين ومن حولهم ، من قادة الجماعات الصـــــوفية ومفاهيمهم « التى كانت تدعو الناس الى التسليم ، وقبول الواقع والزهد والانسحاب من الحياة والتطلع الى حياة أخرى » (١) .

ثانيا — أن هذه الدعوة ظهرت فى وقت كان الغرب الاوربى قد بدأ فى تطوير خطته الاستعمارية ، — التى بدأت منذ طرد العرب من الاندلس وظهور الاسبانيين والبرتغال على مسرح الاحداث وقيامهم بحركة تطويق للعالم الاسلامى فى حركة بحرية تجارية حول افريقيا الى الهند تاركين الجزء الشمالى الشرقى من البحر المتوسط فى قبضة العثمانيين الى حين — وذلك بالسيطرة على أطراف شبه الجزيرة العربية ومواقعها الحصينة فى الجنوب وفى امارات الخليج ، وكان يتطلع فى الوقت ذاته الى المضى فى خطته الى النهاية دون أن يصطدم بحركات يقظة جديدة تحول بينه وبين السيطرة الكاملة على العالم الاسلامى والمنطقة العربية بصفة خاصة ، ومن ثم فقد كان ظهور هذه الدعوة عملا دينيا ذا طابع سياسى خطير هو فى نظر الغرب الاستعمارى ايذان بظهور قوة جديدة يمكن أن تسيطر فى المنطقة من حيث يريد الاستعمار السيطرة عليها (٢) .

ثالثا — وهو الاهم — انتقالها من مجال الدعوة الى مجال الحركة بتحالف محمد بن عبد الوهاب مع أمير الدرعية محمد بن ســـــعود عام ١٧٤٧ ، وذلك عندما اضطهد ابن عبد الوهاب فى بلدته العيينة التى فر منها الى الدرعية ، حيث وجد أن الدعوة لن تنجح الا اذا عضـــــدتها القوة (٣) ، وقد توثقت الصلة بينهما بتزوج محمد بن ســـعود من ابنـــة محمد بن عبد الوهاب ، حيث عهد الاخير الى الاول بالادارة السياســـية والعسكرية ، وبتحالفهما بدأ ظهور الحـــــركة الوهابية ، التى انتشرت انتشارا سريعا فى قلب شبه الجزيرة العربية ، وذلك بفضـــل تحـــالف السيف واللسان فى سبيل نشرها (٤) ، غير انه لم يظهر أثرها خارجها الا بعد مضى نحو أربعين عاما (٥) .

---

(١) انور الجندى — يقظة الفكر العربى فى مواجهة الاستعمار — الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٤٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ص ٤٨ — ٤٩ ، ٥٦ .
(٣) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .
جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ٨٢ .
(٤) أحمد أمين — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٨ — ١٩ .
(٥) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ٨٢ .

رابعا — ولقد ساعد على انتشار الحركة الوهابية وسرعة سيطرتها على شبه الجزيرة عامل هام لا يقل أهمية وخطورة عن العوامل السابقة ان لم يفقها ، وهو الموقع الجغرافى لمركز الدعوة ، والميدان الفسيح لانتشارها ، وهو شبه الجزيرة العربية ، حيث ضعف السلطة العثمانية — ان لم يكن انعدامها — فى تلك البقاع ، هذا فى أوج قوة الدولة العثمانية فما بالنا بها فى وقت (القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر) تدهورت فيه الدولة العثمانية ، ونخر سوس الوهن والانحلال عظامها ، فاذا أضفنا الى ذلك الوضع الاجتماعى لسكان تلك المنطقة حيث سيادة النظام القبلى وبساطة العقيدة ، أدركنا السر فى سرعة انتشار الدعوة ، المدعمة بقوة السيف بينهم ، حيث توافد رجال نجد الذين اثارتهم خطب المصلح وانضموا تحت علم ابن سعود الذى استطاع أن يوجه « قوى البدو الحربية نحو جهاد دائم » (١) . وفى أواخر القرن الثامن عشر كان الوهابيون قد سيطروا على أواسط الجزيرة العربية والخليج العربى ، وذلك بعد وفاة ابن عبد الوهاب سنة ١٧٩١ ، ووفاة خليفة الاول قبله بثلاثين عاما ، حيث أخذ آل سعود على عاتقهم مهمة نشر الدعوة وحمايتها « فخرجوا من القلب الى الاطراف ينازعون الخليفة العثمانى سلطانه ويحاولون ايجاد دولة عربية ذات قوة ومنعة » (٢) .

ليس بصحيح ما يراه الدكتور محمد بديع شريف من أنهم كانوا يحاولون ايجاد دولة عربية ؛ فمبادئهم ودعوتهم كانت اسلامية خالصة كما سبق أن أشرنا ، هذا بالاضافة الى أن الفكرة القومية العربية لم تكن ظهرت فى الافق فى تلك الفترة ، صحيح يمكن أن نطلق عليها جغرافيا انها دولة عربية أما عقائديا وفكريا فهى دولة اسلامية تدعو لا الى تضامن عربى بل الى تضامن اسلامى وتذهب جوهريا الى أنها الدولة الاسلامية الوحيدة التى يمكن للجميع الانتماء اليها (٣) .

غزا الوهابيون العراق واستمروا حتى طرقوا ابواب بغداد ، مما اضطر واليها أن يعقد معهم معاهدة سنة ١٧٩٩ ، وأعادوا الكرة بعد عامين على العراق فدخلوا كربلاء احدى مدن الشيعة المقدسة ، ونهبوها — وهذا يتنافى مع دعوتهم — ثم اتجهوا نحو الغرب والشمال فاستولوا على مكة والمدينة وغزوا بلاد الشام « وهددوا دمشق وحلب أيضا ، وكانوا لا يزالون هناك سنة ١٨١١ » (٤) .

---

(١) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ٥٦ .
(٢) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .
(٣) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ٥٦ .
(٤) جورج أنطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ٨٣ .

موقف الدولة العثمانية من الحركة الوهابية :

شعرت الدولة العثمانية بالخطر الذى يتهددها ، ولا سيما بعد خروج الحجاز من يدها وهوموطن الحرمين الشريفين اللذين يجعلان لها مركز اسلاميا ممتازا ، تفقد الكثير منه اذا فقدتهما — واعلان آل سعود زوال السيادة العثمانية عنهما ، ومنعهم قوافل الحج التى ترد من الولايات العثمانية ، هذا بالاضافة الى مهاجمتهم ولايات الشام والعراق وفشل ولاتهما فى التصدى لهم (١) ، ولما كان العثمانيون حريصين على استرجاع سيادتهم على الحجاز لاسترداد هيبتهم فى العالم الاسلامى ، وذلك باتمام « شكليات الخلافة » (٢) فقد وجدوا الا مناص من الاستعانة بوالى مصر محمد على للقيام بتلك المهمة التى فشل فيها ولاة الشام والعراق ، والتى كانت تهدف من ورائها — كما يذهب بعض الباحثين — « لاضعاف الاثنين معا » (٣) بالقضاء على قوة ابن سعود ومحمد على . غير ان ذلك الهدف من المستبعد بالنسبة للاخير ، ذلك لان جيش محمد على لم يكن قد بلغ اذ ذاك من القوة ما يخيف الدولة العثمانية ، ويجعلها تسعى للقضاء عليه أو اضعافه ، واذا كانت تهدف الى استنزاف موارده فذلك ايضا مستبعد نظرا لان مركز مصر المالى حينئذ كان حرجا للغاية بسبب حروب محمد على مع المماليك ، مما اضطره — حين كلفه السلطان محمود الثانى بارسال حملة للقضاء على ابن سعود — للاستعانة بالمحروقى (سر تجار القاهرة) ليعينه بالمال على تجهيز الحملة (٤) ، الامر الذى يرجح أن استعانة السلطان بمحمد على ترجع الى احساس الاول بضرورة الاسراع فى القضاء على تلك الحركة الخطيرة التى عجز ولاته فى الشام والعراق عن التصدى لها ، بينما وجد محمدا عليا قادرا على القيام بهذه المهمة فكلفه بها ، ولم يجد محمد على بد من الطاعة والاذعان بعد الحاح من السلطان استمر حوالى اربع سنوات ، هذا فضلا عن أن محمدا عليا نفسه اعتبر نجاحه فى هذه المهمة توطيدا لمركزه فى مصر ، وفى العالم الاسلامى بانقاذه الحرمين الشريفين من تحكم الوهابيين (٥) .

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن — مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٣ .
(٢) د. حسين مؤنس / الشرق الاسلامى فى العصر الحديث — (لجنة الجامعيين لنشر العلم) ط ٢ ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١٩٢ .
(٣) مصطفى الشهابى — مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠ .
(٤) الرافعى — عصر محمد على — ط ٣ ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٣٢
(٥) المرجع السابق ، ص ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

ولا يهمنا هنا ان نتعرض بالتفصيل لحوادث الصراع بين محمد على والوهابيين ، وانما يعنينا ان نذكر ان محمدا عليا استمر فى ارســـال الجيوش الى جزيرة العرب مدة سبع سنوات استطاع فى نهايتها ســنة ١٨١٨ ، أن يقضى على الامارة السعودية الاولى ، التى كانت الثمـرة السياسية للحركة الوهابية ، وذلك انه بعد أن استنقذ البلاد المقدسة من سيطرة السعوديين وجه جيشا بقيادة ابراهيم باشا ، فحاصر الدرعية عاصمة الامارة السعودية ، مما اضطر حاكمها عبد الله بن مسـعود الى التسليم فى سبتمبر سنة١٨١٨،فارسله ابراهيم باشا اسيرا الىالقاهرة، ومن ثم ارسل الى الآستانة حيث لقى مصيره المحتوم (١) .

وهكذا استطاعت الدولة العثمانية أن تقضى على الحركة الوهابية الا ان ذلك كان قضاء على واقعها السياسى فحسب المتمثـل فى الامارة السعودية الاولى ، أما مضمونها الفكرى فقد انساب فى كافة انحاء العالم الاسلامى عن طريق موسم الحج (٢) ، مما كان له أبعـد الاثر فى مختلف حركات اليقظة ودعوات الاصلاح ، فنكاد لا نجد حركة من حركاتالاصلاح الا كان مرجعها لمـا نادى به محمد بن عبد الوهاب ، ويكفيها فضلا أنها هزت الركود الذى أصاب العالم العربى والاســلامى احقابا طويلة ، ووفرت نموذجا لمـا تلاها من دعوات اصلاحية .

اما عن النتائج التى ترتبت على القضاء على الحركة الوهابية بانهاء الكيان السياسى لامارة آل سعود الاولى ، فهو ازدياد نفوذ محمد على حيث امتدت سيطرته على معظم اراضى شبه جزيرة العرب ، بالاضافة الى اعلاء مكانته فى نظر العالم الاسلامى ، وتوطيد حكمه فى مصر ، كما كان منها المنطلق الى تفكيره فى تكوين امبراطورية عربية جديدة (٣) كمـا ترتب على ذلك ايضا ازدياد وتطلع النفـوذ الاستعمارى الى ســواحل الخليج العربى ، وسعى بريطانيا الى توطيد نفـوذها على السواحل العربية ، الامر الذى أدى الى الاصطدام بين السياسة الانجليزية وبين

---

(١) محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٠ — ٢١ ، حسين مؤنس — مرجع سبق ذكره ، هامش ص ١٩٣ ، جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ٨٣ ، وللرجوع الى تفاصيل تلك الحروب انظر الرافعى — عصر محمد على ، ص ص ١٢٣ — ١٦٥ ، عبد الرحيم عبد الرحمن — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٨٣ — ٣٣٢ .

(٢) احمد امين — مرجع سبق ذكره ، ص ٢١ ، انور الجندى — مرجع سبق ذكره ، ص ٥٧ .

(٣) حسين مؤنس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٩٤ — ١٩٥ ، ١٩٨ ، جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٨٣ — ٨٤ .

محمد على ، حتى انسحاب القوات المصرية من شبه الجزيرة سنة ١٨٤٠ ، على أثر التدخل الاوربى ضدها (١) .

ثانيا — حركة محمد على فى الشام :

يرجع الاستاذ الرافعى طموح محمد على الى ضم سوريا الى سنة ١٨١٠ مستندا الى ضخامة الاستعدادات العسكرية التى جهد محمد على فى حشدها حينئذ ، وانما صرفه عنها انهماكه فى الحرب الوهابية ، ثم فتح السودان ، ثم الحرب اليونانية ، فلما انتهى من هذه الاخيرة ، اخذ يفكر فى انفاذ فكرته القديمة (٢) . غير أنه يمكن استبعاد أن تكون استعدادات محمد على العسكرية سنة ١٨١٠ هدفها ضم سوريا ، لانه عاد من الوجه القبلى الى القاهرة فى سبتمبر من ذات السنة ، بعد أن أنهك قوى المماليك فى الصعيد ، فلا يعقل أن تكون استعداداته فى تلك السنة هدفها التحرك الى سوريا ، ثم ان الباب العالى كان قد طلب منه منذ ديسمبر سنة ١٨٠٧ ولما يمضى عامان على ولايته تجريد حملة الى الحجاز للقضاء على الوهابيين ، وظل الباب العالى يلح ويكرر الطلب منذ تلك السنة الى سنة ١٨١١ ، وكان محمد على يتعلل بانشغاله بحربه مع المماليك ، وعندما انتهى من حربه ضد المماليك لم يجد مناصا من تنفيذ أوامر الباب العالى ، آملا ان يكون نجاحه فى هذه المهمة تدعيما لمركزه فى مصر ، فلا يجرؤ الباب العالى على خلعه ، اذ أنه كان يتوقع خلعه من ولاية مصر بين الحين والآخر ، كما يذكر الرافعى نفسه (٣) ، هذا بالاضافة الى الارتباكات المالية التى كانت تعانى منها مصر فى تلك الآونة مما دفع محمدا عليا الى الاستعانة بالمحروقى (سر تجار القاهرة) فى تجهيز الحملة الى الحجاز ، كما سبق ان اشرنا ، اذن فلا يعقل مع ماذكرنا أن تكون فكرة ضم سوريا ، كانت تخالج محمدا عليا فى تلك السنة على الاقل ، وانما المعقول أن تكون آمال الرجل فى هذه السنوات الاولى ، لا تتعدى الرغبة فى الاستقلال عن الدولة ، واقامة دولة قوية فى مصر له ولاولاده من بعده (٤) .

على أن الثابت أن محمدا عليا لم يفكر فى ضم سوريا بالقوة الا بعد

---

(١) حسين مؤنس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٩٥ — ١٩٨ .
د. صلاح العقاد — التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ص ١٤٣ — ١٤٨ .
(٢) الرافعى ، عصر محمد على ، ص ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ص ١٢٤ — ١٢٥ .
(٤) حسين مؤنس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٦٧ — ١٦٨ .

بسطه نفوذه فى معظم الجزيرة العربية ، وبعد فتحه السودان وخوضه غمار الحرب اليونانية ، والحاحه على السلطان أن يضع بلاد الشام تحت سيادته مكافأة له على اشتراكه فى القضاء على ثورة اليونان ، وعندما رفض السلطان الاستجابة الى مطلبه جرد محمد على حملة بقيادة ابنه ابراهيم للاستيلاء عليها (١) ، مؤمنا حدود مصر ، التى كان يراها مستشاروه الفرنسيون — وعلى راسهم كلوت بك — جبال طوروس لا صحراء سيناء (٢) ، ومحققا حلمه فى تكوين « امبراطورية عربية تحكمها أسرته » (٣) ، ومنتحلا عذرا مباشرا للحملة — دون أن يعلن عداءه السافر للسلطان — وهو الخلاف بينه وبين منافسه القوى الجزار حاكم عكا الذى كان يطمع فى ضم بلاد الشام اليه ، والذى امتنع عن ارجاع الفلاحين المصريين الذين هاجروا الى عكا فرارا من أعمال السخرة ، ودفع الضرائب ، وهروبا من الخدمة فى الجيش (٤) .

وقد جرت مواقع عنيفة بين جيوش محمد على وجيوش السلطان كان للاول فيها النصر والغلبة ، وتكاد تنحصر فى جولتين انتهت الاولى باتفاقية كوتاهية (ابريل — مايو سنة ١٨٣٣) التى اعترف فيها السلطان لمحمد على بالولاية على مصر وسوريا واقليم أدنة وجزيرة كريت والحجاز ، مقابل جلاء الجيش المصرى عن باقى الاناضول ، وكانت الجولة الثانية عندما أراد السلطان استرجاع سوريا وادنة ، وقد انتهت بانتصار الجيوش المصرية انتصارا حاسما ، ووقفت على أبواب الآستانة سنة ١٨٣٩ ، وسلم الاسطول العثمانى نفسه لمحمد على ، ورست سفنه بالاسكندرية ، واصبح السلطان قاب قوسين أو أدنى من التسليم بجميع مطالب محمد على بجعل سلطاته وراثيا على جميع البلاد العربية التى فى حوزته ، لولا وقوف أوربا وفى مقدمتها بريطانيا بجانب السلطان وارغام محمد على باشا على التخلى عن مطامعه والاحتفاظ بمصر فقط ولاية وراثية فى ذريته (٥) .

وبذلك انتهى الحلم الجميل الذى داعب خيال محمد على سنين

---

(١) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٨٤ — ٨٥ .
(٢) الرافعى / عصر محمد على . ص ٢٤٥ .
(٣) محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧ .
(٤) الرافعى — عصر محمد على ، ص ٢٤٩ .
(٥) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧ ، جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ٨٥ . وانظر تفاصيل هذه المعارك — الرافعى — عصر محمد على ، ص ص ٢٥١ — ٣٢٦ .

عددا ، فى تكوين دولة واسعة فى المنطقة العربية ، يتوارث حكمها ابناؤه من بعده ، وذلك من منطلق المصلحة الشخصية لا المصلحة القومية ، فقد تخيل نفسه — بما عرف عنه من طموح الهمة وقد امتد سلطانه على اجزاء كثيرة من العالم العربى — انه اصبح بذلك صاحب الحق فى السيطرة عليه كله (١) .

ويذهب بعض الباحثين الى حد القول بأن محمدا عليا كان يفكر ويطمع فى الخلافة ذاتها ، والحلول محل السلطان العثمانى فيها ، وأن فرنسا كانت تغذى هذا الاتجاه وتشجعه ، وأن هذا التفكير يلقى ايضا التأييد من النمسا عن طريق الكولونيل بروكشى الذى حضر الى القاهرة ، وعرض على محمد على الخطوط الرئيسية لتلك الدولة العربية التى تشمل مصر والسودان ، وشبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق (٢) ، بل ويذهب البعض أيضا الى أن محمدا عليا كان يهدف الى تجديد شباب الدولة العثمانية بالسيطرة على اعنة الحكم فيها أولا ، ثم اصلاحها مستعينا بالنظم الغربية وموارد مصر الاقتصادية ، بدعوى أن الحكومة العثمانية قد استنفذت كل مواردها المادية والمعنوية ، وأصبحت بالية من اساسها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، مرتمية فى أحضان الروس أعداء الاسلام ، فلما عجز عن تحقيق هذا الهدف ، رأى أن تقتصر دولته على الاقطار العربية التى تشترك مع مصر فى الجنس واللغة والجوار ، كأساس لدولة عربية اسلامية (٣) .

ومهما يكن من أمر فانه لا صحة لما يراه البعض من أن هذه الحركة تعتبر مظهرا من مظاهر الحركة القومية العربية (٤) ، ذلك أن محمدا عليا لم يكن يهدف الى انشاء امبراطورية عربية تحل محل الامبراطورية العثمانية ، على الرغم مما كان يدعيه — ولاسباب شخصية محضة — من ميول عربية « لان قيام حركة عربية عرقية فى مصر وسوريا قبل مائة سنة (من ذلك التاريخ) كان أمرا يتنافى مع التيار الفكرى االشرقى فى تلك الايام . . . فقد كان جميع المؤمنين يشعرون بانهم أعضاء فى أخوة دينية كبرى ، يحس كل فرد فيها ، أنه يقف على قدم المساواة

---

(١) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٨٦ ، حسين مؤنس — مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٩ . نقلا عن تقرير كامبل تنصل بريطانيا العام فى مصر الى حكومته سنة ١٨٣٢ .
(٣) حسين مؤنس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٧٠ — ١٧٢ .
(٤) د. محمدبديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨ .

مع اخيه المؤمن » (١) ، هذا فضلا عن ان محمدا عليا كان البانيا لا يعرف العربية ، يميل الى الترك ويفضلهم على العرب ، وقد فاوضته فرنسا من اجل غزو الجزائر لحسابها (٢) ، كما ان الفتوحات التى قام بها كان كل منها وليد ظروف سياسية او حربية او اقتصادية خاصة بكل حملة ، املت عليه القيام بها ، ولم تكن من بين دوافعها الرغبة فى احياء القومية العربية ، او تحقيق الوحدة العربية ، فالفتوحات المصرية فى عهده لم تكن تسير وفق مخطط قومى عربى يستهدف انشاء دولة عربية .

واما منشورات ابراهيم فى الشام — التى يتشدق بها البعض مضبغين عليها الصبغة القومية العربية — فلم تكن تستهدف سوى استمالة الاهالى لتسهيل عمليات الزحف العسكرى ، فهى لا تعدو أن تكون وعودا للاستهلاك المحلى لا اكثر ، كما ان ابراهيم — الذى حاول البعض (٣) أن ينسب اليه فكرة العمل على تحقيق النهضة العربية ، وتأسيس امبراطورية عربية — فانه لم يندمج فى المجتمع العربى ، فقد كانت حاشيته الخاصة مؤلفة فى معظمها من الاتراك والجراكسة والارناؤوط والفرنسيين (٤) .

وهكذا نجد ان محمدا عليا لم يكن يؤمن بالعروبة ، ولم ينتفض انتفاضته ضد السلطان العثمانى دفاعا عن القومية العربية ، او رغبة فى تخليص العرب من حكم الترك ، فقد « بدأ وعاش وانتهى عثمانيا مسلما » (٥) ، وأصدق وصف يصح ان يطلق على حركته تلك كحركة قومية عربية ، هو ما اطلقه عليها استاذنا الدكتور الشناوى من أنها كانت « اسطارة تاريخية لا سند لها من الحقيقة » (٦) .

وايا ما كان الامر فقد فشلت هذه الحركة ، وكان العامل الحاسم فى فشلها (٧) هو افتقار الشعور بالتضامن القومى بين العرب ، ذلك أن

---

(١) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥ .

(٢) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨ .

(٣) محمد عماره — العروبة فى العصر الحديث — دراسات فى القومية والامة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ص ١٦٥ — ١٧٢ .

(٤) د. عبد العزيز الشناوى — الوحدة العربية ، ص ص ٢١ — ٢٢ .

(٥) محمد شفيق غربال — محمد على الكبير ، لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ، سلسلة اعلام الاسلام عدد ٨ ، اكتوبر ١٩٤٤ ص ٦٢ .

(٦) د. عبد العزيز الشناوى — الوحدة العربية ص ٢٣

(٧) بالاضافة الى عدة عوامل اخرى منها : كون محمد على وابنه ابراهيم غير عربيين ، وصفة التردد التى اتسمت بها سياسته ، وسياسة ابراهيم فى الشام ، والمعارضة الاوروبية .

الوعى القومى الحقيقى كقوة سياسية لم يكن بالدرجة القوية الكافية بين العرب ، وكانت فكرة تكوين دولة عربية مستقلة — حينذاك — فكرة سابقة لاوانها ، فان اسلام الدولة العثمانية ، وخلافة السلطان العثمانى جعلا المسلمين عربا وغير عرب — حيث المجتمعات مجتمعات اسلامية — يرتبطون برابطة العقيدة ، فالعاطفة الدينية من اقوى الروابط ، وأما العاطفية الوطنية ، فقد كانت ممتزجة بالعاطفة الدينية ، هذا الرباط الدينى كان لا يزال يشد جماهير ذلك العصر من العرب الى الخلافة الاسلامية فى الآستانة (١) .

على انه يمكن القول أننا وان كنا ننفى عن محمد على وجود أى تفكير قومى لديه ؛ لان حركته لم تستمد قوتها من نزعة قومية ، ولهذا لم تؤثر فى نشوء الفكرة القومية العربية تأثيرا مباشرا ، ولكنها خدمت القومية العربية خدمة كبيرة ، ولو بصورة غير مباشرة ، لانها أوجدت دولة عصرية قائمة فى بلاد عربية (٢) ، ويظهر ذلك جليا فى اثر الوجود المصرى فى الشام على عهد محمد على ، كعامل هيأ أو ساعد على ظهور الفكرة القومية العربية، فقد نعم المسيحيون بمساواة كانوا يفتقدونها فى الحكم العثمانى ، كما فتحت أبواب الشام أمام المؤثرات الغربية حيث ازداد النشاط التنصيرى ، والمدارس الطائفية والاجنبية ، هذا بالاضافة الى قيام نهضة تعليمية وطنية ، الامر الذى كان له عظيم الاثر فى قيام الشام بدور رائد فى الحركة القومية العربية .

---

(١) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص ٤١ .

(٢) ساطع الحصرى — محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ٣٠ .

الفصــل الســابع

حركات الاصلاح فى الدولة العثمانية ومحاولة تركيا احكام قبضتها على البلاد العربية

بدأت محاولات حركات الاصلاح والتجديد فى الدولد العثمانية منذ أواسط القرن الثامن عشر ، عندما تدهـورت نظم الحـكم العثمانى ، وتغلغل النفوذ الاستعمارى الذى اسفر عن وجهه فى مطلع القرن التاسع عشر .

ويرى البعض ان اتجاه الدولة العثمانية الى الاصلاح انما يرجـع الى تأثرها بالفكر الغربى الذى « جاءت الثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) تحره وتغذيه » (١) . بينما يرى البعض الآخر أن هـذه المحـاولات كان القصد منها ، اقناع الدول الاوروبية ، بأن ثمة اصلاح يجرى فى الدولة العثمانية ، كى ترفع هذه الدول يدها عن التدخل فى شـئون الدولة العثمانية ، بدعوى حماية العناصر المسيحية المضـطهدة داخل الدولة الاسلامية الكبرى ، وبذلك يمكنها التخلص من « الضغط السياسى الذى كانت الدول الغربية تمارسه فى علاقتها مع الاتراك » (٢) ، وهناك رأى ثالث ، يرى أن اتجاه الدولة العثمانية الى الاصلاح كان نتيجة اقتنـاع رجال الدولة العثمانية ، بوجوب الاصلاح الذى كانت تؤيده الطبقـة المتوسطة التركية للتخلص من الاوضاع الاقطاعية المتخلفة من العصـر العثمانى الاول « لان هدم هذه الاوضاع سيدعم مركزية السلطنة داخل تلـكاتها » (٣) .

وليس من المستبعد ان تكون هذه الاعتبارات الثلاثة كانت تخالج رجال الاصلاح فى الدولة العثمانية ، فهم مع تأثرهم بالحضارة والفـكر الاوروبى تأثرا دفعهم الى محاولة تقليده ، كانوا يريدون اقتنـاع الدول الغربية باتجاهاتهم الاصلاحية ، كى يكفوا عن التدخل فى شئون الدولة العثمانية ، بجانب اقتناعهم أصلا بضرورة الاصلاح انقاذا للدولة العثمانية من التفكك والانهيار .

---

(١) البوت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ٦١ .
(٢) د. زين نور الدين — مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥ .
(٣) د. محمد انيس — مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

على أن المعالم الرئيسية لهذه المحاولات الاصلاحية كانت تدور حول ثلاث نقاط رئيسية :

١ — اقتباس النظم الغربية فى تنظيم الجيش وتسليحه وفى تنظيم الادارة .

٢ — الخروج عن التنظيم الاسلامى للمجتمع والدولة اتجاها بها نحو التشكيل العلمانى .

٣ — الاتجاه نحو مركزية السلطة فى العاصمة والولايات (١) .

اصلاح الجيش :

وجدير بالذكر أن حركة الاصلاح والاقتباس قد اتجهت اول الامر الى الجيش ، ولا غرابة فى ذلك ، فالدولة العثمانية دولة عسكرية بمعنى الكلمة ، والجيش فيها يمثل العمود الفقرى لكل شئونها ، اذ هو اداة الحرب والحكم معا ، هذا بالاضافة الى أن التفوق الاوروبى فى الشئون العسكرية ظهرت آثاره المادية ، خلال الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية ، ضد بعض الدول الاوروبية ، حيث منيت الدولة بهزائم منكرة (٢) .

وجدير بالذكر ان مسألة اصلاح الجيش العثمانى على الرغم من ضرورتها الملحة والبادية للعيان ، قد اصطدمت بمعارضة شديدة ، واستغرقت مدة تزيد على نصف قرن ، فكان بديهيا أن تتعرض سائر الاصلاحات لمعارضة اشد ، وتتطلب جهودا اضنى ومدة اطول ، وهذا يعطينا صورة واضحة لمجتمع ذلك العصر ، حيث سيادة التقاليد الاسلامية الموروثة ورفض كل ما هو اجنبى .

وقد بدأت محاولات اصلاح الجيش ، فى عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ — ١٧٧٤ م) الذى اتجه به الى البحرية والمدفعية ، وتجنب المشاة (الانكشارية) مما جعل الاصلاح قليل الجدوى ، ثم سارت الاصلاحات ببطء فى عهد السلطان عبد الحميد الاول (١٧٧٤ — ١٧٨٩م)، ولكنها لم تلبث ان دخلت طور التنفيذ الفعال فى عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧ م) الذى آمن بضرورة الاصلاح ، فاتجه الى تكوين فرق من المشاة ، دون التعرض للانكشارية ، تاركا لهم حرية

---

(١) د. محمد انيس وزميله — مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٣ .
(٢) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٧٢ — ٧٣ .

الانضمام الى ذلك « **النظام الجديد** » ، **الذى بدأ تطبيقه فعلا فى بعض ولايات الدولة كمصر وبغداد وعكا** ، حيث كان احد أسباب صمود عكا فى وجه بونابرت ، ولكن هذه الاصلاحات **لم تلبث أن نكبت بنكسة خطيرة فى نهاية عهد سليم الثالث** ، بسبب رفض الانكشارية الاصلاح الذى يهدد مركزهم ، فهبوا ثائرين يؤيدهم **العلماء الذين اكتسبوا نفوذا واسعا فى عهد الضعف** ، واستطاعوا أن يحرضوا الجماهير ضده ، بحجة أن « النظام الجديد بدعة ، وكل بدعة حرام ... **انه من بدع الكفار والاخذ به ما هو الا التشبه بالكفار** ، ومن مبادىء الاسلام أن من تشبه بقوم فهو منهم » ، وكانت النتيجة عزل سليم الثالث ثم قتله بغية القضاء على آثار الاصلاح من جذورها (١) .

وبعد حقبة من البلبلة استمرت قرابة عام ، ارتقى عرش السلطنة محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩ م) فرأى — وقد اعتبر باخفاق سلفه — الا سبيل الى اصلاح الجيش الا بالتخلص من الانكشارية ، وقد توفر له عاملان ساعداه على المضى فى الاصلاح بخطى ثابتة وهما :

أولا — ظهور فريق من رجال الاصلاح العثمانيين الذين كانوا على اطلاع واسع بالعالم الحديث ، وعلى اقتناع تام بأن الامبراطورية اما أن تنتمى الى ذلك العالم أو تفنى ، وخلاصة آرائهم فى ذلك : أن على الامبراطورية أن تتحول الى دولة مركزية حديثة ، وذلك بانشاء جيش يحقق لها السيطرة المركزية على ولاياتها المتمتعة بحكم شبه ذاتى وباستقلال عملى ، وذلك لابعاد خطر الثورة والتدخل الاجنبى ، وبانشاء نظام تشريعى وادارى حديث فى جميع أنحاء الامبراطورية ، يكون قائما على مبدأ المساواة بين جميع المواطنين ، وكان على رأس هذا الفريق أحمد وفيق باشا ومصطفى رشيد باشا (٢) .

ثانيا — فى سنة ١٨٢١ م كانت ثورة اليونان التى كانت ثورة قومية بهدف انشاء دولة حرة من جهة ، والتى كانت محاولة لقلب الميزان الدينى والسياسى فى شرق البحر المتوسط ، واحلال السيطرة الارثوذكسية اليونانية محل السيطرة الاسلامية العثمانية من جهة أخرى ، ثم كان عجز الجيش العثمانى عن قمعها ، فانتهت — بعد التدخل الاوروبى — بالاعتراف باستقلال اليونان ، وكان ذلك فى حد ذاته كافيا لان تحذو الشعوب

---

(١) المرجع السابق ص ص ٧٦ — ٨٠ ، د. محمد انيس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، (محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ص ١٦٦) .

(٢) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٦٢ — ٦٣ .

المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية حذو اليونان فى القيام بثورات قومية، والاستعانة بالقوى الاوروبية ، الامر الذى قوى فكرة الاصلاح فى الدولة العثمانية لكسب ولاء الشعب المحكومة ، وتأييد الدول الاوروبية (١) .

وفى يونيه سنة ١٨٢٦ م اقدم السلطان محمود الثانى على الخطوة الاولى فى الاصلاح ، وهى التخلص من الانكشارية منتهزا فرصة فشلهم فى القضاء على ثورة اليونان ، فأبادهم دون أن يرتفع صوت واحد للدفاع عنهم حتى بين المحافظين المتدينين ، ويسمى الاتراك هـــذه الحادثة « بالواقعة الخيرية » لانهم تفاءلوا بها خيرا (٢) .

وبعد القضاء على الانكشارية ، لم يقتصر نشاط السلطان محمود الثانى على الاصلاحات العسكرية التى سارت قدما بمساعدة الضـــباط البروسيين ، فقد انشئت فى عهده الى جانب مدرسة الطب وأكاديمـــة العلوم العسكرية العديد من المدارس الثانوية والاعدادية ، كما جعـل التعليم الابتدائى اجباريا ، وارسلت البعثات الى أوروبا ، وانشئت جريدة رسمية ، وانشىء نظام جديد للبريد ، والغيت الاقطـــاعات المتبقيـــة ، وأصلحت ادارة الاوقاف (٣) ، كما جعل الطربوش لباسا رسميا لجميـــع طوائف الرجال ، ويشير هذا الاجراء الاخير الى رغبة السلطان محمود الثانى فى عدم التفرقة بين رعاياه بسبب دياناتهم ، وقد عرف عنه قوله : « انا أعرف المسلمين فى الجامع ، والمسيحيين فى الكنائس ، واليهود فى المعابد ، وخارج أماكن العبادة أود أن يتمتع كل فرد ، بحقوق ســـياسية متساوية وبحمايتى الابوية (٤) .

ومن الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية بقيت فترة غير قصيرة دون قوة عسكرية اساسية قبل اعداد الجيش العثمانى الجديد ، وفى هـــذه الفترة استطاعت اليونان أن تحصل على استقلالها ، كمـــا ثارت بعض الولايات الاوروبية الاخرى ، وهى نفس الحقبة التاريخية التى استطاع فيها والى مصر محمد على أن يحقق انتصاراته المعروفة فى بلاد الشام ، كما ابتلعت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ م ، وانجلترا عدن سنة ١٨٣٩ م (٥) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٦٣ — ٦٤ ، عبد الكريم غرايبة — مرجـــع ســـبق ذكره ، ص ٢٤ .

(٢) د. محمد انيس وزميله — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٣) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ٦٤ ، ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ص ص ٨١ — ٨٦ .

(٤) د. محمد انيس — مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٤ .

(٥) عبد الكريم غرايبة — مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

على ان هذه الاصلاحات التى انجزت فى عهد السلطان محمود الثانى لم تتعرض لقضية الجوهرية ، وهى حقوق ومركز الرعايا المسيحيين فى الدولة ، وقد ظلت الحال على هذا المنوال حتى سنة ١٨٣٩ م حين تولى السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١ م) حيث صدرت فى عهده ما عرف باسم « التنظيمات العثمانية » : وهى مجموعة القوانين والانظمة التى سنت أو صدرت مستندة على القواعد التى تقررت فى « منشور الكلخانة » الصادر فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٣٩ م ، و « منشور خطى همايونى » الصادر فى سنة ١٨٥٦ م ، هذه التنظيمات التى يرجع الفضل فى اصدارها الى ثلاثة من رجال الاصلاح فى الدولة العثمانية وهم رشيد باشا وعالى باشا وفؤاد باشا (١) .

١ — منشور الكلخانة :

يقرر هذا المنشور الحقوق التى ينبغى أن تتمتع بها الشعوب الخاضعة للامبراطورية مهما اختلفت أجناسهم ودياناتهم ، وهى تأمين الروح والعرض والمال ، وقد يبدو غريبا لنا تقرير هذه الأمور فى مرسوم جديد ، ولكنه كان هاما بالنسبة الى الاحوال السائدة فى الدولة العثمانية حتى ذلك التاريخ ، فقد كان اعدام الاشخاص يتم بدون محاكمة ، بل بأمر السلطان أو احد الولاة ، ثم يلى ذلك فى العادة مصادرة أموال المحكوم عليهم بالاعدام ، كما أن اعراض الناس كانت عرضة لانتهاكها فى كل لحظة ، كما نص المنشور على تنظيم الضرائب وجبايتها ، وتنظيم التجنيد ، وتحديد مدة الخدمة العسكرية ، واصلاح الانظمة الادارية تحقيقا لمركزية السلطة ، وقضاءا على عوامل الفساد (٢) .

٢ — منشور خطى همايونى :

أما خطى همايونى الذى صدر عقب حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٦ م ، فقد أكد ما سبق أن قرره المنشور السابق ، ولكنه أضاف اليه بندا هاما ، وهو معاملة رعايا الدولة غير المسلمين مهما كانت أديانهم ومذاهبهم ، معاملة متساوية مع المسلمين من أبناء الدولة

---

(١) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ص ١٦٦ .

(٢) د. محمد فؤاد شكرى — مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر (١٨٢٠ — ١٨٩٩) ط ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٢٧ .

أمام القانون ، كما أبقى فى الوقت ذاته على الامتيازات الممنوحة لرؤساء الملل غير المسلمة على أن تنظم بقوانين جديدة (١) .

وتوضيحا لذلك يمكن القول ان الدولة العثمانية كانت تعامل غير المسلمين معاملة تختلف فى كل الوجوه عن معاملتها للمسلمين ، فقد كانت تسمى المسلمين تبعة ، وغير المسلمين رعايا ، وكانت تفرض على غير المسلمين أن يلبسوا لباسا خاصا ليسهل تمييزهم عن المسلمين ، بل لقد غالى بعض الحكام فى هذا السبيل ، ففرضوا على غير المسلمين حمل شارة خاصة عند دخولهم الحمام بعد خلع ملابسهم تمييزا لهم عن المسلمين كما لم يسمح لهم عند تشييد المبانى بارتفاعها على مبانى المسلمين ، ولا تقبل شهادتهم بأى وجه من الوجوه على المسلمين ، الامر الذى كان ينتج عنه — بطبيعة الحال — مساوىء كثيرة وقد كان استمرار هذه الاحوال فى القرن التاسع عشر — عصر الثورات والقوميات — من الامور المستحيلة التى ان تركت — بدون علاج — تفتح — لا محالة — بابا واسعا لثورات الرعايا وتدخل الدول الاوربية فى شئون الدولة ، وعلى ذلك كان اعلان المساواة بين المسلمين وغير المسلمين هو العلاج الحاسم لتلك الحالة ، وسدا للذرائع .

كذلك كانت النظم المعمول بها فى الدولة العثمانية تعترف لكل طائفة من الطوائف « غير المسلمة » بشخصية معنوية ، وتمنح رؤساء الدين سلطات خاصة للتصرف فى شئون أبناء طوائفهم ، وكانت السلطات التى يتمتع بها بعض البطاركة تجعل البطريركية دولة داخل الدولة ، فأبقى منشور خطى همايونى على تلك السلطات الممنوحة لرؤساء الدين على أن تنظم بقوانين جديدة ، كما ترك جميع القضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية لابناء الطائفة ، وكذلك جميع الامور المتصلة بأوقاف الاديرة والكنائس وشئون المدارس والمؤسسات الخيرية الخاصة بالطائفة الى رؤساء هذه الطوائف . كما تضمن خطى همايونى تشريعا لابطال المتاجرة والمحسوبية فى الوظائف وجعلها من حق الجميع بلا استثناء ، كما أنه قرر تنظيم أمور الدولة بوجه عام باصدار قوانين جديدة وفقا للنظم السائدة فى الدول الاوروبية (٢) .

---

(١) البرت حورانى مرجع سبق ذكره ، ص ٦٧ .

(٢) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩ — ٩٠ ، د. محمد أنيس — مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٥ .

الانتقادات التى وجهت الى التنظيمات :

وعلى الرغم من صدور القوانين الجديدة تنفيذا لاحكام منشور التنظيمات بهدف تنظيم امور الدولة ، وفقا للنظم الحديثة المتبعة فى الدول الاوروبية فقد وجهت الى التنظيمات عدة انتقادات :

اولا — يرى البعض ان هؤلاء السلاطين الذين اصدروا هذه التنظيمات ، لم يكونوا جادين فى الاصلاح ، لانه لم يعرف ان احدا منهم ، كان يفكر فى ان يصبح هو نفسه ذات يوم سلطانا دستوريا ، فكيف يمكن « أن يوافق على وضع قيود تحد من سلطته وهو أمر يتنافى مع مركزه السامى والقابه العديدة مثل : أمير المؤمنين ، ظل الله على الارض ، وخليفة الرسول ، وسلطان البحرين .. » الخ (١) .

ثانيا — ان الحماس كان شديدا للاخذ بنظم الغرب وأساليبه ، لكن هذا الحماس لم يتعد الجانب الشكلى ، دون وجود الظروف الموضوعية التى تمكن من فاعليتها ، فكانت النتيجة أن أصبحت تلك التنظيمات مجرد مبادىء مكتوبة على ورق ، فلم تستطع الحكومة أن تطبق مبدأ التسوية بين المسلمين والمسيحيين ، فقد ظلت الخدمة العسكرية مقصورة قانونا وفعلا على المسلمين وحدهم ، كما ظل المسيحيون يدفعون البدل العسكرى ، كما ظلت الوظائف العامة لا سيما الادارية والقضائية مقصورة على المسلمين فعلا وان لم يكن قانونا ، الامر الذى نتج عنه ان « ظلت الدول الاوروبية تستفيد من هذه الاوضاع لبسط حمايتها على المسيحيين ولتحريكهم بين الحين والآخر » (٢) .

ثالثا — ان الطبقة المثقفة التركية التى حملت مشعل الاصلاح لم تكن — على الرغم من رغبتها فى الاصلاح — ثورية بدرجة كافية ، فبينما ادخلت التعليم الاوروبى فى عدة مدارس ، أبقت (المعاهد الدينية) دون أن تمد اليها يد الاصلاح مما نتج عنه وجود ازدواجية فى الحياة الفكرية (٣) ساعدت على عرقلة الاصلاح فقد « ظل رجال الدين يتدخلون فى شئون الدولة ويعرقلون التقدم فى مختلف الميادين » (٤) .

---

(١) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢ .
(٢) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ، ص ٩٢ .
(٣) د. محمد انيس — مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٥ .
(٤) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣ .

احوال البلاد العربية فى عهد التنظيمات :

شــهد العالم العربى على عهد التنظيمات تغييرات كبيرة ، وقــد اخذت الدولة العثمانية تطبق فيه التنظيمات بدرجات متفاوتة ، فسوريا وحلب وبيروت كانت اولى الولايات التى طبقت فيها هــــذه التنظيمات تطبيقا شاملا وسريعا ، اما تطبيقها فى ولايتى البصرة وبغداد فكان اقل شمولا واقل سرعة ، واما ولايتا اليمن والحجاز فلم تشهد من التغييرات الا الشىء القليل (١) ، واما مصر التى كانت تتمتع باســــتقلال ذاتى فى شئونها الداخلية ، فكانت قد سبقت الدولة العثمانية فى الاخذ بأساليب التقدم الغربى ، وذلك بعد خروج الفرنسيين من مصر ، وتقلد محمد على زمام الحكم فيها ، وقيام الدولة الحديثة فى الربع الاول من القرن التاسع عشر .

ويهمنا الآن ان نلقى الضوء بسرعة على تلك التغييرات أو الآثار التى شملت البلاد العربية على عهد التنظيمات .

اولا — قضت التنظيمات العثمانية على النظم الاقطاعية العثمانية فى البلاد العربية ، تلك النظم التى تمثلت فى الاقطاع العسكرى (الزعامات — التيمارات — الخاصات) وفى نظام الالتزام ، كما حــددت ســلطات الولاة ، وقد حل محل هذه النظم الاقطاعية نظام الحــكم المركزى الذى اقتبس من النظم الفرنسية ، ولكن الدولة العثمانية قد غالت فى المركزية فانتقلت من الافراط الى التفريط (٢) ، وكان من الطبيعى أن تقوم الدولة باعادة تنظيم الولايات العربية الخاضعة لها على اساس المركزية ،ولكن على الرغم من الاصلاحات التى قام بها مدحت باشا فى العـــراق (٣) لم يحــرز النظام المركزى نجاحا كبيرا فيه نظــرا لصــعوبة المواصــلات والخصومات المحتدمة بين الشيعة والسنة ، ونفور الموظفين الاتراك من الخدمة فى العراق لظروفه المناخية ، كما فشلت الدولة ايضا فى تحقيق

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ، ص ٩٤ .

(٣) قسم العراق فى عهد التنظيمات الى ثلاث ولايات : ولاية بغداد القديمة التى ظلت فى وضع شبه مستقل على يد أسرة المماليك حتى سنة ١٨٢١ م ، وولاية الموصل التى انشئت سنة ١٨٧٩ م ، وولاية البصرة التى انشئت عام ١٨٨٤ م .

وقد قسمت كل ولاية الى متصرفيات ، وكل متصرفية الى عدة اقضية ، وكل قضاء الى نواحى ، وكان يحكم الولاية الوالى ، والمتصرفية المتصرف ، وهذان يعينهما السلطان ، اما الاقل مرتبة وهو القائمقام والمدير فيعينهم الوالى نفسه ، وقد طبق هذا النظام نفسه على ولايات الشام (د. محمد أنيس وزميله — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٣٠ — ١٣٤) .

النظام المركزى فى الشام الذى كانت تستشرى فيه الانقسامات الدينية : فقد كان يضم عددا كبيرا من الملل والنحل ، والمذاهب الاسلامية والمسيحية على السواء ، بالاضافة الى وجود الاقطاع المحلى الذى تركز بصفة خاصة فى الجبل ، ووجود عدد كبير من العصبيات القبلية الكردية والتركمانية والعربية ، هذا فضلا عن تأخر طرق المواصلات حيث لم يكن ببلاد الشام حتى أواخر القرن التاسع عشر ، سوى طريق واحد ممهد : يصل بين بيروت ودمشق ، وتخلف وسائل الاتصال الاخرى كالبرق والبريد ، وأما الحجاز الذى كان له تحت الحكم العثمانى صفة استقلالية. تمثلت فى نظام الشرافة ، واستمرت حتى الحكم المصرى له عقب الحروب الوهابية . هذا الحكم المصرى الذى نجح فى كسر شوكة القبائل واقام حكومة تعمل على اقرار النظام فقد عمد العثمانيون على تأكيد مركزيتهم فيه ، ففرضوا قبضتهم على شبه الجزيرة بعد خروج المصريين من الحجاز ، وذلك منذ سنة ١٨٥١ مستفيدين من النظام المصرى فى الحجاز. وقد ساعدهم على ذلك فتح قناة السويس الذى قرب المسافة بين العاصمة والحجاز ، ثم كانت سياسة عبد الحميد الاسلامية وأهتمامه بالحجاز — مركز الحرمين الشريفين — بخاصة وربطه بالشام بخط حديدى وصل الى المدينة سنة ١٩٠٨ م (١) ، أما اليمن الذى كان قد استطاع التخلص من الحكم العثمانى منذ سنة ١٦٣٥ م ، فقد ظل يتمتع باستقلاله حتى وقع من جديد فى قبضة العثمانيين سنة ١٨٧٢ م « بفضل التسهيلات التى اتاحها شق قناة السويس » (٢) .

أما مصر — التى كانت تتمتع باستقلال داخلى ضمنته تسوية ١٨٤١/٤٠ م — فقد حاولت الدولة العثمانية أن تمد يدها — عن طريق التنظيمات — اليها ، بهدف اعادتها تدريجيا الى ولاية عادية كسائر الولايات العثمانية الخاضعة مباشرة للحكم العثمانى ، وحرمانها من الوضع الجديد الذى كفلته لها تسوية ١٨٤١/٤٠ م ، فطالبت الدولة العثمانية عباس الاول — بعد فشلها مع جده محمد على — بتطبيق التنظيمات فى مصر باعتبارها ولاية عثمانية ، ولكن عباس عارض فى ذلك مستعينا بالتأييد الانجليزى ، فلم ينجح التدخل العثمانى فى مصر عن طريق التنظيمات (٣) ، ثم كانت محاولات سعيد واسماعيل لتوسيع حقوق مصر التى اكتسبتها بمقتضى تسوية ١٨٤١/٤٠ م ، والاموال التى انفقتها ، والفرمانات التى صدرت وآخرها الفرمان الشامل سنة ١٨٧٣ م ، وما

---

(١) د. محمد أنيس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢١٧ — ٢٢٢ .

(٢) جورج انطونيوس — يقظة العرب — مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٣ .

(٣) د. محمد فؤاد شكرى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٧ — ٣٥ .

اعقب ذلك من التباعد بين مصر والباب العالى ، بفضل ازدياد النفوذ الاوروبى فى عهد اسماعيل الذى انتهى بالاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ م فى عهد خلفه الخديو توفيق .

ثانيا — لم تستطع التنظيمات أن تغير مواقف كل من المسلمين والمسيحيين فى البلاد العربية تجاه الدولة العثمانية تغييرا يذكر ، فالمسلمون يعتبرون الدولة دولتهم ، فاستسلموا لحكمها لانها دولة الخلافة الاسلامية ، والمسيحيون يشعرون بأنها غريبة عنهم ، وقد استطاع الاخيرون فى ظل التنظيمات التى نظمت لهم شئون البطريركيات والمجالس الملية ، أن يترابطوا ، ويتعودوا العمل فى مؤسسات دينية وخيرية وتعليمية ، وأن يوطدوا صلتهم بالدول الاوروبية التى أخذت — خلال عهد التنظيمات بوجه خاص — تتنافس فى توسيع نفوذها فى البلاد العثمانية ، عن طريق فتح المدارس لنشر لغتها وثقافتها ؛ هذه المدارس التى كانت تجتذب — بطبيعة الحال — اطفال غير المسلمين (١).

ثالثا — انتشرت — طبقا لخطة الاصلاح — موجة المدارس العثمانية فى الولايات العربية ، وقد استفادت ولايات العراق من هذه المدارس العثمانية ، حيث افتتحت فيها المدارس الرشدية والفنية — كمدارس الصنايع — (٢) والعسكرية التى ظهرت آثارها بشكل واضح فى الحياة العراقية فيما بعد . أما اليمن والحجاز فلم تنشأ فيهما مدارس عثمانية ، وظلت هذه البلاد تنهل فى ثقافتها من المدارس الاسلامية التقليدية . وأما ولايات الشام ، فكانت خلال عهد التنظيمات مجالا فسيحا لنشاط الجمعيات التنصيرية الكاثوليكية والبروتستانتية ، التى تسابقت فى افتتاح المدارس التى أصبحت موئلا لتعليم الادب العربى واللغة العربية، الامر الذى كان له أثره فى انتشار تعليم الادب العربى بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين ، وفى اتجاه بلاد الشام عامة ولبنان بوجه خاص نحو الثقافة الاوروبية (٣) ، والسبب فى ذلك يرجع الى أن لغة التعليم فى المدارس الحكومية كانت اللغة التركية هذا من جهة ، وأن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم ، وذلك نتيجة عدم الترابط بينهم بعكس الطوائف الاخرى من جهة أخرى (٤) ، وأما مصر فكانت قد قطعت شوطا بعيدا فى النهضة التعليمية منذ عهد محمد على .

---

(١) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٩٤ — ٩٥ .
(٢) د. عبد العزيز سليمان نوار — تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا — دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص٤٨ .
(٣) د. محمد انيس مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٦ .
(٤) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ص ص ٩٤ — ٩٥ .

تدهور الدولة العثمانية فى عهد التنظيمات :

بعد ان تعرضنا للتنظيمات العثمانية ، والتغييرات التى طرأت على البلاد العربية فى ظلها ، نستطيع ان نقول ان هذه التنظيمات لم تثمر ثمرتها المرجوة ، فلم تقنع الدول الاوروبية بعدم تدخلها فى شئون الدولة العثمانية ، ولم تحقق المركزية التى كانت تبتغيها ، ولم تنهض بالدولة العثمانية لتقف فى مصاف الدول المتقدمة ، بل اسوأ من ذلك تفاقم التدهور ، وذلك عندما تدهورت ماليتها فى عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦ م) الذى اشتهر باسرافه وبذخه ، فتوالت الديون على الدولة العثمانية ، حتى ان الباب العالى ، اضطر فى اكتوبر سنة ١٨٧٥ م أن يخصص ميزانية الدولة لتسديد الديون ، كما خسرت الدولة فى عهده اكثر ممتلكاتها فى البلقان ، فعلى الرغم من تمكن القوات العثمانية من اخماد ثورة الجبل الاسود والبوسنة والهرسك والصرب وكريت فقد خسرت هذه المقاطعات ، كذلك اتحدت ولايتا الافلاق والبغدان لتشكلا دولة رومانيا الحالية ، ولم تكن حال الولايات العربية بأفضل من ذلك ، فقد اشتد التدخل الاجنبى فى شئون مصر وتونس بعد أن ازدادت ديونهما ، واخذت فرنسا ترنو الى تونس بعد ابتلاعها الجزائر سنة ١٨٣٠ م ، وكذلك ازداد النفوذ الفرنسى فى لبنان وغيرها من الاقطار السورية ، ونالت الشركات الفرنسية امتيازات عديدة فى تلك البلاد (١) .

ومضت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد العزيز فى تدهور مستمر لا تجد من يوليها العلاج الحاسم الناجع ، خاصة بعد أن استمرت فى عقدها للقروض ، حتى عجزت الدولة عن سداد الديون المستحقة عليها فى مواعيدها ، واعلن فى السادس من أكوبر سنة ١٨٧٥ عن افلاس الدولة العثمانية ، وبادرت الدول الاوروبية الى التدخل حفاظا على حقوق دائنيها ، فتشكل مجلس للدين العام ، ضم ممثلين عن بريطانيا وفرنسا والنمسا وايطاليا والمانيا والدولة العثمانية (٢) .

ويرجع بعض الباحثين هذا التدهور المالى والسياسى فى الدولة العثمانية الى « السلطان المبذر المتبذل عبد العزيز الذى جمد الاصلاحات التى قام بها سلفه عبد المجيد ، ولم يهتم الا بالانغماس فى

---

(١) عبد الكريم غرايبة — مرجع سبق ذكره ص ص ٣٤ — ٣٥ .
(٢) المرجع السابق — ص ٣٦ .

شهواته الخاصة » (١) ؛ كما أنه تورط فى الديون بشكل كبير شأنه فى ذلك شأن الخديو اسماعيل ؛ وقد زار السلطان عبد العزيز مصر سنة ١٨٦٣م ، كما زار باريس سنة ١٨٦٧ م واقام القصـــور الفخمة (٢) ، ثم كان أن اشتعلت نيران الثورة البلغارية فى أول مايو ١٨٧٦ م ، وتعرض المسلمون فيها لمذابح ، اثارت طلاب المدارس الدينية فى استانبول ؛ وقد قمعت هذه الثورة قمعا عنيفا أثار عاصفة من الاحتجاج فى أوروبا ، وانتهى الامر بخلع السلطان عبد العزيز فى ١٠ مايو (آيار) سنة ١٨٧٦ م ليخلفه ابن أخيه مراد الخامس الذى كان مصابا بصرع لا يرجى شفاؤه ؛ فخلع وبويع أخوه عبد الحميد باسم السلطان عبد الحميد الثانى فى ٣١ اغسطس (آب) ســـنة ١٨٧٦ م (٣) .

بعض مظاهر الاصلاح فى تلك الفترة :

على اننا — بعد أن تعرضنا لتدهور الدولة العثمانية فى عهـــد التنظيمات — يجدر بنا لكى نضع الامور فى نصابها أن نلقى بعض الضوء على مظاهر الاصلاح فى تلك الفترة .

فالحق أن الدولة العثمانية رغم ما أصابها من تدهور فى تلك الفترة — عهد التنظيمات — الا أنها شهدت بعض ثمار الحركة الاصلاحية ، اذ نظم التعليم وأنشئت المدارس المختلفة ، كما نظم القضـــاء ، ووضعت قوانين جديدة ، كقانون الجزاء المبنى على قانون الجزاء الفرنسى ، كمـــا انشئت محكمة خاصة عرفت « بمجلس الاحكام العدلية سنة ١٨٤٠ م » للنظر فى الدعاوى التى تتام ضد كبار الموظفين فى الدولة ، وفى ســـنة ١٨٥٠ م صدر قانون التجارة ، وفى سنة ١٨٦١ م انشئت محاكم تجارية لتنفيذ أحكام هذا القانون ، كما صدر قانون الجنسية سنة ١٨٦٩ ، وفى نفس السنة دونت أحكام القانون المدنى فى مجلد واحد ، واطلق عليـــه مجلة الاحكام العدلية (٤) ؛ هذا فضلا عما ذكرته من تنظيم التجنيد والادارة والضرائب ، والحد من سلطة الولاة ، والقضاء على امتيازات الطـــوائف والهيئات والعصبيات ، وتحديد سلطات واختصاصات كبار الموظفين ، وتأكيد سلطات الدولة فى جميـــع أنحاء ولاياتها ، بجعلها أكثـــر ارتباطا

---

(١) د. أرنست ا. رامزور — تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ — ترجمة د. صالح أحمد العلى ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٣٩ .
، انظر جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٢٧ .
(٢) عبد الكريم غرايبة — مرجع سبق ذكره ص ٣٦ .
(٣) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٢٧ — ١٢٨ .
(٤) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ص ص ٣٥ — ٣٦ .

بالحكومة المركزية . فقويت بذلك قبضة العثمانيين على ما تحت أيديهم من البلاد العربية ، كما أقيم فى كل ولاية قوات من الجنود العثمانيين الجدد المدربين على الاساليب والاسلحة الحديثة ، ونظمت رواتبهم بحيث يسهل ضبطها ، فلا تكون مبعثا للفتن والاعتداءات على الاهالى ، كما كان حال جنود الحاميات العثمانية فى الفترة السابقة .

موقف البلاد العربية من حركات الاصلاح العثمانية :

كان الاتراك العثمانيون يعتبرون أن تقوية قبضتهم على البلاد العربية التى يحكمونها ، أول شرط لتنفيذ الاصلاح ، ومن ثم وجهوا اهتمامهم لتدعيم نظام المركزية الشديدة ، وفى الوقت ذاته كان العرب ينظرون الى الاصلاح نظرة أخرى ، فالاصلاح الحقيقى عندهم ، يتمثل فى احياء الروح الوطنية ، وبعث الوعى القومى . واظهار أمجاد العرب ، واحياء التراث العربى فى مختلف العلوم والفنون والآداب ، كما أن الاصلاح عندهم ينبغى أن يتجه الى تحسين أحوال الناس المعيشية وانعاش أحوالهم الاقتصادية ، وكف أيدى الموظفين الاتراك عن التعسف والبطش بهم ، وكذلك اصدار دستور يقيد استبداد الحكومة ويمنح الشعب حريته ، ويجعله مهيمنا على تصرفاتها ، مالكا لزمام أمره ، فاذا ما قامت الدولة بهذا كله استطاعت ان تكسب ثقة الشعوب العربية ، وأن تجمع القلوب حولها ، وأن تعبىء قواهم المادية والروحية لمواجهة الضغوط والاعتداءات الاوروبية .

ومن الجدير بالذكر أن الحركة الثورية التى قامت على عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، لم تكن قاصرة على أحرار الترك ، وانما كان الى جانبهم عدد كبير من الاحرار العرب ، وقد عطف عليها لفيف من كبار الكتاب العرب وصحفييهم من أمثال الثائر عبد الحمن الكواكبى ، وخليل غانم ، وسليم سركيس ، وغيرهم كثيرون ، وقد اتجه الادب العربى الى المطالبة بالاصلاح وشكلت الجمعيات ، وقامت نهضة أدبية لم تلبث أن تحولت الى نهضة سياسية كما سنرى .

على أن العرب سرعان ما خابت آمالهم فى الاصلاح على الطريقة التركية ، فمهد ذلك لفساد العلاقات بين العرب والاتراك ، على الرغم من محاولة السلطان عبد الحميد (سنة ١٨٧٦ — ١٩٠٨) جمع الشعوب العثمانية من ترك والبان وكرد وعرب تحت لواء الجامعة الاسلامية .

العوامل التى عطلت حركة الاصلاح فى الدولة العثمانية

تتلخص هذه العوامل فيما يلى :

أولا — ان السلاطين أنفسهم رغبوا عن السير فى حركة الاصلاح حتى تبلغ غايتها الطبيعية ، وهى اقرار العدل بين الدولة ورعاياها على اساس جديد ، قوامه اشتراك الشعب فى حكم البلاد ، لان ذلك لا يتفق وحرصهم على الحكم المطلق والمركزية الشديدة التى طالما طالب مدحت باشا — الذى تولى ولاية بغداد ثم سوريا ، ولاحظ بنفسه اضرار نظام المركزية — بالاقلاع عنها الى نوع من اللامركزية (١) .

ثانيا — تمسك العناصر الرجعية فى الدولة العثمانية ، بما كانت تعتبره حقوقا مكتسبة ، مثل العلماء الذين ضاقوا بقوانين المساواة الجديدة ، وبمنشآت التعليم المدنى ، وعدوا ذلك كله خرقا للدين ، بل عدوا التنظيمات كلها بدعة فرضها الاوربيون على الدولة فرضا — كما سبق أن اشرنا — ، ولم يقتصر الامر على العناصر الرجعية ، بل أتت المعارضة أيضا من بعض المثقفين الذين لم يعترضوا مبدئيا على الاصلاحات ، الا انها كانت فى نظرهم مستحيلة التطبيق فى دولة كالدولة العثمانية ، بدعوى أنها تعطى فرصا جديدة لتدخل الدول الاوروبية بما تمنحه من حرية جديدة للشعوب المحكومة ، تتيح لها أن تقوى وتثور ، ولذلك كان من الافضل — فى نظرهم — الابقاء على القديم ، على ان يطهرمن الفساد والجمود ، ريثما يتم التغيير البطىء فى المشاعر، ذلك التغيير الذى يجعل من الممكن احداث مؤسسات جديدة بدون اضرار ، وهذا كان رأى احمد وفيق الذى يقول : « ان محاولة ادخال مؤسسات أوربية بالجملة الى تركيا ، وتلقيح النظام التركى السياسى التقليدى القديم بالمدنية الاوروبية ، قبل أن يكون مهيئا لمثل هذا التجديد الحاسم ، لا يمكن ان تنجح ، بل لا بد لها من أن تضعف الدولة العثمانية اضعافا يفقدها القوة الضئيلة والاستقلال اللذين تبقيا لها » (٢) .

ثالثا — المصاعب المالية التى حلت بالدولة نتيجة لاختلال النظم ، وسوء جباية الضرائب ، وعجز الدولة عن فرض ضرائب جمركية جديدة

---

(١) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ، ص ٩٤ ، د. حسين مؤنس — الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، ص ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

(٢) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٦٨ — ٦٩ ، أنظر حسين مؤنس — مرجع سبق ذكره ص ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

والبضائع الاجنبية ، بدون فرض ضرائب عليها ، لحماية الانتاج المحلى بمقتضى معاهدة « بلطة ليمان » المعقودة بين الدولة العثمانية وبريطانيا فى ١٦ أغسطس سنة ١٨٣٨م ، مما نتج عنه كساد الانتاج المحلى ، وتدهور الصناعات الوطنية ، واختلال الميزان التجارى (١) ، هذا بالاضافة الى سفه بعض السلاطين وتبذيرهم ، وقد حاول السلاطين — وخاصة السلطان عبد العزيز — معالجة هذه الازمة المالية بأسوأ وسيلة فى ذلك العصر ، وهى وسيلة الاقتراض من الدول والاسواق المالية الاوروبية ، فحملوا الدولة عبئا كبيرا من القروض ، فزادت المالية سوءا، واضطرت الحكومة العثمانية الى قبول رقابة مالية أجنبية عليها ، مما أفسح المجال للتدخل السياسى .

رابعا — الثورات المتتالية للشعوب المسيحية التابعة للدولة كالبلغار والصرب والكريتيين ومسيحى لبنان ، هذه الثورات التى اجهدت الدولة ماليا وبشريا ، الامر الذى عرقل جهودها فى النواحى الاخرى ، والتى اتاحت الفرصة لتدخل الدول الاجنبية فى شئونها .

خامسا — اشتداد الضغط الاوروبى على الدولة العثمانية وولاياتها، فمما يلفت النظر ، أن عهد الاصلاح والتنظيمات الذى شهد محاولة تقوية سلطان الدولة العثمانية فى ولاياتها هو ذات العهد الذى شهد كذلك اشتداد أطماع الدول الاوروبية فى ولايات الدولة ، وسعيها لنيل الامتيازات ، وتدخلها لتأييد بعض الطوائف ، مما أضعف مكانة الدولة وهيبتها .

وهكذا يمكن القول أن أوربا نفسها لم تعط الفرصة للدولة العثمانية لمتابعة حركات الاصلاح ، بل انها حرصت على تعطيلها حتى لا تصبح الدولة العثمانية قوية ، وبذلك يسهل الانقضاض على ممتلكاتها (١) .

---

(١) عبد الكريم غرايبة — مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢ .
(٢) حسين مؤنس — مرجع سبق ذكره ص ٢٦١ .

الفصل الثامن

العصر الحميدى

يطلق الباحثون على الفترة الممتدة منذ سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٩٠٩ عند خلع السلطان عبد الحميد على ايدى جماعة الاتحاد والترقى — يطلقون عليها عهد المشروطية الاولى ، أو العصر الحميدى نظرا لان هذه الفترة هى فترة حكم السلطان عبد الحميد الثانى .

ويجدير بالذكر أن رجال التشريح فى الدولد العثمانية استعملوا تعبير المشروطية للدلالة على النظام الدستورى والحياة الدستورية ، كما اطلقوا على الدستور لفظ القانون الاساسى ، وقد استخدم لفظ المشروطية للدلالة على أن القضاء على نظام الحكم المطلق الذى كان قائما حتى ذلك الحين انما يكون بجعل حكم السلطان « مشروطا » بمراعاة القيود المقررة فى القانون الاساسى (الدستور) (١) .

دستور عام ١٨٧٦ :

ويرجع الفضل فى اصدار دستور سنة ١٨٧٦ الى مدحت باشا (٢) حتى أن البعض ينسبه اليه (٣) ، وهذه حقيقة ، فقد كان الدستور فى أصله من وضع مدحت باشا نفسه ، ولذلك كان يحمل طابع افكاره الحرة التى كان أساسها الاعتقاد أن كبح جماح سلطة السلطان المطلقة أمر لا مفر منه لخير الامبراطورية وبقائها ، وأن المساواة فى المعاملة بين الاجناس المختلفة الخاضعة للدولة أمر أساسى لا مفر منه أيضا ، لضمان تأييد هذه العناصر للحكم الدستورى (٤) .

---

(١) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٧٤ — ٧٥ ، ٩٧ .

(٢) احد عظماء رجال الدولة الاتراك فى العصر الحديث ، ولد فى استانبول سنة١٨٢٢ وتولى مناصب ادارية مختلفة الى ان اصبح وهو فى الاربعين من عمره واليا على بلغاريا ، ثم الدانوب ، ثم بغداد سنة ١٨٦٨ ، وقد اثبت فى جميع هذه المناصب أنه ادارى موهوب وسياسى وطنى مستنير ، وتولى منصب الصدر الاعظم سنة ١٨٧٣ ، ولكنه وجد من المحال ان يجمع بين خدمة السلطان عبد العزيز والمحافظة على كرامته فاعتزل العمل الحكومى ، وانضم الى جماعة السياسيين من رجال الدولة الذين عملوا على خلع عبد العزيز ومن بعده مراد الخامس .

(جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره . هامش ص ١٢٩) .

(٣) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ٥٣ .

(٤) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ١٣٠ .

اما الظروف والملابسات التى احاطت ، والتى حملت السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ — ١٩٠٩) على اصدار هذا الدستور فكانت كما يلى :

اولا — الازمة المالية المستحكمة ، حيث الخزانة العامة خاوية ، والميزانية مختلة تعانى من العجز مما دفع الدولة الى اعلان افلاسها وما ترتب على ذلك من سخط عام لدى الجماهير .

ثانيا — ضغط رجال الاصلاح العثمانيين وعلى رأسهم مدحت باشا الذين نجحوا فى عزل كل من السلطان عبد العزيز والسلطان مراد الخامس ، وفى تولية عبد الحميد الثانى عرش السلطنة شريطة اصدار الدستور .

ثالثا — اشتعال الحركة الوطنية فى الصرب وبلغاريا التى شهدت أفظع المذابح مما دفع روسيا الى التهديد بالتدخل العسكرى ضد الدولة دفاعا عن شعوب البلقان .

رابعا — تصميم الدول الاوربية على فرض الاصلاحات على الدولة العثمانية ، حيث عقد مؤتمر الاستانة (٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦) الذى يضم ممثلوا الدول الكبرى لوضع المقترحات التى تكفل اصلاح الحكم فى الدولة (١) .

وامام هذه الظروف وتحت ضغط جماعة الاصلاح بزعامة مدحت باشا اصدر السلطان عبد الحميد الثانى — وكان قد عين مدحت باشا صدرا اعظم فى ١٨ ديسمبر ١٨٧٦ — دستور سنة ١٨٧٦ (القانون الاساسى) بعد أن عدل بعض بنوده ، فى نفس اليوم الذى عقد فيه مؤتمر الآستانة السالف الذكر ، محققا بذلك هدفين اثنين « فقد خدع رعاياه فأحسنوا الظن بنواياه الطيبة ، كما فوت الفرصة على المؤتمر الاوروبى فلم يسمع أحد صوته » (٢) حيث لم يعد هناك ضرورة لاجتماعه ، اذ « بدت الامبراطورية العثمانية سائرة على النهج الذى سنه لها حزب

---

(١) د. ارنست رامزور — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٤٢ — ٤٣ .
، بيير رنوفان — تاريخ العلاقات الدولية (١٨١٥ — ١٩١٤) ترجمة د. جلال يحيى ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ ، ص ص ٥٤٦ — ٥٤٩ .
(٢) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ١٢٩ ، وانظر بيير رنوفان — مرجع سبق ذكره ص ٥٤٩ .

الاصلاح » (١) ، وقد وضع الدستور موضع التنفيذ حيث جرت انتخابات عامة اسفرت عن انتخاب مجلس النواب الذى كان يسمى « مجلس المبعوثان » باعتبار ان النائب مبعوث عن دائرته الانتخابية ، وكان احمد وفيق باشا أول رئيس منتخب لهذا المجلس ، كما شكل مجلس الشيوخ الذى كان يسمى « مجلس الاعيان » ، وهذا الاخير لم يكن بالانتخاب ، وانما بالتعيين، كما نص الدستور ايضا على المسئولية الوزارية أمامهذين المجلسين (٢) ، وقد اشترك فى الانتخابات أهالى الولايات العربية . وكان لبعض النواب العرب دور بارز خلال المناقشات البرلمانية (٣) ، التى كانت — على الرغم من عدم توفر الحرية الانتخابية مما نتج عنه انتخاب بعض النواب الذين لا يتكلمون التركية ولا يعرفون نظام المناقشات البرلمانية — كانت هذه المناقشات على الرغم من ذلك مناقشات جادة ومثيرة « عرضت فيها الآراء السياسية ، وانتقد الوزراء وموظفو البلاط، لا بل ظهر خلالها الى الوجود فئة معارضة » (٤) .

هذا وقد اعتقد مدحت باشا ورفاقه ان الامبراطورية العثمانية قد بدأت تنهض من كبوتها بفضل هذا الدستور الذى انقذها من الحكم المطلق، وحقق المساواة فى المعاملة بين الرعايا على اختلاف أجناسهم ودياناتهم ، الامر الذى يساعد على خلق راى عام مستنير يستطيع الوقوف فى وجه التدخل الاجنبى فى الشئون الداخلية للامبراطورية ، ولكن الاحداث اثبتت ان السخط الذى كان سائدا بين الشعوب الخاضعة للدولة لم يكن مرجعه طغيان الحكم وفساده فحسب ، بل كان ايضا مظهرا لنمو الوعى القومى ، وذلك ما لم يفطن اليه مدحت باشا ، كما ان هذا الدستور — ولو انه قيد سلطة السلطان الى حد ما — فلم يكن ذلك بالقدر الذى استهدفه مدحت (٥) .

وايا ما كان الامر فان عهد الحياة الدستورية لم يعمر طويلا ، فقد انتكس على عقبيه بعد فترة قصيرة من اعلان الدستور ، وذلك لان السلطان عبد الحميد لم يصدر الدستور ايمانا به ، أو رغبة فى حكم بلاده حكما دستوريا ، وانما فرضته عليه الظروف المحيطة به ، فقد اراد ان يفسد خطة التدخل الاوربى فى شئونه ، الى جانب استمالة رعاياه

---

(١) رامزور — مرجع سبق ذكره ص ٤٤ .
(٢) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ص ١٣٣ .
(٣) ساطع الحصرى — رمجع سبق ذكره ص ٩٨ .
(٤) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ص ١٣٣ .
(٥) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ١٣٠ .

الاحرار حتى يشتد ساعده ، وتتاح له الفرصة للقضـــاء على الحركة التقدمية ، وقد حقق الهدفين « اذ أصبح مطمح انظار شعبه ، وانفض المؤتمر مخفقا بعد أن تزعزع خاله » (١) ولذلك فانه سرعان ماضاق ذرعا بالحياة النيابية بعد أن استنفذت أغراضها ، واطمأن عـلى عرشـه ، لا سيما وقد قويت المعارضة فى مجلس المبعوثان و « تمادت فى جـراتها واخذت تسمى الوزراء الذين لم تثق فيهم بأسمائهم ، وتطالب بمحـاكمة رئيس الوزراء السابق ، وكبار القواد الذين اثبتوا عجزهم فى أثناء الحرب الاخيرة مع روسيا (٢) ؛ ولم تقتصر المعارضة على انتقاد واتهام الحكومة والوزارة « بل تعدتها الى مهاجمة السلطان نفسه » (٣) .

وجدير بالذكر ان كثيرا من زعماء المعارضة كانوا من العرب رغم ان معارضتهم لم تكن قائمة على أساس الدفاع عن حقوق العرب ، ذلك أنه لم يكن قد ظهر بعد الى الوجود ما يسمى بالقضية العربية ، بل كانت معارضتهم دفاعا عن مصلحة الدولة العثمانية (٤) .

وازاء هذا الموقف الجديد — تحقق عبد الحميد لاهدافه من اصدار الدستور ، واشتداد المعارضة البرلمانية — عقد السلطان عبد الحميـد العزم على تعطيل الدستور والاطاحة بالحياة النيابية ، ولكن مدحت باشا كان هو العقبة الوحيدة الهامة الباقية فى طريقه فعزله فجأة ودون ضجة فى ٥ فبراير ١٨٧٧ ، ثم نفاه الى أوربا . « لان عبد الحميد لم يكن مستعدا للاحتفاظ بالرجل الذى خلع سلطانين » (٥) (عبدالعزيز ومراد الخامس) ، وبعد مدة سمح لمدحت باشا بالعودة الى البلاد حيث عينـه واليا عـلى سوريا ثم أزمير ، الا انه أوقفه بعد ذلك متهما اياه بقتل السلطان عبـد العزيز الذى انتحر فى الواقع بعد خلعه بقليل ، فحكم على مدحت بالاعدام، ثم خفف هذا الحكم — نتيجة تدخل السـفراء الاجانب — الى النفى فى الحجاز حيث قتل هناك بعد مدة شر قتلة ، فماتت بموته أول حـركة دسـتورية (٦) .

---

(١) المرجع السابق نفس المكان ،
، وانظر رنوفان — مرجع سبق ذكره ص ٥٤٩ .
(٢) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ص ١٣٣ .
(٣) توفيق برو — مرجع سبق ذكره ص ٣٠ .
(٤) المرجع السابق نفس المكان .
(٥) رامزور — مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤ .
(٦) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٤ ، ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكـره ص ٩٨ .

والواقع ان بعض الدول الاوربية قد اسهمت بطريق غير مباشر فى الانقلاب الحميدى الرجعى ، ذلك انه بعد ان افتتح السلطان عبدالحميد البرلمان الجديد فى اوائل شهر مارس ١٨٧٧ والقى خطاب العرش الذى كان يفيض بالفصاحة (١) اعلنت روسيا الحرب على تركيا فى ٢٤ ابريل مبررة ذلك بأنها فقدت الامل فى الحصول على الاصلاحات المنشودة بالطرق السلمية ، والواقع انها كانت تتحين الفرصة دائما لتحقيق مطامعها التاريخية فى القسطنطينية التى تقدمت الجيوش الروسية حتى وصلت الى مشارفها ، حينئذ اقدم السلطان عبد الحميد على تعطيل الدستور ، فكانت « الحرب الروسية نعمة من الله لانها يسرت له عذرا لتعطيل البرلمان » (٢) الى أجل غير مسمى ، حيث لم يلغ ، ولكنه لم يدع الى الاجتماع بعد ذلك ، فظل الدستور معلقا والحياة الدستورية معطلة مدة تزيد على ثلاثين عاما حتى سنة ١٩٠٨ ، وتفرق النواب عائدين الى بلادهم ، ونفى عشرة من زعماء المعارضة الى مناطق نائية (٣) .

وجدير بالذكر ان هذا العمل من عبد الحميد لم ينتج عنه أى رد فعل فى الامبراطورية ، ذلك « ان الحياة الدستورية لم تكن مدعومة برأى عام واع ، ولا بطبقة قوية من المستنيرين » (٤) بل كانت ثمار جهود جماعة الاصلاح وعلى راسهم مدحت باشا — الذى عصف السلطان بحريته قبل عصفه بالدستور كما راينا .

على ان الحرب التركية — الروسية قد انتهت بوصول الجيوش الروسية الى ضواحى الآستانة وفرض معاهدة سان ستيفانو (مارس ١٨٧٨) بشروطها القاسية على السلطان ، هذه الشروط التى نجحت انجلترا فى حمل روسيا على تعديلها فى معاهدة برلين (١٣ يوليو ١٨٧٨) التى كان لها اثر كبير على وضع الولايات الاوربية العثمانية ، ولكنها من جهة اخرى — وان كانت لم تمس الحدود الاقليمية للولايات العربية الا انها — كانت بداية لتخلى الدول الاوربية — وخاصة انجلترا — عن سياستها التقليدية المتمثلة فى المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية ، اذ بمقتضى هذه المعاهدة حصلت انجلترا على جزيرة قبرص فى مقابل

---

(١) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ١٣١ .
(٢) رامزور — مرجع سبق ذكره ص ٤٤ .
(٣) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ص ٣٢ .
، د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ٥٥ .
(٤) ساطع الحصرى — مرجع سبق ذكره ، ص ٩٨ .

السماح لفرنسا باحتلال تونس فى اقرب فرصة ممكنة (١) ، ثم توالت بعد ذلك عمليات الانقضاض على الولايات العربية الواحدة تلو الاخرى .

ولعل اهم أثر مباشر للحرب التركية — الروسية (١٨٧٧ — ١٨٧٨) على البلاد العربية هو ازدياد السخط فيها ، والتذمر الشامل بسبب ارسال القوات العربية للقتال فى ميدان بعيد عن بلادهم وفى أحوال بالغة المشقة ، وضد عدو لا يهمهم فى قليل او كثير (٢) .

وهكذا كان نجاح الحياة الدستورية قصير الاجل ، فقد أجهضت قبل ان تؤثر ثمارها وذلك لاسباب داخلية وخارجية : فقد حاول مدحت باشا ان يسن نظاما دستوريا للامبراطورية دون أن تكون هناك تقاليد دستورية ، او تجربة نيابية سابقة ، ولذلك لم يحدث اى رد فعل اثر عصف عبد الحميد بالدستور ، وفض مجلس المبعوثان لعدم وجود رأى عام واع يدعم الحياة الدستورية ، كما انه — اى مدحت — حاول ان يقيم دستورا واحدا لوحدة سياسية كبرى اقاليمها غير متجانسة ، بسبب تنوع ثقافاتها ، هذا بالاضافة الى نشاط مؤامرات الدول الاجنبية ، والعناصر الرجعية للقضاء على الحكم الدستورى (٣) .

اما السلطان عبد الحميد فقد اصبح بعد تعطيل الدستور وابرام معاهدة برلين « يشعر انه قوى لدرجة تمكنه من الاستمرار فى طريق الحكم المطلق » (٤) « فبدا عهدا من الطغيان وسوء استغلال السلطة وفسادها لم يشهد التاريخ اسوأ منه » (٥) وهو ما يطلق عليه المؤرخون والكتاب عهد الاستبداد الحميدى الذى استمر حتى سنة ١٩٠٨ م .

مظاهر الحكم المطلق فى العصر الحميدى :

يجدر بنا قبل ان نتحدث عن الحكم المطلق ومظاهره المختلفة فى عصر السلطان عبد الحميد الذى تسابق المؤرخون والكتاب فى الكتابة عنه بحماس ملحوظ حتى اطلقوا على عصره عصر الاستبداد الحميدى — أن نشير الى حقيقة هامة نسيها الكتاب او تناسوها وهى ان الحكم المطلق

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى — مرجع سبق ذكره ص ص ١٥٦ — ١٥٨ .
(٢) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ١٣١ .
(٣) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .
(٤) أونست ا. رامزور — مرجع سبق ص ٤٤ .
(٥) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ١٣١ .

الذى سار عليه عبد الحميد لم يكن من اختراعه ولم يستحدث فى عهده وانما كان نظاما سارت عليه الحكومات الشرقية بصفة عامة ، تلك الحكومات التى اتصلت انظمة الحكم فيها بالعصور الوسطى ، كما سارت عليه الدولة العثمانية طوال عهدها حيث ان انظمة الحكم فيها راسخة منذ عهد السلاطين الاول الذين اسسوا الدولة العثمانية ووضعوا قوانينها وتشريعاتها . اما ظاهرة الحكم المطلق فى عهد السلطان عبد الحميد الذى اخذ يشتد ويقوى حتى تحول آخر الامر الى حكم استبدادى قائم على الجاسوسية والضغط والارهاب كما يصفه المؤرخون فيرجع ذلك الى ان السلطان عبد الحميد قد مارس هذا الاسلوب فى الحكم فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين فى وقت ظهرت فيه الشعارات الديموقراطية ووضعت الدساتير لتقرير حقوق الشعوب حتى عرف القرن التاسع عشر — فى اصطلاح المؤرخين — بعصر القوميات .

على اننا نلمس من كتابات المؤرخين تحاملا شديدا على السلطان عبد الحميد وحكمه وكأنه كان ظاهرة فريدة فى عصره ، وقد نسى أو تناسى هؤلاء المؤرخون انه كان يوجد فى عصر السلطان عبد الحميد حكام لا يقلون عنه استبدادا وان كانت ظروفهم السياسية الداخلية والخارجية افضل من ظروفه ، فهناك شاه ايران « ناصر الدين » كان يسير على سياسة الحكم المطلق ، وقد طرد الافغانى من بلاده شر طردة حينما طالبه بالحكم الشورى وهناك قيصر روسيا الذى كان فى قمة الاستبداد .

نعم كان السلطان عبد الحميد مستبدا ولكن ظروف عصره وظروف دولته قد املت عليه انتهاج هذه السياسة فقد لخص هو نفسه الحالة فى دولته قائلا : « فى هذه البلاد بلاد الدسائس والمؤامرات ... كيف يستطيع الانسان ان يكافح وان يناضل دوما وضد كل انسان ؟ » (١) فقد كانت حكومته شر حكومات الارض رشوة وخيانة وتجسس وعمالة لشتى دول اوربا : كان بلاطه وحكومته يعجان بالعملاء لقيصر روسيا وحكومة فرنسا وحشد هائل من عملاء بريطانيا بل وايطاليا والنمسا والمانيا ، وكان فى جيشه وحاشيته وحكومته اكثر من عميل للصهيونية بل ويهود يخفون ديانتهم للتآمر ضده ، وكانت قصوره تعج بالخصيان من عملاء المخابرات الاستعمارية الذين زحفوا مضحين حتى برجولتهم ليتجسسوا على السلطان حتى يمهدوا الطريق للجيوش والاساطيل لتقتطع أجزاءا

(١) محمد جلال كشك — القومية والغزو الفكرى — دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط ٢ ، ١٩٧٠ ص ٢١١ ، د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ص٥٦

من دولته تحولها مستعمرات لهم (١) . يقول السلطان عبد الحميد : « كان يدهشني دائما أن أعلم بأن كثيرين من الاوربيين كانوا يتوسطون للحصول على الخدمة ولو حراسا للحريم ، خصوصا وانى تناولت فى أسبوع واحد ثلاث رسائل من ثلاثة كانوا على شىء كبير من الادب والتهذيب ... يريدون هذه الخدمة المستهجنة ... كان أحدهم موسيقيا فى باريس ... والثانى كيمائيا فى المانيا والثالث تاجرا فى سكسونيا ... وماذا أقول بعد ذلك عن انحطاط الاخلاق فى أوربا ... عندما أرى كثيرين منهم لا يريدون التخلى عن دينهم فحسب بل يرضون بفقدان الرجولة فى سبيل خدمة الحريم ... على حين ان هذه الخدمة تستلزم أن يكونوا خصيانا » (٢) .

فهل كان السلطان عبد الحميد الذى عرف عنه الدهاء والحنكة والسياسة والذى وصفه الافغانى بقوله : « ... رأيته يعلم دقائق الامور السياسية ومرامى الدول الغربية ... » (٣) هل كان هذا السلطان يجهل أن هؤلاء مجرد عملاء للدول الاجنبية التى تؤمن بنفوذ النساء فى القصر السلطانى ؟ ، ثم أيعاب على سلطان يواجه بمثل هذا الطوفان من الجواسيس أن يقيم هو بدوره نظاما مضادا للتجسس ؟ ومع ذلك فشكيب أرسلان يقرر أنه « ليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقارير الجواسيس كما هو شائع بل كان يرمى اكثرها ولا يصدق ما فيها » (٤) .

أما سبب تحامل المؤرخين والكتاب على السلطان عبد الحميد فبعضهم لحاجة فى نفسه والبعض الآخر انخدع بزيف الدعاية التى روج لها الاستعماريون والصهاينة بالتحالف مع جماعة الاتحاد والترقى — الذين كان بين صفوفهم ضباط يهود تظاهروا بالاسلام ثم أعلنوا يهوديتهم بعد نجاح المؤامرة وخلع السلطان (٥) — فقد أكثر هؤلاء « من اختلاق الاخبار والشائعات عن كثرة ما أصابهم من ظلم عبد الحميد : الوف القتلى والغرقى فى البوسفور ، وعشرات الالوف ازدحمت بهم سجون المملكة حتى اعتقد الناس من كثرة التكرار والترداد لهذه الشائعات فى جو خانق من

---

(١) المرجع السابق ص ص ٢١٠ — ٢١١ .
(٢) المرجع السابق هامش ص ص ٢١٠ — ٢١١ .
(٣) محمد عماره — الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى — دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٤٥ (نقلا عن خاطرات جمال الدين الافغانى) .
(٤) محمد جلال كشك — مرجع سبق ذكره — هامش ص ٢١١ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٢٥ .

ارهاب السلطان الاحمر كما لقبوه » (١) . كما لفقوا له تاريخا أسود مليئا بالاختلاقات والافتراءات درس فى المدارس والجامعات وشحنوا به الكتب المدرسية والصحف والمجلات فتناقلته الاقلام وسودت به صفحات الكتب وأصبح تاريخا يقرأ وما كل ذلك الا لان السلطان عبد الحميد رفض تسليم فلسطين للاستعمار الصهيونى (٢) فقرر الصهاينة خلعه بالتآمر مع جماعة الاتحاد والترقى ، يقول السلطان عبد الحميد : « ... ان هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا على بأن أصادق على تأسيس وطنى قومى لليهود فى الارض المقدسة (فلسطين) ورغم اصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف ، وأخيرا وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهبا فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضا وأجبتهم بهذا الجواب القطعى الآتى : انكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا — فضلا عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهبا فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعى . لقد خدمت الملة الاسلامية والامة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلن أسود صحائف المسلمين آبائى وأجدادى من السلاطين والخلفاء العثمانيين . لهذا لن اقبل تكليفكم بوجه قطعى أيضا . وبعد جوابى القطعى اتفقوا على خلعى وأبلغونى أنهم سيبعدوننى الى سلانيك فقبلت بهذا التكليف الاخير هذا وحمدت المولى وأحمده أننى لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الاسلامى بهذا العار الابدى الناشىء عن تكليفهم باقامة دولة يهودية فى الاراضى المقدسة فلسطين ... » (٣) .

---

(١) مجلة العربى — العدد ١٦٩ شوال ١٣٩٢ هـ / ديسمبر ١٩٧٢ ص ١٥٣(مقال بقلم سعيد الافغانى تحت عنوان « سبب خلع السلطان عبد الحميد ») .

(٢) كان السلطان عبد الحميد قد أصدر فرمانا فى سنة ١٨٨٨ م بمنع الهجرة الجماعية اليهودية الى اراضى الدولة العثمانية ومنها فلسطين طبعا (محمد جلال كشك — مجع سبق ذكره هامش ص ص ٢٢٤ — ٢٢٥) ثم أصدر السلطان فرمانا آخر سنة ١٩٠٠ يحدد اقامة الزائرين اليهود لفلسطين بمدة لا تتجاوز ثلاثة شهر (د. حسن صبرى الخولى — سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الاول من القرن العشرين مجلدين دار المعارف القاهرة ١٩٧٣ مج ١ ص ٨٣) .

(٣) من رسالة السلطان عبد الحميد الى الشيخ محمود أبو الشامات التى أرسلها له بعد خلعه وهو منفى بسلانيك . وهى وثيقة بخط يد السلطان عبد الحميد باللغة التركية أرسلها الى الشيخ أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية بدمشق وكان هذا الشيخ قد زار احد مريديه فى استانبول وهو راغب رضا بك مدير القصر السلطانى فعلم بوجوده عبد الحميد واستقبله وأعجب به وأخذ عليه العهد فصار السلطان من مريدى الشيخ المذكور وبعد خلع السلطان أرسل لشيخه هذه الرسالة يشرح له فيها سبب خلعه وظلت الرسالة فى طى الكتمان زمنا طويلا ثم ترجمها من التركية الى العربية الشيخ أحمد القاسمى مدير أوقاف الجمهورية السورية سابقا ثم قام الاستاذ سعيد الافغانى بتصويرها ونشرها فى مجلة العربى العدد ١٦٩ شوال ١٣٩٢ / ديسمبر ١٩٧٢ ص ص ١٥٥ — ١٥٦ تذيل بها مقاله عن سببخلع السلطان عبد الحميد .

وهكذا كانت الظروف الداخلية والخارجيــة وظروف العصر التى أملت على السلطان عبد الحميد سياسته . وهذا ليس دفاعا عن مظاهر الحكم المطلق التى اتسم بها العصر الحميدى وانما هو تقرير للواقع من جهة . ودافع لنا لدراسة الظروف التى مارس فيها عبد الحميد استبداده دراسة موضوعية من جهة اخرى .

فبعد أن عطل عبد الحميد الدستور وعصف بمجلس المبعــــوثان سارت سياسته فى اتجاهات معينة تحت ضغط ظروف الدولة الخارجية والداخلية ، فقد كان اقتراب الجيوش الروسية من مشارف العــاصمة فى الحرب السابقة قد افقده الثقة فى قوته العسكرية ، كما أن معــاهدة برلين (١٨٧٨ م) رغم تدخل انجلترا وكبحها جماح روسيا ـــ جعلتــه يدرك ان أمور الدولة ومقــدراتها قــد أصبحت رهنا بمشيئة الدول ، هذا بالاضافة الى الحالة المــالية السيئة التى وصلت اليها الدولة ، ومن ثم ـــ وازاء هذه الظروف ـــ فقد لجأ الى الديون الاجنبية التى خصص جزءا كبيرا منها لاعادة تنظيم جيشه ، كما أبدى اهتماما خاصا بالكليات العسكرية دون نواحى التعليم الاخرى (١) هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فرض على الشعب بالتدريج حكما فرديا استبداديا ليس له مثيــل حيث كانت جميع العناصر والطوائف سواسية كأسنان المشط فى التعــــرض لاستبداده وطغيانه (٢) .

ويبدو أن اتجاه عبد الحميد الى هذا الحكم المطلق انما يرجع الى خوفه على عرشه وعلى حياته شخصيا ، فقد تولى العرش بعــد خلع السلطان مراد الخامس والسلطان عبد العزيز الذى أثيرت الشكوك حول طريقة موته ، حيث يذهب البعض الى انتحاره ، بينما يرى آخرون انه كان نتيجة قتل واغتيال ، ومما يؤيد هذا الشعور لدى عبــد الحميد انه عندما اغتيل ملك الصرب منعت الرقابة جميع الصحف عن ذكر الاغتيال، وأجبرتها على نشر الوفاة على أنها طبيعية نتيجة مرض ، كما أرسلت برقيات عاجلة الى جميع الولايات لمنع الجرائد الاجنبيــة ـــ التى كانت نشرت أخبار الاغتيال بطبيعة الحال ـــ حتى لا يخطر على بال أحد من رعايا الدولة امكان اغتيال ملك من الملوك (٣) ، كما يرجع الى خوفه من انفصال بعض الولايات عن جسم الدولة نتيجة الضغط الخــارجى الذى

---

(١) جورج أنطونيوس ـــ مرجع سبق ذكره ص ص ١٣٥ ـــ ١٣٦ .
(٢) حسين لبيب ـــ تاريخ المسألة الشرقية ، القاهرة ١٩٢١ ، ص ٨٥ .
(٣) ساطع الحصرى ـــ مرجع سبق ذكره ، ص ٩٩ ـــ ١٠٠ .

تمارسه الدول الاوربية . هذا الى جانب التخوف من قيــــام الثورات الداخلية (١) .

من هذه العوامل يتضح لنا أن عبد الحميد كان يعانى من عقــدة الخوف الشديد على حياته حتى انه كان يتصور دائما أن هنـــاك من يتربص لاغتياله فتخامره الوساوس والشكوك فى المحيطين به ، فقد قال ذات يوم (٣٠ اكتوبر سنة ١٨٧٨) للملحق العسكرى فى الســـفارة الفرنسية فى الآستانة : « فى هذه البلاد ، بلاد الدسائس والمؤامرات... كيف يستطيع الانسان أن يكافح وأن يناضل دوما وضد كل انسان ؟ »(٢)، ومن ثم فقد كان عبد الحميد يرى أن بقاء حكمه متوقف على شدة تمسكه بالحكم المطلق ، وبالاستبداد وخنق الحريات ، وتشديد قبضـته عـــلى أطراف الدولة (٣) ، ولا سيما على البلاد العربية حيث زادت عدم ثقته بالعرب ، وتفاقمت الريبة بينه وبينهم خاصة أثر ظهور منشورات جمعية بيروت السرية (٤) زمن ولاية مدحت باشا على سوريا ، مما جعله يفرض على بلادهم مركزية ضيقة تمكن لقبضته الحديدية أن تسـيطر عليهم ، فسار فى سياسة ربط بلادهم بشبكة من الخطوط البرقية والحـديدية ليسهل عليه ارسال القــوات الحربية لقمــع ما قــد يقــع من ثورات وانتفاضـــات (٥) .

اما عن الوسائل والاسس التى قامت عليها سياسة عبـــد الحميد الاستبدادية فتتجلى فيما يأتى :

١ ــ نظام التجسس :

فقد اصطنع عبد الحميد شبكة قوية واسعة من الجاسوسية التى قامت بنشاط مزعج للغاية الى حد «جعل كل فرد جاسوسا على جاره »(٦)، وقد تفنن هؤلاء الجواسيس فى عملهم وكثر عددهم ، حتى أن كل واحــد من كبار رجال المابين كان رئيسا لجماعة من جماعاتهم (٧) ، وقد قويت

---

(١) د. زين نور الدين زين ــ مرجع سبق ذكره ص ٥٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٦ .
(٣) توفيق على برو ــ مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩ .
(٤) سوف نتحدث عن نشاطها بالتفصيل فيما بعد .
(٥) د. زين نور الدين زين ــ مرجع سبق ذكره ، ص ٥٦ ، ويلاحظ أنه لم يثبت أن السلطان عبد الحميد قد استخدم تلك الخطوط الحديدية التى انشئت فى عهده فى ارسال قوات اوجيوش ، كما سيأتى بيان ذلك عند التحدث عن سكة حديد الحجاز .
(٦) رامزور ــ مرجع سبق ذكره ، ص ٤٧ .
(٧) ساطع الحصرى ــ مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٠ .

شوكتهم حتى اصبحوا « يؤلفون طبقة حاكمة قوية من الاوباش الفاسدين » (١) الذين لم يسلم احد من اذاهم مهما كان بريئا ، وكان هؤلاء الجواسيس يعرفون باسم « الخفية » لانهم يتجسسون على الناس خفية ، وكانت تقاريرهم كافية لاعتقال الكثير من الاشخاص والزج بهم في السجون ليشهدوا فيها اشد أنواع التعذيب ، وكثيرا ما كان يتبع ذلك النفى خارج البلاد ، وكانت طريقتهم فى التجسس هى الاندساس بين الناس فى الشوارع والميادين والمقاهى والملاهى والمتنزهات ، والتجول في الشوارع المحيطة بالمدارس العالية ، وبقصور الامراء وبيوت بعض الرجال ، ثم يقدمون التقارير السرية عما يسمعونه او يلاحظونه من أقوال وأفعال (٢) .

والى جانب التشكيلات الجاسوسية التابعة للمابين أو السلطان رأسا كان يوجد فى العاصمة ادارة تعرف باسم « الضبطية » يقوم على راسها وزير أو ناظر ، وكانت تقوم مقام ما يعرف اليوم بادارة الامن العام الداخلى ، أو المخابرات العامة ، وكان لها موظفون سريون وعلنيون وكان السريون منهم يقومون بأعمال التجسس وكتابة التقارير فى حق من يشتبهون فى قيامهم بنشاط ضد أمن الدولة الداخلى او الخارجى ، وغالبا ما كانت تلك التقارير كاذبة ، (٣) ويروى لنا الاستاذ محمد عزه دروزه — وكان موظفا فى مكتب البرق والبريد فى نابلس ، وكان معاصرا لتلك الحقبة التاريخية — الكثير من الأمثلة على التجسس ، وما كان يحدث من تلفيق التهم ضد الابرياء للزج بهم فى السجون ، أو لنفيهم خارج بلادهم ، وذلك بغية تحقيق مآرب شخصية ، او انتقاما لعداوة ، أو حقد أو حسد (٤) .

(٢) الرقابة على الصحف والمطبوعات :

فكما اتاحت الحرب الروسية الفرصة لعبد الحميد لتعطيل الدستور ، والعصف بمجلس المبعوثان ، اتاحت له أيضا فرصة تقييد الصحافة ، وكتم انفاسها ، فأصدر أمرا بتقييد حريتها واخضاعها لرقابة صارمة ودقيقة « حتى اصبحت جسما بلا روح » (٥) فما كانت تستطيع اى جريدة

---

(١) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٥ .

(٢) ساطع الحصرى — رمجع سبق ذكره ، ص ص ١٠٠ — ١٠١ .

(٣) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ص ١٩٠ — ١٩١ ، ٢١٤ — ٢١٥ .

(٥) د. شمس الدين الرفاعى — دراسات صحفية — تاريخ الصحافة السورية — الصحافة السورية فى العهد العثمانى (١٨٠٠ — ١٩١٨) ، ج ١ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ ص ١١٨ .

« أن تنشر كلمة واحدة ولو كانت فى باب الاعلانات دون ان تحصل على موافقة الرقيب الدائم » (١) واصبحت مهمة الصحافة مقصورة على نشر كل ما يطيب للسلطان نشره من الفاظ التعظيم والتفخيم والتمجيد فى مدح عدالته الموهوبة ، وذلك على الرغم من ظلمه واستبداده وسوء ادارته (٢). ولم يكتف السلطان بذلك ، بل فرض حظرا دقيقا على دخــول الصحف العربية وغير العربية التى تصدر فى مصر واوربا وأمريكا الى بلاد الدولة لانتقادها الحكم الاستبدادى الذى تسير عليه ، أو لنشرها أخبـارا أو مقالات من شأنها اثارة وعى الجماهير ، وقد ذكر الاســتاذ محمــد عزه دروزه أنه ـــ اثناء عمله فى دائرة بريد نابلس قبل اعلان دستور ١٩٠٨ ـــ كان يتلقى يوميا نشرات برقية باسماء الصحف والمجلات العــربية وغير العربية التى يجب منع توزيعها (٣) . كما شملت الرقابة أيضا الكتب وكل أنواع المطبوعات، فكان يتحتم على كل مؤلف ان يرسل مسودات كتــابه الى لجنة تسمى « لجنة تدقيق المؤلفات » ليحصل منها على رخصة خطية لمــا يريد طبعه ، وكثيرا ما كانت أعمال هذه اللجنة ومراجعتها للكتاب أو المقال يستغرق شهورا عدة ، ان لم تناهز السنة الكاملة ، وكان المراقبون والمدققون يغالون فى البحث والتدقيق مغالاة شديدة ، لانهم كانوا يحسبون حسابا لابعد الاحتمالات واغرب التأويلات ، بل كانت هذه الرقابة تمتــد الى ما بعد الطبع حتى لا تترك فرصة لادنى اختلاف بين النص المرخص، والنص المطبوع ، وكثيرا ما « عطلت جرائد وصودرت كتب لسهو مطبعى بسـيط ، لا يتعدى سقوط حرف واحد ، أو زيادة حرف واحد فى كلمـــة واحدة ، وذلك لان المدققين توهموا أن ذلك قد يفسح مجالا لتــأويلات ســــيئة » (٤) .

اما عن الآثار المترتبة على هذه الجهود والاتجاهات الاستبدادية ، فقد بدت واضحة جلية فى جهاز الدولة العام وماليتها : فقد فســـد جهاز الدولة ، واصيب بالخلل والانهيار حيث لم تعد الاســـتقامة او الكفاءة سبيلا الى الترقى فى الوظائف ، بل اصبح التملق والنفاق والمهـــارة فى التجسس وفى جمع الاخبار أو تلفيقها هو السبيل الى الوصول الى كراسى الحكم ، وبذلك انتقلت معظم المراكز الرئيسية فى عاصمة الدولة الى ايدى المرتشين والجشعين ، فأصبحت بعض الدوائر والوزارات أســـواقا سوداء تباع وتشترى فيها الوظـــائف والرتب والاوســـمة على ايدى

---

(١) ساطع الحصرى ـــ مرجع سبق ذكره ص ١٠١ .

(٢) د. شمس الدين الرفاعى ـــ مرجع سبق ذكره ص ص ١١٨ ـــ ١١٩ .

(٣) محمد عزه دروزه ـــ مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٤ .

(٤) ساطع الحصرى ـــ مرجع سبق ذكره ، ص ١٠١ .

السماسرة والوسطاء ، كما ساءت حالة البلاد المالية نتيجة نفقات القصر ونفقات جيش العاصمة الخاص بحمايتها ، ونفقات شبكة الجاسوسية التى انتشرت بشكل مخيف ، الى جانب جيوش الموظفين الذين عينوا بدون حاجة اليهم ، اما مكافاة على خدماتهم التجسسية للسلطان ، أو مقابل رشاوى للوزراء او رجال القصر ، او بواسطة السماسرة السريين، الامر الذى ارهق ميزانية الدولة ، وبالتالى ميزانية الولايات التى كانت تضطر الى تقديم مرتبات العاصمة على أى شىء آخر (١) . وهكذا أدى الاستبداد الحميدى الى استشراء الفساد فى جميع الامور والميادين .

٣ — ضرب القوميات والطوائف بعضها ببعض :

ومن الوسائل التى لجأ اليها السلطان عبد الحميد لفرض مركزيته واستبداده على اطراف الدولة هى : تعمده أن يضرب القوميات والطوائف بعضها ببعض ، وأن يستخدم بعض العناصر ضد البعض الآخر ، فنراه يستعين بالجنود العرب فى قمع ثورة الالبان ، واخضاع الاكراد ، وبالاكراد يذبح الارمن ، وبهؤلاء يثير الفتن بين العرب للقضاء على ثوراتهم كما اتبع نفس الاسلوب فى ضرب العرب بعضهم ببعض ، اذ كان يؤيد فئة ضد أخرى ، كما فعل أثناء الصراع بين ابن سعود أمير نجد وابن الرشيد أمير حائل ، فكان عبد الحميد يعين الثانى على الاول الى أن كانت الموقعة الاخيرة سنة ١٩٠٦ التى دارت بين الاميرين ، وقتل فيها ابن الرشيد ، واحتل خصمه بلاده عدا منطقة حائل (٢) .

٤ — استغلال ما بين الدول الكبرى من تنافس :

يرى بعض الباحثين أن السلطان عبد الحميد — بعد أن وضع أسس سياسته المركزية وحكمه الاستبدادى — اعتمد فى تدعيم هذه الاسس وتلك السياسة على مهارته فى استغلال « ما بين الدول الكبرى من خصومات وتنافس » (٣) ، ولكن الحقيقة أن هذه المصالح المتعارضة للدول الاوربية كانت أمرا واقعا ، « فلم تكن بريطانيا بحاجة الى أن يستثيرها عبد الحميد بوجه المطامح الروسية فى المضايق » (٤) وانما

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٠١ — ١٠٣ ، وانظر محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٠٩ — ٢١٠ .
(٢) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ص ص ٣٢ — ٣٣ .
(٣) جورج أنطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٥ .
(٤) وامزور — مرجع سبق ذكره ، ص ٤٧ .

الامر — فى اعتقادى — كان يتوقف على استراتيجية كل دولة من هـذه الدول الكبرى وخططها السياسية تجاه الدولة العثمانية ، وعلى سبيل المثال : لقد التزمت الدول الاوربية — وخاصة انجلترا — خلال القـرن التاسع عشر الى سنة ١٨٧٨ سياسة معينة تجاه الدولة العثمانية ، وقد تمثلت هذه السياسة فى ضرورة المحافظة على ممتلـكات تلك الدولة من التجزؤ والوقوع تحت سيطرة اية قوة اجنبية ، ولكننا نجد أن هذه الدول نفسها تخلت عن هذه السياسة منذ مؤتمر برلين (١٨٧٨) الذى عقد فى عهد السلطان عبد الحميد ، الامر الذى نتج عنه أن أصبحت ممتلـكات الدولة العثمانية ، تنسلخ الولاية تلو الاخرى لتقع فى قبضـــة الدول الاوربية ، كل ذلك تم بتنسيق سياسى أوربى ، فهل استطاع السلطان عبد الحميد بمهارته السياسية أن يمنع ذلك ؟

٥ — من أهم الوسائل التى لجأ اليها السلطان عبد الحميد لتأكيد سياسته فى الداخل . وتقوية مركزه فى مواجهة الدول الاوربية فى الخارج . كانت سياسته الاسلامية ، وما ارتبط بها من محاولة التودد والتقـرب من العرب . ولاهمية هذه الوسيلة سوف نفرد الحديث عنها تحت عنوان خاص بها .

سياسة عبد الحميد الاسلامية

أهداف هذه السياسة :

كانت سياسة عبد الحميد الاسلامية ، من أهم الوسائل التى لجـأ اليها لتقوية مركزه فى الداخل والخارج ، وقد تمثلت هـذه السياسة فى احياء الخلافة العثمانية — اذ لم يكن عبد الحميـــد أول من تلقب بلقب الخلافة من سلاطين آل عثمان . وانما كان أول من وضع الخلافة موضع التنفيذ فى معترك السياسة الداخلية والخارجية ، فقد نص فى الدســتور (القانون الاساسى) على أن جلالة السلطان بوصفه خليفة أعلى هـو حامى الدين الاسلامى (١) — تحت شعار الجامعة الاسلامية وما ارتبط بها ، من اهتمامه بشئون المسلمين وفى مقدمتها فريضة الحج ، وتسهيل السبل لادائها ، بانشاء سكة حديد الحجاز ، وقد رمى عبد الحميد من وراء أتباعه لهذه السياسة عدة أهداف : تمثلت فى محاولته تقوية نفوذه ، وبسط سيطرته كسلطان للدولة العثمانية بادعائه الحقـوق والامتيازات

---

(١) مادة (٤) من القانون الاساسى المنشور فى كتاب البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى فى الصفحات (٢٥٧ — ٢٧٨) .

كخليفة للمسلمين (١) : فيتسنى له القضاء على الحركات الدستورية التى تزعمها الاحرار الاتراك — حركة الاتحاد والترقى بزعامة مدحت باشا — الذين طالبوا بتعديل نظام الحكم المطلق « ووضع دستور ديموقراطي على غرار دساتير الدول الاوربية » (٢) ، والقضاء على الحركات الانفصالية فى البلاد العربية الخاضعة له « على اساس ان الخلافة كنظام يجعله مسئولا امام الله لا الشعب كما يرى اصحاب الدعوات الدستورية » (٣)، اذ من شأن الخلافة ان تضفى على صاحبها نوعا من القداسة ، تجعله فى مأمن من النقد والتجريح (٤) ، كما قصد ايضا كسب ولاء العناصر الاسلامية فى الدولة العثمانية ، واكثرها قدرة على التأثير فى امور الدولة، وعلى كسب التأييد للخلافة فى آسيا وافريقيا ، ففيهم بعث الرسول ، وبلغتهم نزل القرآن (٥) ، هذا فى الداخل .

اما فى الخارج فقد استهدفت سياسة عبد الحميد الاسلامية (الجامعة الاسلامية) استثارة الحماس الدينى لدى ملايين المسلمين من رعايا بريطانيا فى الهند ، وفرنسا فى الشمال الافريقى ، وروسيا فى القوقاز والتركستان ، وكسب عطفهم وتأييدهم ، الامر الذى كان يعتبره عبد الحميد ورقة رابحة فى يده ، يمكن استخدامها كوسيلة سياسية لكبح جماح الدول الاوربية ، والضغط عليها ، مهددا باثارة هذه الجماعات الاسلامية عليها فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية تفقد أقاليمها فى البلقان الواحد تلو الآخر بمساعدة تلك القوى الاوربية (٦) .

التقاء عبد الحميد والافغانى حول الجامعة الاسلامية :

وجدير بالذكر ان هناك عوامل ساعدت السلطان عبد الحميد على انتهاج هذه السياسة والمضى فيها ، فالى جانب اعتداءات الدول الاوربية المتكررة والمستمرة على املاك الدولة العثمانية ، وتأييدها للحركات القومية وللثورات الداخلية الناشبة فى البلقان وغيرها ، والى جانب الخطر الداخلى الناجم عن ظهور حركة الاحرار الاتراك بزعامة — أبو الدستور —

(١) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٧ .
(٢) د. عبد العزيز الشناوى — أوربا فى مطلع العصور الحديثة هامش ٥٩١ .
(٣) د. محمد انيس — مرجع سبق ذكره ، ص ١١٦ .
(٤) د. عبد العزيز الشناوى — أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، ص ٥٩١ .
(٥) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٥ .
(٦) جورج انطونيوس : مرجع سبق ذكره ص ١٣٨ ، ألبرت حورانى : مرجع سبق ذكره ص ١٣ ، د. محمود صالح منسى : مرجع سبق ذكره ص ٥٦ .

مدحت باشا ، كان هناك عامل لهاهميته استغله عبد الحميد ابرع استغلال الا وهو ظهور الحركة الاسلامية التى كان يتزعمها السيد / جمال الدين الافغانى والتى كانت تهدف الى توحيد العالم الاسلامى فى كتلة واحدة لمناهضة ضغط القوى الاوربية المتوثبة ضده ، فكان من الطبيعى أن تلتف هذه الدعوة حول الخلافة العثمانية باعتبارها اقوى الدول الاسلامية فى ذلك الوقت (١) .

والواقع ان العالم الاسلامى كان يموج منذ اواخر القرن الثامن عشر بحركات دينية قوية ، جاءت كرد لفعل لحركة الاستغراب فى الشرق الادنى ، التى كانت تعنى اتجاها علمانيا فى المجتمعات الاسلامية ، وكرد فعل لاعتداءات الدول الاوربية على بعض اجزاء العالم الاسلامى ، وكانت بعض هذه الحركات الدينية تتخذ موقفا سلبيا من الاستغراب وتنادى بالرجوع الى الاصول الاسلامية الاولى ، وهذه هى الحركات السلفية كالوهابية فى شبه جزيرة العرب ، والسنوسية فى الشمال الافريقى ، والمهدية فى السودان ، وهذه الحركات على الرغم من فشلها سياسيا ، الاانها تركت آثارا بعيدة المدى فىحياة هذه المجتمعات من الناحية الدينية، وقد توجت هذه الحركات حركة الجامعة الاسلامية التى كانت بلا شك اكثرها ادراكا لمشكلات العالم الاسلامى ، فقد أخرجت مدرسة المجددين فى الاسلام فى العصر الحديث أمثال السيد جمال الدين الافغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده (٢) .

كانت حركة الجامعة الاسلامية التى دعا اليها الافغانى امتدادا للحركتين الوهابية والسنوسية من حيث أنها تهدف الى تخليص الاسلام من الشوائب التى علقت به ؛ الا أنها كانت فى ذات الوقت ونظرا لانه على عهد جمال الدين كان النفوذ الاستعمارى الاوربى قداجتاح الكثير من بلدان العالم الاسلامى فقد حاول الافغانى ايقاف هذا الزحف عن طريق القوى المنظمة للحكومة الاسلامية الموجودة ، وادخال الافكار والانظمة الغربية التى كانت سر قوة الغرب ، ثم توحيد صفوف المسلمين للوقوف فى وجه المدالا ستعمارى الغربى ، أى بينما كانت الحركات السلفية تتجه فى نشاطها الى محاربة النفوذ العثمانى ، كانت حركة الجامعة الاسلامية تدعو الى ضرورة وحدة صفوف المسلمين شعوبا وحكومات وراء الدولة العثمانية ، ومن ثم فقد كان الافغانى يعمل — الى جانب دعوته الاصلاحية ضد المساوىء الاجتماعية والدينية التى دخلت المجتمعات الاسلامية —

---

(١) د. محمد انيس وزميله : مرجع سبق ذكره ص ٢١ .
(٢) د. محمد انيس : مرجع سبق ذكره ص ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

على صد النفوذ الغربى خاصة وانه كان يرجع حــركة الاستعمار الاوربى الى اساس دينى ويعتبرها حركة نصرانية موجهة ضد الاسلام (١) .

فى هذا الوقت الذى نشطت فيه حركة الجامعة الاسلامية التى هزت العالم الاسلامى فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وفى هذه الاثناء التى بلغ فيها الأفغانى ذروة قــوته ونشاطه ، شرع عبد الحميد فى وضع اسس سياسته الاسلامية فالتقى فى خطته مع الأفغانى التقاء واضحا ، وعلى الرغم من ان هذا الالتقــاء كان سطحيا زائفــا الا أن عبد الحميد استطاع بمهارته أن يستغله احسن استغلال فى النفوذ الى قلوب رعيته من المسلمين وذلك « بتأكيد اقترانه بالخلافة ، وبترديد الأوصاف المقدسة التى يتصف بها الخليفة مثل : ظل الله فى الارض ، امير المؤمنين ، خــادم الحرمين الشريفين » (٢) راميا من وراء ذلك الىاستخدام الافغانىوأفكاره عن الجامعة الاسلامية فى جمع كلمة المسلمين حــول عرشه ، تحقيــقا لمصلحته الشخصية ، ولذلك عندما وجد الأفغانى أن سياسة عبد الحميد موجهة ضد الأحرار والثوار ، وانه لا أمل فى اصلاحه شرع الأفغانى يقف منه موقفا عدائيا ، ولا يتحرز فى توجيه اللوم اليه ، حتى لقد دخــل عليه يوما يطلب منه ان يقيله من بيعته له قائلا له : « بايعتك بالخلافة والخليفة لا يصلح ان يكون غير صادق الوعد ... » (٣) .

الأسس التى قامت عليها حركة الجامعة الاسلامية :

وعلى الرغم من اختلاف عبد الحميد مع الافغــانى حول الســياسة اللامركزية وحول الناحية الدستورية ، فقد كانا متفقين بخصوص الجامعة الاسلامية التى كانت تقوم — عند الافغانى — على ركنين اساسيين هما : الالتفاف حول الخلافة والحج ومن ثم فقد عمل عبد الحميد فى هذين المجالين بشتى الوسائل والأساليب .

ا — الخلافة :

اما عن الخلافة فقد عمــل عبد الحميد على احياء عظمتها الدينــية واسترداد هيبتها فى العالم الاسلامى ، فأخذ يضفى على حياته الخــاصة

---

(١) د. محمود صالح منسى : مرجع سبق ذكره ص ٥٨ .
(٢) جورج أنطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ص ١٣٧ — ١٣٨ .
(٣) محمد عماره : الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى — ص ٥٣ ، نقلا عن (محمد باشا المخزومى — خاطرات جمال الدين الافغانى الحسينى) ، المطبعة العلمية بيروت سنة ١٩٣١ ص ٦٨ .

الكثير من مظاهر الزهد والتقشف والورع والتقوى ،وتخلى — ولو ظاهريا على الاقل — عن كثير من الاعمال المنافية للدين التى كان يباشرها أسلافه الذين كانوا ينغمسون فى الشراب واللهو (١) ، واخذ يستميل الشخصيات الدينية ووجهاء العالم الاسلامى اليه ، ويغدق عليهم من نعمه ونياشينه (٢).

كما عمد الى استصراخ المسلمين فى كافة انحاء العالم الى نصرته والالتفاف حوله ، واخذ يهدد الدولة الاوربية بتحريك المسلمين فى البلاد الخاضعة لهم ، فمسلمو الهند يهدد بهم بريطانيا ، وعرب شمال افريقيا يهدد بهم فرنسا ، والتتر والأكراد يهدد بهم روسيا ، ومسلمو البانيا يهدد بهم النمسا (٣) ، كما أنشأ مدرسة للوعاظ ، واستخدم خريجيها فى الدعاية له ولفكرة الجامعة الاسلامية ، هذا بالاضافة الى الصحف والمجلات التى انشأها وسخرها لنشر دعوته ، كما اخذ ينفق بسخاء على المدارس والمعاهد الدينية داخل دولته وخارجها (٤) .

ومن خلال سياسة عبد الحميد الرامية الى استمالة العناصر الاسلامية غير التركية ، حظى العرب بوجه خاص بمركز مرموق عند عبد الحميد الذى حاول كسب تأييدهم ولا سيما بعد أن بدأت تظهر بينهم بعض مظاهر الوعى القومى ، فأغدق على معاهدهم التعليمية الهبات السخية ، وعلى الشخصيات البارزة منهم المناصب ومظاهر التكريم ، كما أنفق الأموال الطائلة على تزيين واصلاح مساجد مكة والمدينة والقدس ، كما أنشأ فرقة من حرسه الخاص من العرب ، كما استخدمهم فى شئونه الخاصة ووصل بعضهم الى مراكز بارزة ، ويعتبر عزت باشا العابد — وهو عربى سورى — من الأمثلة البارزة على ذلك ، فقد وصل الى منصب السكرتير الثانى للسلطان ، وصار من أقوى رجال الدولة العثمانية ، حتى لقد قيل : « انه اذا كان الباب العالى ومناصب الوزارة قد ظلا مجالا يصول فيه الاتراك ويجولون فقد سقط القصر جميعه فى أيدى العرب» (٥)

على أن بلوغ العرب — من خلال تيار الجامعة الاسلامية — هذه المكانة عند عبد الحميد كان أمرا طبيعيا ، فمنهم الرسول وفيهم الرسالة وبلغتهم نزل القرآن وفى أراضيهم الأماكن المقدسة الاسلامية هذا بالاضافة الى

---

(١) جورج انطونيوس : مرجع سبق ذكره ص ١٣٨ .
(٢) توفيق على برو : مرجع سبق ذكره ص ٣٥ .
(٣) محمد انيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٤١ .
(٤) جورج انطونيوس : مرجع سبق ذكره ص ص ١٣٨ — ١٣٩ .
(٥) المرجع السابق ، ص ص ١٣٩ — ١٤٠ .

اهميتهم للدولة بحكم موقع بلادهم وكثرة عددهم وقوة تأثيرهم فى العناصر الاخرى ، فهم بذلك يكونون العمود الفقرى للدولة الاسلامية (١) فلا غرابة « أن اعتمدت الدعوة الى الوحدة الاسلامية اللغة العربية واستعانت لتحقيق فكرتها برعايا من أصل عربى » (٢) منهم الادباء كأحمد فارس الشدياق ، ومعظمهم من مشايخ الطرق الصوفية ، الذين تنافسوا فى تمجيد عبد الحميد واكتساب رضاه ، والذين كان من أبرزهم وأشدهم تأثيرا الشيخ ابو الهدى الصيادى شيخ الطريقة الرفاعية الذى استطاع بحنكته ودهائه السياسى أن يلعب دورا بارزا فى سياسة عبد الحميد الدينية(٣). غير ان بعض الباحثين يرى : ان القول باعتماد عبد الحميد على العنصر العربى فى بلاطه ، وايثاره اياهم بمحبته ، واغداقه النعم عليهم أمر مبالغ فيه ، لأن هذا التفضيل كان قاصرا على حالات فردية وماعدا ذلك فان « عبد الحميد كان يتبع سياسة تقضى بالاعتماد على كافة العناصر مثلما كان ظلمه واستبداده يشمل كافة العناصر » (٤) . وأيا ما كان الامر فان محاولة عبد الحميد التقرب من العرب ، وكسب ولائهم لم تصل الى الدرجة التى جعلته يمنحهم أى قدر من مطالبهم التى كانت حينذاك متواضعة ، اذ ان عبد الحميد كان — من ناحية أخرى — يتشكك فى ولاء العرب له بسبب ظهور منشورات جمعية بيروت السرية التى زادت من مخاوفه وشكوكه فى ان العرب يعملون فى الخفاء من أجل اقامة خلافة عربية (٥) ولذلك نرى ان عبد الحميد كان يلجأ الى وسائل العنف والارهاب اذا ما اخفقت وسيلة التودد والتقرب ، فكان جواسيسه الذين يجوبون البلاد العربية تحت قناع الوعاظ والدعاة يقومون ببذر بذور الخلاف ويعمقوا أسبابه بين الزعماء العرب ورؤساء القبائل ليثيروا القلاقل فيضطرب الامن ، فيكون ذلك ذريعة للبطش بالمعارضين لسياسته الذين كان يوعز باغتيالهم أحيانا ، فاذا كانوا من ذوى المكانة السامية أرغمهم عبد الحميد على الاقامة فى الآستانة ليكونوا تحت رعاية جواسيسه ، ومن هؤلاء كان الحسين بن على الذى أقام فى العاصمة مع أسرته منذ عام ١٨٩٣ م (٦) .

(١) د. محمد انيس وزميله ، مرجع سبق ذكره ص ١٥٩ .
(٢) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ص ١٣٥ .
(٣) المرجع السابق — ص ص ١٣٥ — ١٣٦ .
(٤) توفيق على برو : مرجع سبق ذكره ص ٤٦ .
(٥) د. زين نور الدين زين : مرجع سبق ذكره ص ٥٦ .
(٦) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ص ١٤٠ — ١٤١ .

ب ــ الحج وسكة حديد الحجاز :

وأما الحج ــ وهو الركن الثانى فى سياسة عبد الحميد الاسلامية ــ فقد استطاع عبد الحميد أن يستفيد من هذه الفريضة الاسلامية استفادة كبيرة ؛ فقد استغل موسم الحج واجتماع المسلمين من جميع بقاع العالم في المسجد الحرام بمكة لينشر فكرة الجامعة الاسلامية بينهم (١) . كما استغل الحج من جهة أخرى فى اقامة مشروع سكة حديد الحجاز والظهور بمظهر خليفة المسلمين الحريص على تيسير سبل الحج أمام المسلمين ؛ بقصد استمالة عطفهم وكسب تأييدهم لدعوته ، هــذا بالاضــافة الى الميزة الاستراتيجية التى يحققها انشاء هذا الخط الحديدى « كوسيلة نقــل سريعة للجيوش التركية المتجهة نحو الولايات فى الجزيرة العــربية تلك الولايات التى لم تخضع للحكم العثمانى خضوعا تاما » (٢) . وان كان هذا الهدف الاخير من الصعب استنتاجه او التحقق منه تاريخيا ، فلم يحدث أن استخدم السلطان عبد الحميد هذا الخط الحديدى فى نقل قوات عسكرية الى شبه الجزيرة العربية . غير أن هناك نتيجة ربما لم تخطر ببال عبد الحميد قد حققها انشاء هذا الخط ، وهى أن وجود وسيلة نقل سريعة فى تلك الولايات نتج عنه سرعة نقل الافكار وتبادلها ، مما كان له أثر بالغ فى مصير الحركة العربية (٣) .

وقد حققت سياسة عبد الحمية الخاصة بانشاء سكة حديد الحجاز نتائج طيبة ؛ فقد شكل لجنة عبد برئاستها الى عزت باشا العابد لتوجيه نداء الى العالم الاســلامى توضــح فيه الدوافع الدينيــة التى أوحت لعبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لمد هــذا الخط الحــديدى ، وتهيب بالمسلمين أن يتبرعوا بالمــال لجمع نفقات المشروع ،وقد لاقى هذا النداء قبولا حسنا ، فانهالت التبرعات من كل ناحية لانشاء الخط ، كما فرضت ضرائب فى كل انحاء الدولة فى صورة طابع بريدى ، وعهد بتنفيذ هــذا المشروع الى مهندسين ألمــان ، فبدأ التنفيذ فى سنة ١٩٠١ ووصل بالخط الى المدينة فى سنة ١٩٠٨ . وبفضل هذا المشروع وسياسته الاسلامية ظهر عبد الحميد أمام رعاياه وأمام ثلاثمائة مليون مسلم بمظــهر الخليفة والزعيم الروحى للاسلام ، الامر الذى ترتب عليه خضــوع رعاياه له بشكل لم يسبق له مثيل ، أما المظالم التى كانت تنزل بالشعب فان الناس

---

(١) د. محمد انيس ــ مرجع سبق ذكره ص ٢٤١ .
(٢) د. زين نور الدين زين ــ مرجع سبق ذكره ص ص ٥٧ ــ ٥٨ .
(٣) جورج انطونيوس : مرجع سبق ذكره ص ١٤٣ .

كانوا يلصقونها بالموظفين ولا يشكون فى أمر الخليفة (١) .

وجدير بالذكر أن مشروع سكة حديد الحجاز على الرغم من ترحيب الأوساط الاسلامية والعربية به ، فقد كان مصدرا للقلق بين عرب شبه الجزيرة وخاصة الحجاز الذين لم تخدعهم الواجهة الدينية التى غلف بها عبد الحميد مشروعه الذى كان الهدف الاساسى منه — فى نظرهم — هو تشديد قبضته على تلك البلاد ، هذا بالاضافة الى الأضرار التى لحقت بهم بحرمانهم — ولا سيما البدو — موردا هاما من موارد الـرزق كانوا يحصلون عليه بنقل الحجاج على الابل ، ولذلك فقد اشـتدت مقاومتهم لعملية انشاء هذا الخط بمهاجمته والسطو على معدات بنـائه ، حتى اضطرت الحكومة العثمانية الى تشديد الحـراسة على منشآته حتى تم تنفيذه بوصوله الى المدينة سنة ١٩٠٨ (٢) .

وجدير بالذكر أن اتجاه عبد الحميـد الى بناء السكك الحديدية فى طرفى بلاد العرب (خط حديد بغداد — خط حديد الحجاز) قد نجم عنـه استياء الدول الاوربية وخاصة بريطانيا التى رأت من وراء هذه السياسة شـبح الاخطبوط الالمـانى الذى كان قد وجد فى الدولة العثمانية مجالا حيويا له بغزوها اقتصاديا ، أو ما يسـمى بالتغلغل السلمى المـأمون النتائج مما نتج عنه نمو النفوذ الالمـانى فى الدولة العثمانية ، الأمر الذى اوقعها فى صراع مع انجلترا وفرنسا وروسيا ظهر واضحا فى أزمة الكويت بسبب خط حديد بغداد ، وأزمة طابا بسبب خط حديد الحجاز وقد انتهت الازمتان بما يتفق ورغبات انجلترا (٣) .

هذه هى سياسة عبد الحميد الاسلامية باهدافها والعـوامل التى ساعدته على إتباعها والوسائل التى اتبعها فى تنفيذها ، وقـد بقى أن نشير الى حقيقة هامة / وهى ان الغالبية الاسلامية العربية لم يكن يخطر ببالها حينذاك أن تعمل على تقويض اركان الخلافة ، بل كانوا يؤيدونها ويرون فى ذلك تأييدا للاسلام ، كما أن المستنيرين منهم قد فطنـوا الى المؤامرات والدسائس التى كانت تحيكها الـدول الأوربية بغـية تفتيت

---

(١) جورج أنطونيوس ص ص ١٤٢ — ١٤٤ ، د. محمد انيس : مرجع سبق ذكره ص ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ص ص ٤٤ — ٤٥ .

(٣) للرجوع الى تفاصيل الازمتـين أنظر توفيق على برو : مرجـع سـبق ذكـره ص ص ٣٦ — ٤٤ .

الدولة العثمانية واقتسامها فيما بينها ، ولذلك عملوا على تقوية الخلافة كوسيلة للوقوف فى وجه الغرب ، ولم يفكروا فى تحطيم السيادة العثمانية او الانفصال عنها ، وقد كان جل سعيهم هوادخال الاصلاحات السياسية والاقتصادية التى تمكنهم من التقدم والنهوض فى وجه الأطماع الأوربية اكثر من دعوتهم للتخلص من الحكم التركى ، وهكذا ظل زعماء المسلمين على اخلاصهم للدولة العثمانية التى كانت لا تزال فى أعين المعاصرين دولة الاسلام الكبرى التى تظل المسلمين بظلها الظليل (١) ، الامر الذى دفع بعض أقطاب الاسلام كمحمد عبده أن يتصدى لمهاجمى الجامعة الاسلامية من امثال المسيو هانوتو واللورد كرومر اللذين اتهموها بالتعصب وتحدى القوى المسيحية ، ودعوا الدول الاوربية الى مراقبتها بدقة ، والحذر منها ، فكان رد محمد عبده عليهم ينفى عن الجامعة الاسلامية صفة التعصب الدينى ، بل تضمن هذا الرد أيضا ، دفاعا عن السلطان عبد الحميد نفسه اذ وصف دولته بأنها دولة الاسلام وأن سلطانها أفخم سلاطينهم (٢) ، ولذلك يمكن القول بأن اليقظة العربية فى تلك الآونة ، كانت يقظة ضد مساوىء الحكم التركى ، بهدف اصلاحه دون التفكير فى اقامة دولة عربية مستقلة .

وجدير بالذكر انه على الرغم من التأييد الذى لقيته حركة الجامعة الاسلامية من غالبية العرب المسلمين ، الاانها لم تنجح فى مهمتها الرئيسية وهى حماية العالم العربى من الخطر الأوربى حيث استمرت الاعتداءات الاوربية على أجزائه التى سقطت فى قبضة الاستعمار الاوربى الواحد تلو الآخر ، كما لم ينجح السلطان عبد الحميد — مع تمسكه بالخلافة فى القضاء على حركة الاحرار فى تركيا ، اذ قامت ثورة سنة ١٩٠٨ بقيادتهم واجبرت عبد الحميد على اعادة الدستور ، وعندما حاول تعطيله مرة اخرى خلعته سنة ١٩٠٩ ، وتولى رجال حزب الاتحاد والترقى الحكم ، حيث انقسمت فى عهدهم الحركة الوطنية العثمانية الى حركتين :

أ — الحركة الطورانية — وهى التى قامت على أساس أن الأتراك عنصر نقى ممتاز يكون قومية على غرار القوميات الاخرى ، وكان هدفها تكوين دولة تركية خالصة تضم الأجناس التركية المبعثرة ، الامر الذى ادى الى الاساءة الى الشعور القومى لدى القوميات غير التركية داخل الدولة العثمانية ، وخاصة العرب والأرمن .

---

(١) د. زين نور الدين زين : مرجع سبق ذكره ص ٥٨ .

(٢) مجلة المنار — مجلد (١٠) ج ٣ خطاب اللورد كرومر ، ص ٢١٥ ، ورد الاستاذ الامام محمد عبده على هانوتو وكرومر ، ص ٢١٨ .

ب — نمو التيار القومى العربى داخل الدولة العثمانية — وهــو التيار الذى قام بدور بارز فى انهيار الامبراطورية العثمانية ابان الحرب العالمية الأولى ، وكان يهدف الى تكوين دولة عربية كبرى . وقــد كان ظهور هاتين الحركتين هو بداية انفصال عـــرى الوحدة الاســلامية فى الشرق الأوسط ، على أن التيار القومى العربى لم ينجح فى تكوين وحدة عربية بعد الحرب العالمية الأولى ، لأن الدول الأوربية سارت على قاعدة التفتيت والسيطرة تجاه الشرق العربى الذى وقع تحت النفوذ الانجليزى والفــرنسى (١) .

---

(١) د. محمد أنيس وزميله — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢١ — ٢٢ .

الفصل التاسع

نشاة الحركة القومية العربية فى العصر الحديث

تمهيد :

القومية العربية بمعناها السياسى الحديث ، هى الفكرة القومية التى ترمى الى توعية العرب ، وجمع شملهم وتعبئة امكانياتهم لاجلاء الاستعمار الاجنبى عن بلادهم ، وتأسيس الدولة القومية العربية الواحدة ، واما تبنى هذه الفكرة القومية والتوعية لها ، بنشرها بين جماهير الأمة العربية ، وتحقيقها بابرازها الى حيز الوجود فعلا ، فهو ما يطلق عليه اسم « الحركة القومية العربية » (١) . وقد انتقلت الفكرة القومية بمعناها العام الحديث من أوربا الى البلاد العربية ، فأيقظت الشعور القومى لدى العرب الذين ظلوا احقابا طويلة — رغمما اعتورهم من أرزاء — محتفظين بمقوماتهم القومية الاساسية من لغة وثقافة وعادات وتقاليد وتاريخ حافل بالأمجاد ، مما أبقى القومية العربية بشكل قوى عتيدة وجاهزة فيكفى اذن ان تتاح لها ظروف سعيدة حينا ، ويائسة حينا آخر ، وتنفخ فيها روحا جديدة لتهب من حلمها المروع ، ورقادها الكهفى ، وتتذكر نفسها ، وتشعر بكيانها ووحدتها الاولى وتقوم فتنفض عنها رداء الخمول ، وتبنى حياتها من جديد ، مستمدة قوتها من جوهرها الاصلى الذى لم يتغير بالرغم من تقلبات الظروف ،وآخذة بجميع العناصر والأسباب التى تزيد هذه القوة مضاء ، وهذا الجوهر أصالة وتوكيدا .

على انه من الصعب تحديد بداية الحركة القومية العربية تحديدا تاريخيا دقيقا ، الأمر الذى نتج عنه اختلاف الباحثين فى ذلك ، حيث حاول كل منهم جاهدا ان يضع تاريخا تقريبيا لذلك ، فالدكتور عبد الرحمن البزاز وهو احد الباحثين العرب المحدثين — يرى فى كتابه « القومية العربية » أن النصف الثانى من القرن التاسع عشر يعتبر بداية تاريخية للقومية العربية الحديثة ، حيث برزت القومية العربية بشقيها (العقائدى — والحركى) واضحة جلية فى هذه الفترة كرد فعل لافعال الآخرين « اى جوابالتحد » شأنها فى ذلك شأن معظم القوميات الحديثة الاخرى (٢) .

---

(١) د. نور الدين حاطوم : محاضرات عن المراحل التاريخية للقومية العربية — مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية — القاهرة ١٩٦٣ ص ٥ .

(٢) محمود كامل — الدولة العربية الكبرى — دار المعارف — القاهرة ١٩٦٦ ط ٢ ص ٤١٣ .

كما يرى الامير مصطفى الشهابى أن الشعور الجماعى بالقومية العربية والعمل لها بدأ يذر قرنه منذ اواسط القرن التاسع عشر فى بيروت أولا ، ثم دمشق ثم انتشر منها الى سائر البلاد العربية مستندا الى أن اليقظة الادبية الحديثة فى الشام نشأت اولا فى بيروت وجبل لبنان على يد نصيف اليازجى وبطرس البستانى والشيخ يوسف الأسير وتلاميذهم، ثم برزت فى دمشق أيام مدحت باشا على يد الشيخ طاهر الجزائرى الذى كان من أكبر العاملين لها (١) ، وأيضا فاننا نجد جورج انطونيوس يحاول أن يحدد زمنا معينا لبداية الحركة القومية العربية فخصص فصلا أسماه « البداية » فى كتابة يقظة العرب وجعلها ممتدة بين عامى (١٨٤٧ — ١٨٦٨ م) وتحدث فى هذا الفصل عن النشــاط التبشيرى (التنصيرى) البروتستانتى والكاثوليكى، وعن أثر النظام المصرى فى الشام فى ازدهار هذا النشاط ، كما تعرض لنشاط بعض الشخصيات كنصيف اليازجى وبطرس البستانى ، وللجمعيات الأدبية والعلمية التى انشئت فى تلك الفترة ، على أساس أن تلك الانشطة على اختلاف اتجاهاتها وأهدافها تمثل بــداية اليقظة القومية العربية (٢) .

على اننا — وان كنا لا ننكر اثر هذه الأنشطة المختلفة فى ظهــور الفكرة القومية العربية التى تطـورت الى حــركة قومية سـياسية — لا نستطيع أن نعتبرها بداية لحركة القومية العربية ، فهذه الانشطة — ليست سوى عوامل ساعدت على بلورة الفكرة القومية لدى العــرب ومهدت لها ، اما بداية الحركة القومية كجهد منظم له طابعــه السياسى فيمكن ارجاعه الى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حين تألفت جمعية بيروت السرية سنة ١٨٧٥م ذات النشاط السياسى الملموس الذى سوف نتحدث عنه فى الفصل التالى ، بينما نرى أحد الباحثــين — محمد عزه دروزة — قد ذهب بعيدا جدا فى تناوله للفكرة ، والحركة القومية العربية حيث يرى — أن الفكرة القومية العربية ليست حديثة أو طارئة على العرب بل هى قديمة جدا قدم تاريخهم الطويل ، وعلى ذلك فهو يرجع وجودها الى ما قبل الاسلام واستمرارها بعد الاسلام ، ويورد الامثلة والشواهد التاريخية من العصرين القديم والاسلامى على وجود حركة قومية عربية لدى العرب فى فترات التاريخ المختلفة منذ أيام الفرس والروم ، وتبادلهم السيطرة على اطراف شبه الجزيرة العربية الى العصر الحديث ، وهذا ما يسوغ — فى نظره — تسمية الحركة القومية العربية باسم « الحركة

(١) مصطفى الشهابى — المرجع السابق ، ص ٤٥ .
(٢) جورج أنطونيوس — يقظة العرب ص ص ٩٧ — ١٢٦ .

العربية الحديثة » التي يعتبر أيضا من بوادر انبعـــاثها تلك الحـــركات الانفصالية والدينية فى القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، كحركة فخر الدين المعنى فى لبنان ، وحـــركة على بك الكبير فى مصر ، وضاهر العمر فى فلسطين ، وحركات الأئمة الــزيدية فى اليمن ، ومحمد على فى مصر ، وبشير الشهابى فىالشام ، والوهابية فىنجد ، والسنوسية فى ليبيا ، والمهدية فى السودان ، بل والثورة العرابية فى مصر ، اذ يطلق عليها « الحركات الاستقلالية » ويعتبرها مظهرا من مـــظاهر الحـــركة القومية العربية الحديثة (١) .

يبدو أن هذا الباحث متحمس جدا للروح العربية لدرجة أنه نسى او تناسى ابسط الحقائق التى أجمع عليها المؤرخون — قدامى ومحدثون — وفى مقدمتها أن الاسلام قد نقل العرب من حالة البداوة والجاهلية المقوتة وما ارتبط بها من تعصب جنسى بغيض الى حالة من التحضر والسماحة، كما افاضت مبادؤه السامية على العرب روحا انسانية جديدة فى علاقاتهم مع الاجناس الأخرى عملا بقوله تعالى « يا أيها الناس انا خـــلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن اكرمكمعند الله اتقاكم»(٢) وبقول رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه « لافضل لعـــربى على عجمى الا بالتقوى » ، فقد أصبح العرب بعد الاسلام أصحاب رســـالة عالمية لا تفرق بين الاجناس ؛ فقد قضى الاسلام — بفضل مبادئه السمحة — على التفرقة العنصرية ، وعلى القوميات المتعصبة فانتظمت فى ظله القوميات المختلفة فى قومية جديدة هى القومية الاسلامية ، اذ لو كان فى الاسلام افكار قومية جنسية ، ما انتشر الاسلام خارج الجزيرة العربية قيد انمله .

كما أن هذا الباحث يعتبر كل حركة انفصالية ، أو انتفاضة محلية، أو دعوة دينية او عنصرية — يعتبرها حركة قومية ، بصرف النظر عن دوافعها وما ترمى اليه ، والظروف التى احاطت بقيامـــها ، حيث قامت هذه الحركات الانفصالية منها ابان ضعف الدولة العثـــمانية وتدهورها نتيجة عوامل داخلية وخارجية — سبق أن تعرضـــنا لها — اهتز لهـــا مركز الدولة اهتزازا عنيفا ، كما أنها نشأت منفصلة ومتفرقة نتيجة دوافع شخصية بحتة ، وعـــلى ذلك لم تكن هذه الحركات تعبيرا قوميا صحيحا منبثقا من آلام الشعوب العربية وآمالها بدافع الاعتزاز بالجنـــس الذى ينتمون اليه كما سبق أن رأينا .

---

(١) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٨ — ١٤ ، ٥٦ — ٩٠ .
(٢) سورة الحجرات (الآية ١٣) .

واما الحركات الدينية فكانت فى مجموعها حركات دينية (سلفية) اصلاحية كرد فعل لما وصل اليه حال المسلمين من التفكك والضعف ، نتيجة الابتعاد عن مبادىء الاسلام الأولى ، وانتشار البدع والخرافات هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كرد فعل ايضا « لحركة الاستغراب »(١) التى أخذت تطبق على العالم الاسلامى بغية السيطرة عليه فكريا واقتصاديا وسياسيا ، ومن ثم رأت هذه الحركات السلفية انه لا منجاه للعالم الاسلامى من الأخطار المحدقة به داخليا وخارجيا الا بالعودة الى بساطة الاسلام الاولى وتخليصه من الشوائب التى علقت به على مر العصور .

العوامل التى ساعدت على ظهور الفكرة القومية العربية

فى العصر الحديث

تنادى المسيحيون السوريون القوميون الى القومية العربية ، كرد فعل لحركة الجامعة الاسلامية فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، ثم اخذت هذه الحركة تحبو حتى كان مطلع القرن العشرين حين تصدر لقيادتها عناصر اسلامية ، فبدأت تلتقى حولها النفوس ، ومن ثم أخذت تنمو رويدا رويدا ، وسوف نعرض الآن لأهم العوامل التى ساعدت على ظهور هذه الفكرة القومية العربية .

اولا ـ الترابط العربى فى ظل الحكم العثمانى :

اذا كانت طبيعة الحكم العثمانى قد ساعدت على عدم ذوبان المقومات الاساسية للشعوب العربية ، فان الترابط العربى كان يغذى هذه المقومات ، وكان أوضح مظاهر هذا الترابط : الحج ، والمعاهد العلمية العربية ، ثم الاتصال الثقافى بين العلماء العرب .

فالحج كان مجالا كبيرا للتجارة والتبادل الثقافى ، فكان بعض الحجاج من طلاب العلم يتوطنون فى دمشق أو القاهرة أو مكة لعدة سنوات ، أو بقية حياتهم لتلقى العلم أو القيام بالتدريس فى مدارس تلك

---

(١) حركة الاستغراب : اى الاخذ عن الدول الغربية فى شتى مناحى الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية ، وقد انتشرت حركة الاستغراب منذ منتصف القرن التاسع عشر فى بعض البلاد العربية التى كانت لها صلات وثيقة مع أوربا مثل مصر وبلاد الشام .

العواصم ومعاهدها (١) . أما عن المعاهد العلمية العربية فقد أتاح عدم تدخل العثمانيين فى شئون التعليم الفرصة لاستمرار الثقافة العربية الاسلامية عن طريق تعليم العلوم العربية والاسلامية فى الكتاتيب والزوايا والمدارس الاهلية الاسلامية (٢)، وكان فى مقدمة هذه المؤسسات الثقافية الأزهر الذى قام بدور رائع فى الحفاظ على التراث الحضارى العربى والاسلامى أحقابا طويلة (٣) والى اليوم ، كما برز دور الأزهر بروزا واضحا فى الاتصال الثقافى بين مختلف أنحاء الوطن العربى ، فقد ظل الكعبة الثقافية التى تهوى اليها أفئدة العلماء والفقهاء وطلاب العلم (وهم من كل حدب ينسلون) ؛ تزخر بهم أروقته ، ويجدون فى رحابه الزاد الفكرى والملاذ الامين (٤) ؛ كما كانت دمشق بسبب موقعها مقرا لرجال العلم ، فكان العلماء العرب يعتبرون أنفسهم تلاميذ طوال حياتهم يتنقلون بين المراكز العلمية ، وقد استطاعوا باتصالاتهم العلمية الدائمة ، أن يحفظوا المجتمعات العربية متماسكة ، فى وقت سادت فيه الفوضى السياسية ، والتدهور الاقتصادى ، ومن ثم كان التعليم فى الشرق العربى ابان الحكم العثمانى يؤدى وظيفة اجتماعية أكثر منها تعليمية (٥) .

وقد قوى من هذا الترابط العربى الوحدة السياسية التى سادت العالم العربى بعد خضوعه للحكم العثمانى ، حيث لا حدود سياسية ، ولا حواجز جمركية تقف فى وجه انتقال العربى من قطر الى آخر ، غير اننا يجب ان نشير الى ان هذا الترابط العربى فى ظل الحكم العثمانى وحتى مطلع القرن العشرين كان ممتزجا بالعاطفة الدينية ، فعلى الرغم من مساوىء الحكم العثمانى التى كانت ظاهرة للعيان ، لم يحاول العرب الانتفاض عليه والتخلص منه ، لأن الرابطة الدينية التى تربط العرب بالعثمانيين خلال تلك القرون كانت من أقوى الروابط ، فلم يكن للعروبة كيان منفصل عن الاسلام ، والتاريخ يؤكد ذلك ، فهناك امثلة لهذا الترابط العربى على المستوى الاسلامى ، كتقدم متطوعى الحجاز بقيادة الكيلانى (٦) لمساعدة أهل الصعيد ضد الفرنسيين ، ومتطوعى طرابلس الغرب الى البحيرة بقيادة رجل من درنة — لقب نفسه بالمهدى — لمقاتلة الفرنسيين فى البحيرة

---

(١) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ٢٣ .

(٢) د. نور الدين حاطوم — مرجع سبق ذكره ص ٩ .

(٣) د. عبد العزيز الشناوى — الوحدة العربية ص ١٨ .

(٤) د. عبد العزيز الشناوى — دور الازهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ، ص ٢٩ .

(٥) د. محمد انيس وزميله — مرجع سبق ذكره ص ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٦) الكيلانى : رجل مغربى كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف .

من أجل نصرة الاسلام (١) ، وهناك مثل آخر له دلالته فى هذا المعنى . وهو قيام اقباط مصر ونصارى الشام — أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر — بالاستيلاء على ايراد الاوقاف الاسلامية ، باعتبارها غنيمة لهم واستعلائهم على المسلمين وبمساعدة الجيش الفرنسى (٢) .

ثانيا — التغييرات التى طرأت على العالم العربى فى القرن التاسع عشر :

طرأ على العالم العربى خلال هذا القرن تغييرات جذرية دفعت به فى اتجاهات سياسية نشيطة بعد حياة العزلة والجمود التى عاناها خلال القرون الثلاثة السابقة ، فقد تسابقت الدول الاوربية فى زحفها الاستعمارى على البلاد العربية ، مستغلة ضعف الحكم العثمانى ، وتحت ضغط حركة الانقلاب الصناعى ، وما ترتبت عليه من الرغبة فى الحصول على المواد الخام ، والبحث عن أسواق لتصريف المنتجات ، واستغلال رؤوس الاموال النامية (٣) ، وقد أسهم هذا الزحف الاوربى — بما أثاره من شعور دينى ممتزج بالعاطفة القومية ، وما نجم عنه من احتكاك العرب بالفكر الاوربى واساليب النهضة — فى ظهور الفكرة القومية لدى العرب وخير مثال على ذلك مصر — وهى أول بلد عربى تعرض لأول غزو عسكرى مسيحى فى العصر الحديث — تمثل فى الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ — لقد ثار فيها الشعور الدينى الممتزج بالعاطفة القومية حيث هب العرب المسلمون من الحجاز ومن ليبيا للدفاع عن ارض الكنانة كما سبق أن أشرنا ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان لاحتكاك المصريين بالافكار الفرنسية ونظام الحكم الذى حاول بونابرت تطبيقه فى مصر متبعا سياسته العربية للايقاع بين العرب وبين العثمانيين ، وان لم ينخدع المصريون بهذه السياسة (٤) فقد كان لهذا الاحتكاك أثره الواضح فى سياسة محمد على ومحاولته بناء دولة حديثة متبعا اساليب عصرية غربية ثم امتدت به الطموح لبسط نفوذه على الشام ، بزعم تكوين امبراطورية

---

(١) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢) د. عبد العزيز الشناوى — صور من دور الازهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر . (من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة — مارس — ابريل سنة ١٩٦٩ م) مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧١ ، ص ص ٩١ — ٩٢ .

(٣) د. سليمان حزين — صفحات من تاريخ الاستعمار — من مطبوعات وزارة الارشاد القومى ، دار الجمهورية للطباعة ، القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) ص ص ٩٤ — ٩٧ .

(٤) د. عبد العزيز الشناوى — صور من دور الازهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى ص ص ١٨٩ — ١٩٠ .

عربية مستقلة محاولا أن يثير هذه العاطفة لدى العرب لتبرير سياسته وحكمه لبلاد الشام (١) ، لكننا وان كنا ننفى نفيا قاطعا وجود أى تفكير عربى عند محمد على الذى كان البانيا لا يعرف العربية ، الا اننا لانستطيع ان ننفى اثر الحكم المصرى فى الشام حيث أقيم نظام جديد « يعتمد على المساواة فى الحقوق الدينية والمدنية وعلى ضمان الارواح والممتلكات »(٢) فنعم المسيحيون بالمساواة التى كانوا يفتقدونها فى الحكم العثمانى ، كما فتحت ابواب البلاد أمام المؤثرات الغربية حيث ازداد نشاط البعثات التنصيرية والمدارس الاجنبية والطائفية (٣) .

كما كان للوجود المصرى بالشام أثره البالغ فى قيام نهضة تعليمية حيث أسست المدارس الابتدائية والثانوية ، كما انشئت الكليات العالية فى دمشق وحلب وانطاكية وكان معظم طلابها من المسلمين الذين اتيح لهم السكن والطعام والكساء والتعليم على نفقة الحكومة ، وذلك بغية بذر الوعى القومى فى نفوس الناشئة ، علاوة على توفير احتياجات الدولة من الناحيتين السياسية والعسكرية (٤) ، كما اتجه المسلمون — رغبة فى تجنب تجنيد ابنائهم — الى فتح المدارس الخاصة ذات التعليم الدنيوى(٥) الامر الذى كان له عظيم الاثر فى قيام الشام بدور رائد فى الحركة القومية العربية .

ثالثا — البعثات التنصيرية :

هناك حقيقة جديرة بالذكر قبل ان نتكلم عن أثر البعثات التنصيرية كعامل من العوامل التى ساعدت على ظهور الفكرة القومية العربية وهى :

يذهب بعض الكتاب الى أن البعثات التنصيرية بما قامت به من نشر الافكار السياسية والديمقراطية الغربية ، وما قامت به من جهود فى نشر الثقافة العربية عن طريق المدارس والمطبوعات تشكل عاملا اساسيا فى حركة اليقظة العربية ، بل يتغالى فى ذلك الى حد جعل هذه الجهود بداية

---

(١) د. محمد أنيس وزميله — مرجع سبق ذكره ص ١٨٤ .
(٢) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ٩١ .
(٣) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ٤١ .
(٤) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ص ٢٨ .
(٥) جورج أنطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٤ .

لحركة اليقظة العربية في العصر الحديث (١) ، وهذا الرأى مبالغ فيه : ذلك أن العامل الاساسى في يقظة العرب القومية هو احتفاظهم بمقوماتهم الاساسية عبر القرون الثلاثة تحت الحكم العثمانى كما اشرنا ، ولولا ذلك لما استطاعت اية جهود مهما كانت أن تبعث في العرب روحا قومية حقيقية نحن لا ننكر دور هذه المؤسسات التنصيرية في حركة الاحياء العربية الا أن هذا الدور لم يكن هدفا اساسيا أو باعثا حقيقيا لحركة التنصير التى كان « باعثها الحقيقى والاول في رأى القائمين على التبشير انما هو القضاء على الاديان غير النصرانية (وخاصة الاسلام) توصلا الى استعباد اتباعها » (٢) ومن ثم كان الهدف سياسيا ، بدليل التنافس في افتتاح المدارس الذى كان يحدث بين طوائف المنصرين بهدف جذب مسيحى الطوائف الاخرى الى طائفته بروتستانتيا كان أو كاثوليكيا أو ارثوذكسيا ، وبذلك ينتقل الولاء الى الدولة الحامية لتلك الطائفة (٣) (كانت فرنسا وايطاليا تحميان الكاثوليك وروسيا تحمى الارثوذكس ، وأمريكا وانجلترا تحميان البروتستانت) (٤) ، فقد قال المستشرق الامريكى جب « من العناية الالهية العظيمة ان المطبعة الامريكية والمدارس الامريكية في سوريا كانت وسيلة لاعداد رجال ونساء كثار ليكونوا مواطنين امريكيين » (٥) ، ولذلك لم يقتصر النشاط الدينى لهذه البعثات التنصيرية على اثارة الشك في نفوس غالبية المسلمين في هذه المنطقة ، بل كان سببا في اثارة النزاع الطائفى ، واذكاء نار العداوة والبغضاء بين مختلف الطوائف توصلا الى التدخل وبسط النفوذ (٦) ، وحوادث الارمن ومذابح الستين في سوريا خير شاهد على ذلك الامر الذى يقودنا « الى حقيقة بواعث التبشير : انه ليس الاصلاح والحياة الروحية بل هو الافساد والتوصل الى السيطرة » (٧) ولذا يمكن القول — وهذا حقيقة — ان « دور المدارس التبشيرية في توعية الجيل العربى قوميا وسياسيا في النصف الثانى من القرن التاسع عشر مبالغ في اهميته كثيرا » (٨) .

---

(١) المرجع السابق — ص ص ٩٧ — ١٠٩ .

(٢) د. مصطفى الخالدى ، د. عمر فروخ — التبشير والاستعمار في البلاد العربية — المكتبة العصرية بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٠ ص ٤٥ .

(٣) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ص ١٦ .

(٤) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ص ٧٦ .

(٥) د. مصطفى الخالدى وزميله — مرجع سبق ذكره ص ١٧٠ .

(٦) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ص ٥٢ .

(٧) د. مصطفى الخالدى وزميله — مرجع سبق ذكره ص ٤٦ .

(٨) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ص ٥١ .

اما عن نشاط تلك البعثات التنصيرية فى الشام ، فقد أتاح الحكم المصرى فى الشام الفرصة لممارسة تلك البعثات نشاطها على اوسع نطاق ، فعاد الجزويت (اليسوعيون) لممارسة نشاطهم الذى توقف منذ سنة ١٧٧٣م وازداد توافد البروتستانت الامريكيين ، وبدأت حدة التنافس بين الفريقين على جذب الاتباع والأنصار ، ذلك التنافس الذى ساعد على احياء اللغة العربية وادابها ، وما ارتبط بها من حركة فكرية لم تلبث أن تحولت من الادب الى السياسة (١) .

فقد اهتم البروتستانت الامريكيون باللغة العربية والطباعة العربية بهدف جذب الانصار بين العرب ، فنقلوا مطبعتهم العربية من مالطة الى بيروت سنة ١٨٣٤ ، ونشروا الانجيل وبعض التعاليم فيها باللغة العربية التى استخدموها فى الصلاة ، كما افتتحوا المدارس التى كان التعليم فيها باللغة العربية ، ونظرا لحاجتهم الى المدرسين حولوا مدرستهم العليا فى «عباى» الى كلية لاعداد المعلمين وتدريبهم ، وقد بلغ عدد مدارسهم حتى سنة ١٨٦٠ م ثلاثا وثلاثين مدرسة ، وقد توجوا جهودهم بانشاء الكلية البرو تستانتية السورية — التى عرفت فيما بعد بالجامعة الامريكية — فى بيروت سنة ١٨٦٦ م (٢) ، وقد استعان الامريكيون فى نشاطهم بجهود عالمين عربيين مسيحيين هما : نصيف اليازجى (١٨٠٠ — ١٨٧١ م) وبطرس البستانى (١٨١٩ — ١٨٨٣م)، فألف لهم الاول الكتب المدرسية فى قواعد اللغة والادب والمنطق لتدريسها فى مدارسهم ، وقام الثانى بتدريس اللغة العربية ، وترجمة الانجيل الذى اتمه الدكتور فانديك بعد وفاة البستانى (٣) .

وهناك رواية — مهما يكن من أمر صحتها فانها — تدل على شدة التنافس بين الكاثوليك والبروتستانت فى افتتاح المدارس ، فيروى عن المنصر الامريكى الدكتور كونيليوس فانديك انه ركب يوما حماره متوجها الى احدى القرى ، ولما سئل عن وجهته أجاب انه ذاهب الى تلك القرية لافتتاح مدرستين ، فلما سئل وهل هذه القرية الصغيرة بحاجة الى مدرستين ؟ اجاب قائلا : حيث يذهب الدكتور فانديك يتبعه الجزويت ،

(١) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ص ٩٧ — ٩٨ .
، د. شمس الدين الرفاعى — مرجع سبق ذكره ص ص ٢٨ — ٢٩ .
(٢) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ص ١٢٦ .
، جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ص ١٠٥ — ١٠٧ .
(٣) محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ٧٨ .

لانه متأكد أن اليسوعيين سيأتون بعد مدة وجيزة ليفتحوا مدرسة ثانية(١)

فقد اهتم اليسوعيون (الجزويت) أيضا وخاصة منذ عودتهم سنة ١٨٣١م بافتتاح مدارس فى بيروت وغزير وزحلة ، كما شمل نشاطهم دمشق سنة ١٨٧٢م ، وحلب سنة ١٨٧٣م وكانت أهم مدارسهم مدرسة غزير التى نقلت الى بيروت عام ١٨٧٥م ، وسميت جامعة القديس يوسف (سان جوزيف) التى بدور كبير فى نشر الثقافة كأختها الامريكية ، كما حاكى اليسوعيون الأمريكيين فى احياء اللغة العربية والطباعة ، فأسسوا اول مطبعة لهم سنة ١٨٤٧ ، كما قام اللعازريون (وهم بعثة كاثوليكية أيضا) بافتتاح كليتهم أيضا فى عين طوره فى لبنان ، وانشأوا مدرسة فى دمشق ، كما قامت المنظمات الدينية الأخرى بانشاء مدارس للبنين والبنات فى بيروت وبعلبك ودمشق وفى مناطق متعددة من جبل لبنان (٢) .

ومن الجدير بالذكر أن المؤسسات الكاثوليكية الفرنسية قد وضعت نصب أعينها ، وفى المرتبة الاولى نشر الثقافة واللغة الفرنسية أكثر من أى شىء آخر ، فساعدت — بطريق غير مباشر — على يقظة العرب الفكرية ، فى الوقت الذى ادى فيه نشاط البعثات الأمريكية الى احياء اللغة والآداب العربية ، وقد كان لهذا النشاط على اختلاف الوانه اثر كبير فى دفع رجال الدين الوطنيين على اختلاف مذاهبهم الى مضاعفة نشاطهم التعليمى ، وذلك بفتح العديد من المدارس المختلفة من أجل المحافظة على كيانهم (٣) وقد نتج عن هذا وذاك وجود نهضة أدبية عربية ، وايقاظ سياسى بين الطوائف المسيحية بصفة خاصة ضد الدولة العثمانية ، حيث وجد فريق من هؤلاء يرى ضرورة الاصلاح الشامل فى جميع انحاء الدولة العثمانية بهدف حصول العرب على حقوقهم فى ظل الدولة ، او الانفصال عنها وتكوين دولة عربية مستقلة . كما وجد فريق آخر — وهم الذين تربوا فى احضان تلك المدارس التنصيرية ولا سيما الفرنسية منها وتشبعوا بأفكارها — وهذا الفريق لم ير ضرورة الانفصال

---

(١) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ص ص ١٠٥ — ١٠٧ ، د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ٧٧ ، ساطع الحصرى — محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ص ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٢) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٨ — ١٠٩ ، محمد عزه دروزه مرجع سبق ذكره ص ص ١٢٥ — ١٢٦ ، د. شمس الدين الرفاعى — مرجع سبق ذكره ص ٣٨ .

(٣) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٤٦ — ٤٧ .

عن الدولة فحسب ، بل والالتجاء الى حماية دولة اجنبية أوربية ، وكانت فرنسا فى مقدمة من يدعى لها من الدول (١)

رابعا ـــ النهضة العلمية :

لم تقتصر النهضة الفكرية فى الشرق العربى على الآثار الناجمة عن نشاط البعثات التنصيرية فى الشام ، بل كان هناك الى جانبها نهضة فكرية فى مختلف بلدان الشرق العربى قامت على أسس عربية محلية .

ففى الشام كانت هناك الى جانب النشاط التنصيرى نهضة تعليمية قامت على اكتاف العرب انفسهم ، وبمساعدة السلطات العثمانية أثناء ولاية مدحت باشا على الشام ، فقد استطاع الشيخ طاهر الجزائرى أن يقنع مدحت باشا ـــ الذى كان محبا للاصلاح ـــ بضرورة افتتاح مدارس حكومية لتدريس العلوم العربية والعناية بآدابها ، وذلك لمنافسة مدارس الارساليات الأجنبية التى تقوم بتدريس اللغة العربية وآدابها ، والا تحول الناشئة اليها ، وشبوا على افكار ومبادىء سياسية لا تسر الدولة،فاقتنع مدحت باشا بهذه الأسباب ، فتأسست الجمعية الخيرية الاسلامية التى كانت شبه رسمية وأعانتها الحكومة بالمال ، وخصصت لها أبنية وقفية وحكومية تفتح فيها المدارس ومطبعة لطبع الكتب المدرسية باللغة العربية (٢) وقد تمكنت هذه الجمعية من افتتاح خمس وثلاثين مدرسة جديدة (٣) ، وفى سنة ١٨٨٢ صدر أمر سلطانى بالغاء هذه الجمعية وانشاء مجلس معارف يقوم مقامها برئاسة مفتى دمشق ، وكان الشيخ طاهر الجزائرى أحد نائبى الرئيس الى جانب خمسة عشر عضوا (٤) ؛ وقد كان لهذه الخطوة ، والنشاط الذى قام به الشيخ طاهر الجزائرى فى جمع الكتب وتكوين نواة المكتبة الظاهرية ، وفى ميدان الثقافة ضمن حلقته المشهورة فى دمشق اكبر الأثر فى نشاط الحركة الثقافية التى قامت عليها النهضة الادبية والعلمية فى دمشق (٥)

واما مصر فقد سبقت البلاد العربية فى ظهور النهضة العلمية والفكرية فيها فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، حيث ارتبط ذلك

---

(١) د. محمد بديع شريف ـــ مرجع سبق ذكره ، ص ص ٧٨ ـــ ٧٩ .
(٢) الامير مصطفى الشهابى ـــ مرجع سبق ذكره ، ص ص ٤٨ ـــ ٥٠ .
(٣) د. عبد الكريم غرايبة ـــ مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٧ .
(٤) توفيق على برو ـــ مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ .
(٥) الامير مصطفى الشهابى ـــ مرجع سبق ذكره ، ص ٥٩ .

برغبة محمد على فى بناء دولة حديثة على النمط الاوربى ، فانشأ المدارس المختلفة التى تحتاج اليها الدولة على غرار مدارس أوربا ، وجلب اليها الاساتذة الاجانب ، وارسل البعوث من طلبة الازهر الى أوربا ليستغنى بهم عن الاجانب (١) .

ومن الاعلام الذين ذاع صيتهم ابان تلك النهضة رفاعة رافع الطهطاوى الذى كان رائد حركة فكرية وان لم تثمر على يديه الا أنه شهد تباشيرها فى اخريات أيامه ، عندما تهيأت العقول لتقبل حركة الاصلاح ، واخذت البلاد تسلك سبيلها الى الثورة السياسية والفكرية والاجتماعية، فقد ذهب رفاعة الى باريس كامام لاول بعثة تعليمية كبرى أوفدها محمد على الى فرنسا سنة ١٨٢٦ لدراسة « مختلف فروع الادارة والفنون والعلوم » (٢) ، ولم يكتف رفاعة بوظيفة الامامة لاعضاء البعثة ، بل أخذ ينهل من علوم الفرنسيين وانظمتهم وادرك ما لم يدركه المبعوثون أنفسهم من بعد الصيت وحفاوة التاريخ حيث أصبح « الامام فى الصلاة للبعثة اماما للحركة العلمية فى مصر » (٣) .

وقد ظهرت آثار رفاعة العلمية والفكرية واضحة عندما قام بحركة ترجمة من الفرنسية فى كافة فنون الطب والهندسة والحربية والتاريخ والجغرافيا ، وعندما اقترح على محمد على انشاء مدرسة للترجمة التى تم انشاؤها بالفعل سنة ١٨٣٥ تحمل اسم مدرسة المترجمين ، ثم غير اسمها الى مدرسة الالسن (٤) ، وقد قام أبناء هذه المدرسةبترجمة الكثير من فنون المعرفة عن لغاتها الاصلية ، وبجانب رفاعة كان هناك بعض اعلام هذه النهضة من امثال : على البقلى الطبيب ، ومحمد بيومى العالم الرياضى ، وعلى مبارك المهندس الذى قدر له أن يقوم بدور عظيم فى النهضة العلمية فى عصر اسماعيل .

فقد بهرت اسماعيل مظاهر الحضارة الاوربية ، واصبحت رغبته تتركز فى أن يجعل مصر جزءا من أوربا ، فبعث النهضة العلمية من مرقدها ، ونفخ فيها روح الحياة والنشاط ، وذلك بأن أعاد تأليف ديوان

---

(١) الامير عمر طوسون — البعثات التعليمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الاول وسعيد ، الاسكندرية ١٩٣٤ ص ص ٦ — ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢ .

(٣) د. جمال الدين الشيال — رفاعة الطهطاوى . سلسلة أعلام الاسلام عدد (١٥) نوفمبر ١٩٤٥ ص ص ٧ — ٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٨ .

المدارس (وزارة المعارف) الذى كان قد الغى فى عهد سلفه محمد سعيد باشا (١) ووجه همته الى انشاء المدارس على اختلاف مراتبها وتخصصاتها فأسس المدارس الحربية ، وأعاد فتح المدارس العالية ، كما أعاد نظام البعثات ، وكثرت المدارس الاجنبية التى افتتحتها البعثات الدينية الأوربية ، فعاشت مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نهضة علمية مزدهرة انفق عليها اسماعيل بسخاء (٢) ، فقد تعاون على ازدهارها انتشار المدارس ، وظهور طائفة من العلماء والادباء ممن تخرجوا فى المدارس والبعثات أو فى الازهر على عهد محمد على وخلفائه ، ومجىء الافغانى واقامته بمصر سنين عددا ، وظهور الجمعيات العلمية وتقدم الطباعة وظهور الصحافة العلمية والادبية والسياسية ، وبعض الصحف الاوربية ، وظهور طائفة من العلماء المؤلفين والمعربين الذين توافروا على اخراج الكتب القيمة فى شتى الوان المعرفة ، وقد كان لهذه النهضة العلمية والادبية أثرها فى تقدم الحياة الاجتماعية ، ثم الحياة الوطنية والسياسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (٣) .

وجدير بالذكر أن هذه النهضة العلمية فى مصر فى القرن التاسع عشر التى كان لها أثرها الواضح فى اشتعال الحركة الوطنية فى مصر ضد التدخل الاجنبى ، وان كانت لم تسهم اسهاما مباشرا فى يقظة العرب القومية ضد الحكم العثمانى للبلاد العربية نظرا لظروف مصر الخاصة ، ولوضعها الدولى بمقتضى تسوية ١٨٤١/٤٠ م الامر الذى وجه حركتها الوطنية ضد التدخل الاجنبى ، الا انها أسهمت بقدر وافر — بطريق غير مباشر — فى ظهور الفكرة القومية العربية بما اتاحت للكثير من الكتاب والمفكرين الشاميين القوميين الفارين من طغيان السلطان عبد الحميد الفرصة للتنفيس عن أفكارهم واصدار الصحف ونشر المقالات ، ولاعجب فقد كانت مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ملجأ للاحرار العرب الذين لجأوا اليها من كل مكان .

وأما العراق فيبدو أن الحركة الثقافية فيه كانت اكثر تأخرا منها فى الشام وفى مصر فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، الا أن النصف الثانى منه قد شهد افتتاح مدارس أجنبية للبعثات التنصيرية — وان كانت فى العراق اقل منها فى بقية البلاد العربية التى ذكرناها — فقد كان للآباء الكرمليين كنيسة فى بغداد ، وقد بذلوا الكثير من الجهد فى نشر

---

(١) الرافعى — عصر اسماعيل ج ١ ، ص ٤٢ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ص ١٩٧ — ٢٠٦ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ص ٢٤٢ — ٢٥٣ .

اللغة الفرنسية بين الشبان العراقيين بواسطة المدرسة التى انشأوها فى بغداد ، اما الآباء الدومينيكيون فقد انحصر نفوذهم فى ولاية الموصل ، حيث اسسوا لهم كلية وبعض المدارس الاخرى ، هذا بالاضافة الى راهبات الفرنسيسكان اللاتى اسسن لهن مدرسة فى الناصرة ، أما مدارس الطوائف المحلية كالكلدان والسريان فكانت خاضعة لاشراف الارساليات الفرنسية ، هذا علاوة على وجود مدارس للطوائف الوطنية فى بغداد (١) ، بالاضافة الى المدارس الحكومية الحديثة التى انشأها مدحت باشا اثناء ولايته على العراق (٢) ، اما المدارس العالية فلم يكن فى بغداد منها سوى مدرسة الحقوق وقد كان على الطلاب الذين يرغبون فى اتمام تعليمهم العالى ان يذهبوا الى الآستانة (٣) .

مما سبق يتضح ان النهضة التعليمية كانت تسير فى البلدان العربية السابقة جنبا الى جنب مع فوارق بسيطة من حيث المستوى ، وكان التجاوب فيما بينها تاما فى حركة تبادل الافكار ساعد على ذلك تطور حركة الطباعة التى كانت عاملا فعالا فى ابراز الافكار الى حيز الوجود ، وانتشار الكتب فى الاقطار المختلفة ، الامر الذى ساعد على تبادل الافكار واقتراب العواطف ودفع عجلة التقدم والنهوض الى الامام .

خامسا — الصحافة :

قامت النهضة الصحفية العربية فى القرن التاسع عشر بدور أساسى فى النهضة الفكرية التى اسهمت مساهمة فعالة فى اثارة الوعى القومى العربى وتوجيهه ، وقد سبقت مصر البلاد العربية فى ظهور الصحافة بها ، اذ لم يعرف الشرق العربى الصحافة قبل حملة بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ م ، فقد أصدر الفرنسيون فى مصر جريدتين باللغة الفرنسية ونشرة سموها التنبيه ، ينشر فيها ما يجرى من الامور فى ديوان القضايا ، ثم انشأ محمد على سنة ١٨٢٢ أول جريدة عربية وهى الوقائع المصرية ، التى كان ينشر فيها أخبار ومراسيم الحكومة (٤) والتى لا تزال تصدر الى اليوم ، وقد تولى تحريرها بعض أعلام النهضة الفكرية فى مصر من امثال رفاعة الطهطاوى الذى نظمها وأخرجها فى صورة جديدة

---

(١) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ص ص ١٧ — ١٨ .
(٢) د. عبد العزيز نوار — مرجع سبق ذكره ص ٣٨٢ .
(٣) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ص ص ١٧ — ١٨ .
(٤) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ص ٨١ .

جعلت الناس يقبلون عليها (١) ، وحسن العطار والشيخ محمد عبده وغيرهم (٢) . واستمرت الوقائع المصرية هي الجريدة الوحيدة فى مصر حتى كان عهد اسماعيل حيث نشطت الحياة الفكرية ، فكان من أهم مظاهرها تأسيس الصحف العلمية والادبية ثم السياسية ، وذلك بفضل تشجيع الخديو اسماعيل لها ومساعداته الادبية والمالية للقائمين عليها (٣) ؛ فقد ظهرت الى جانب الوقائع فى ذلك العصر صحف أخرى علمية وادبية وعسكرية مثل مجلة اليعسوب الطبية سنة ١٨٦٥ م ، وروضة المدارس لاحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة سنة ١٨٧٠ ، وجريدة اركان حرب الجيش المصرى ، هذا علاوة عن الصحف السياسية التى تكاثرت واشتد نشاطها وتسابق فى تأسيسها المصريون والسوريون مثل صحف : وادى النيل ، ونزهة الافكار ، والاهرام ، والوطن ، ومصر ، والتجارة ، وروضة الاخبار ، والكوكب المصرى ومرآة الشرق وابو نضارة وغيرها . كما ظهرت بعض الصحف الاوربية مثل . الفارد السكندرى ، والبروجريه اجبسيان ، والريفورم (٤) ، وبعد وقوع مصر فى قبضة الاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢ وتوافد المهاجرين السوريين — هربا من طغيان عبد الحميد — ظهرت صحف ومجلات كثيرة ، اصدرها هؤلاء المهاجرون بتشجيع من سلطات الاحتلال التى كانت تؤيد بعضها ماديا وأدبيا — وكان من أبرزها جريدة المقطم والوطن — حتى تضمن لها التوسع والانتشار فى مواجهة الصحف المناوئة (٥) ؛ الامر الذى نتج عنه ظهور بعض الصحف والمجلات الوطنية مثل جريدة المؤيد سنة ١٨٨٩ ، ومجلة الاستاذ سنة ١٨٩٢ التى أصبحت منافسا خطيرا للمقطم ، كما شجعت سلطات الاحتلال أحرار الترك على اصدار الصحف للتنديد بسياسة السلطان عبد الحميد فظهرت جرائد كثيرة منها « ايلرى » أى الى الامام و « النبراس » و « بصير الشرق » و «الميزان» وغيرها .

وهكذا اصبحت مصر فى أواخر القرن التاسع عشر — على الرغم من اتجاه الحركة الوطنية فيها الى مقاومة الاحتلال الانجليزى مستندة الى التأييد العثمانى — مسرحا لنشاط صحفى لم تشهد اى بلد عربى

---

(١) د. جمال الدين الشيال — مرجع سبق ذكره ص ص ٦٢ — ٦٥ .

(٢) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ص ١٣٧ .

(٣) د. سامى عزيز — الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ص ص ١٣ — ١٦ .

(٤) الرافعى — عصر اسماعيل ج ١ ص ص ٢٤٦ — ٢٥٠ .

(٥) د. سامى عزيز — مرجع سبق ذكره ص ص ٩٣ — ١٠٦ .

له مثيلا ، وليس ذلك راجعا الى تمتع مصر بالحرية الفكرية فى ظل الاحتلال ، وانما لتشجيع سلطات الاحتلال للصحف القومية بقصد اضعاف مركز السلطان عبد الحميد ، وبالتالى تثبيت مركزها فى مصر (١) هذه النهضة الصحفية اسهمت من غير شك فى ظهور الفكرة القومية العربية .

أما عن الصحافة فى بلاد الشام — خلال القرن التاسع عشر — فان نهضتها ونشاطها قد ارتبط الى حد بعيد بأحوال الدولة العثمانية السياسية ، وما اتاحته ظروفها المختلفة من نهوض تارة ، ومن تعويق ومصادرة تارة أخرى ، فقد ارتبط بالتطور التعليمى الذى ظهر واضحا فى الشام تطور فكرى نتج عنه نهضة ادبية عربية كان لا بد أن يسايرها تطور صحفى الا أنه وحتى أوائل سنة ١٨٥٨ م لم تظهر صحيفة عربية فى البلاد الشامية ، وقد بدأت الصحافة الشعبية تدخل البلاد السورية لاول مرة عقب اصدار السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١) أول لائحة لتنظيم الصحافة العثمانية فى يناير سنة ١٨٥٧ ، فصدرت أول جريدة عربية سياسية برخصة رسمية وهى « حديقة الاخبار » فى أول يناير سنة ١٨٥٨ فى بيروت ، وكان قد سبقها ظهور مجلتين لنشر العلوم والآداب على يد البعثات الامريكية ، ونصيف اليازجى وجمعيته السورية (٢) ، كما أصدر بطرس البستانى اثناء فتنة الستين جريدة « نفير سورية » وجريدة « الجنان » سنة ١٨٧٠ بهدف محاربة التعصب والدعوة الى الاتحاد لخير الوطن (٣) ، وبعد صدور قانون الصحافة العثمانية سنة ١٨٦٥ الذى يحد من حرية الصحافة والذى صدر فى عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦) صدرت فى بلاد الشام بعض الصحف الرسمية مثل : جريدة « سورية » فى ولاية دمشق سنة ١٨٦٥ ، وكانت تميل الى بث الروح الوطنية السورية سرا عن طريق احياء اللغة العربية وآدابها ، وجريدة « لبنان » فى جبل لبنان (٤) ، وجريدة « الفرات » فى ولاية حلب سنة ١٨٦٧ (٥) ، ثم توالى صدور الصحف والمجلات العلمية والادبية والدينية ، وقد كثرت هذه المطبوعات وازدهرت على عهد

---

(١) المرجع السابق ص ص ١٤٧ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢) د. شمس الدين الرفاعى — مرجع سبق ذكره ص ص ٥٦ — ٦٢ .
، د. عبد الكريم غرايبة — مرجع سبق ذكره ص ١٨٤ .

(٣) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ص ١١٤ — ١١٥ .

(٤) د. شمس الدين الرفاعى — مرجع سبق ذكره ص ص ٧٥ — ٨١ .

(٥) الغزى (كامل بن حسين البالى الحلبى الشهير بالغزى) نهر الذهب فى تاريخ حلب (٣ اجزاء) المطبعة المارونية ، حلب ١٩٢٦ ج ٣ ص ص ٣٩٣ — ٣٩٤ .

السلطان عبد العزيز لتساهله ، وعدم تعصبه الدينى (١) ، فقد صدر فى الشام فى الفترة ما بين عامى ١٨٦٥ و ١٨٧٦ عشر مجــــلات شــــهرية واسبوعية ، وست صحف بين سياسية ودينية ، وكانت هذه الصحف والمجلات حتى عام ١٨٧٥ باستثناء الجرائد الرسمية واليهودية فى القدس صحفا مسيحية فى بيروت ، وكانت جريدة « ثمرات الفنون » أول جريدة عربية اسلامية فى بيروت ، وكان يقوم على اصـــدار هذه الصحف خيرة الشباب المثقف والبعثات العلمية المسيحية ، عاملين على النهوض باحياء التراث العربى والعزة القومية (٢) ، لذلك لا غرابة أن كانت سنة ١٨٧٥ هى على وجه التقريب بداية ظهور الفكرة القومية العـــربية المتمثلة فى جمعية بيروت السرية على أيدى مسيحى الشام كما سنرى .

ثم كان عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ — ١٩٠٩) الذى تولى العرش على شريطة اصدار دستور سنة ١٨٧٦ الذى يعترف (فى مادته الثانية عشرة) بحرية الصحافة ، « ان المطبوعات هى حرة ضمن دائرة القانون » (٣) . وفى هذه الفترة من الحرية الصحفية صدرت بعض الجرائد مثل : « لسان الحال » لخليل سركيس ، ومجلة الطبيب فى بيروت سنة ١٨٧٧ (٤) ، ولكن لم ينبث عبد الحميد أن انقلب على الدســـتور وأخذ يصادر الحريات وفى مقدمتها حرية الصحافة عندما نشبت الحـــرب الروسية العثمانية ، فعطلت الصحف التى جاهرت بعدائها للسلطان مثل جريدتى الشهباء والاعتدال وغــــيرهما ، ولكن على الـــرغم من اضطهاد الصحافة وتشديد الرقابة عليها طوال العصر الحميدى لم ييأس المفكرون الشـــاميون بل اخذوا يصدرون النشرات السرية ، والصحف الواحـــدة تلو الأخرى تحت أسماء مختلفة ، وكان مدحت باشا — أثناء ولايته على ســـوريا — سندا قويا للصحافة الحرة (٥) ، وقد صـــدرت فى تلك الفترة صحف ومجلات كثيرة منها على سبيل المثال : المصباح وبيروت ومـــرآة الاخلاق والفوائد والأحوال ، ولبنان وطرابلس ، والـــروضة والشذور والمشرق والشمس والحديقة والنصير والاقبال وغيرها كثير (٦) ، وقـــد استطاعت بعض هذه الصحف — على الـــرغم من شدة الـــرقابة — أن

---

(١) د. شمس الدين الرفاعى — مرجع سبق ذكره ص ص ٨١ — ٨٢ .
(٢) د. عبد الكريم غرايبة — مرجع سبق ذكره ص ص ١٨٣ — ١٨٥ .
(٣) ساطع الحصرى — البلاد العربية والدولة العثمانية (القانون الاساسى المادة ١٢) ص ٢٥٨ .
(٤) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ص ١٤٦ .
(٥) د. شمس الدين الرفاعى — مرجع سبق ذكره ص ١٢٦ .
(٦) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ص ص ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ .

تستغل جهل رجال الرقابة وتقدم أفكارها التحررية الى القــراء بشتى الصور والأساليب الملتوية مثل : الكواكبى فى صحيفة الاعتدال ، والقبانى فى ثمرات الفنون ، والبستانى فى صحيفتى الجنة والجنان (١) .

وأما صحافة العراق فلم تكن ذات أثر يذكر فى ظهور الفكرة القومية العربية اذا ما قورنت بصحافة الشام أو مصر وذلك لعاملين : أولهما — انه لم تظهر صحف فى العراق طوال القرن التاسع عشر حتى جاء مدحت باشا واليا على العراق ، فأصدر أول جريدة عراقية فى بغداد سنة ١٨٦٩ وهى « الزوراء » (٢) ، ثانيهما — ان جــريدة الزوراء والموصـــل التى صدرت سنة ١٨٥ ، والبصرة سنة ١٨٩٥ (٣) كانت كلها جرائد رسمية ، وعلى ذلك « لم تظهر صحيفة عربية أهلية فى العراق الا بعــد ســـقوط عبد الحميد سنة ١٩٠٨ » (٤) وذلك باستثناء بعض الصحف الطائفية مثل صحيفة « روبير ميشارم » اليهودية التى صدرت فى سنة ١٨٧٠ ، وقــد تعرضت هذه الصحف الرسمية فىالعراق وفى غيرها منالولايات العثمانية لنقد شديد من قبل بعض الكتاب الاحرار ، كأحمد فارس الشدياق ؛ الذى انتقد هذا الوضع فى جريدته « الجوائب » مطالبا بصدور صحافة أهلية حرة لا تكون فى خدمة الولاة للتعبير عن آرائهم وكيل المديح لهم (٥) .

على أنه لايفهم مما سبق أنالعراق قد أجدب من المفكرين والكتاب، وان الصلة قد انقطعت بينه وبين العالم ، فقد كان أدباء العراق ومفكروه ينشرون المقالات والقصائد الشعرية ذات المستوى الادبى الرفيـــع فى صحيفة الجوائب بالآستانة ، وفى جريدة الزوراء الرســـمية التى كانت أيضا تنقل الى القارىء العربى فى العراق انباء أوربا والاحداث البارزة فى العالم العربى .

وجدير بالذكر أن الحركة القومية فىالعراق — وانكانت قد صادفت بعض العقبات نتيجة انقطاع الصلة فكريا بين العراق والدول العربية خاصة مصر والشام — قد غذتها من جهة أخرى حركة الاصلاح الدينى — الحركة الوهابية — التى وجدت فى العراق تربة خصبة ، فلك أن فكرتى العروبة والاسلام كانتا مختلطتين الى حد كبير فى العراق ، الامر الذى

(١) د. شمس الدين الرفاعى — مرجع سبق ذكره ص ص ١٤١ — ١٤٢ .
(٢) د. عبد العزيز نوار — مرجع سبق ذكره ص ٣٨٥ .
(٣) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ص ١٤٧ .
(٤) د. عبد العزيز نوار — مرجع سبق ذكره ص ٣٨٦ .
(٥) المرجع السابق ص ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

نتج عنه أن صار دعاة الحركة الاصلاحية السلفية هم أنفسهم دعاة الحركة العربية فى العراق (١) .

سادسا — الجمعيات :

كان هناك بجانب العوامل السابقة نشاط ثقافى واجتماعى وسياسى كبير قام به المفكرون العرب — لاسيما فى الشام — فقد شكلوا الجمعيات العلمية والادبية ، والقوا فيها المحاضرات المختلفة وأصدروا المجلات والنشرات لترويج افكارها ومبادئها ، وكانت هذه الجمعيات هى الميدان الذى تدرب فيه اعضاؤها على الحياة والنظم البرلمانية ، ثم تطور الامر الى تشكيل الجمعيات السياسية السرية ونشر بعض الدعوات الخطيرة والأفكار الجريئة عن مطالبهم القومية وعن انظمة الحكم الحديثة ، مما كان له اعظم الأثر فى ظهور الفكرية القومية العربية .

ا — جمعية الآداب والعلوم (٢)

وقد انشئت هذه الجمعية فى بيروت سنة ١٨٤٧ ، وهى أول جمعية انشئت فى البلاد السورية (٣) بل وفى أى بقعة من بقاع العالم العربى ، وقد تأسست هذه الجمعية بمساعدة أعضاء البعثة التنصيرية الأمريكية وبناء على اقتراح اديبى سوريا الشهيرين بطرس البستانى ونصيف اليازجى (٤) ، وقد كان الغرض من انشائها « نشر العلوم وترقية الفنون بين ابناء العربية » (٥) ، وذلك « عن طريق اتصالهم بالثقافة الغربية »(٦) وقد انضم اليها نخبة من الادباء والمفكرين السوريين والأمريكيين ، كما انتسب الى عضويتها رجل انجليزى كان يقيم فى بلاد الشام هو الكولونيل تشرشل ، وقد بلغ عدد أعضائها بعد عامين من تأسيسها خمسين عضوا جميعهم من المسيحيين ، وقد عاشت هذه الجمعية مدة خمس سنوات عقدت خلالها ٥٣ جلسة القيت فيها الخطب وجرت فيها المناقشات

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٥٨ — ٤٥٩ .

(٢) يطلق عليها الدكتور محمد بديع شريف اسم « الجمعية السورية » (مرجع سبق ذكره ص ٨٠) ، كما يعتبرها الدكتور عبد الكريم غرايبة مرحلة أولى للجمعية العلمية السورية ، وذلك نظرا لان مؤسسى الجمعية العلمية السورية هم أنفسهم مؤسسو جمعية الآداب والعلوم (مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٥) .

(٣) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩ .

(٤) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١١٦ — ١١٧ .

(٥) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠

(٦) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ١١٦ .

العلمية ، واصدرت فى عامها الأخير كتابا عن أعمالها حرره البستانى ، وكان هذا الكتاب يتضمن عرضا شاملا لكل ماقامت به الجمعية من نشاط وتلخيصا موجزا لكل البحوث التى القيت أثناء اجتماعاتها (١) ، وقد كان لهذه الجمعية — بجانب فضل السبق — فضل آخر أعظم اثرا على الحركة القومية العربية ، وهو ان أول صوت لهذه الحركة الوليدة قد صدر من احدى الجمعيات الاولى التى انبثقت عن هذه الجمعية — كما سيأتى — وقد تألفت جمعيات أخرى على غرارها كان لها دور مهم فى ظهور الحركة القومية العربية .

ب — الجمعية الشرقية :

لم يلبث اليسوعيون الكاثوليك أن حذو حذو الامريكيين البروتستانت فأسسوا الجمعية الشرقية سنة ١٨٥٠ ، وقد تألف اعضاؤها — كسابقتها — من السوريين والأجانب وكانوا جميعا من المسيحيين ، وقد اقتصر نشاطها ايضا على الاجتماعات الدورية التى تلقى فيها الابحاث ، ولكنها لم تعمر طويلا فقد انفرط عقدها فى وقت واحد مع جمعية الاداب والعلوم الامريكية سنة ١٨٥٢ أو بعدها بقليل (٢)

جـ — الجمعية العلمية السورية :

وكان اهم هذه الجمعيات الجمعية العلمية السورية التى تأسست سنة ١٨٥٧ ، اذ كانت تختلف عن سابقتيها فى ناحيتين على جانب كبير من الاهمية وهما :

اولا — ان كل اعضائها كانوا من العرب ، فلم ينضم الى عضويتها احد من الاجانب على الاطلاق .

ثانيا — انها كانت تضم الى جانب الاعضاء المسيحيين أعضاء من العرب المسلمين ، مما يدل دلالة واضحة على تقدم الوعى القومى العربى وارتفاعه فوق الخلافات الطائفية .

---

(١) د. عبد الكريم غرايبة — مرجع سبق ذكره ص ٢١٥ ، جورج أنطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ١١٧ ، د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠ .

(٢) جورج أنطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ١١٨ ، د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩ ، د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠ ، د. عبد الكريم غرايبة — مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢١ .

وكانت اهداف هذه الجمعية ووسائلها وقوانينها وأنظمتها كلها على غرار الجمعية التى انشئت عام ١٨٤٧ ، على الرغم من أن حوادث الستين ، وما صاحبها من اضطرابات ، قد ادت الى توقف نشاطها الا انه قد أعيد تشكيلها على نطاق واسع (١) واعترفت الدولة العثمانية بها رسميا سنة ١٨٦٨ ، وعقدت اجتماعا حضره متصرف لبنان — كامل باشا — الذى انضم اليها هو وعدد من كبار رجالات الدولة ، وأذن لها بنشر أعمالها ؛ ووسعت الجمعية نشاطها وبلغ عدد أعضائها أكثر من مائة وخمسين عضوا من الشخصيات العربية البارزة فى سوريا ومصر والآستانة (٢) .

وهكذا — ولأول مرة تحت الحكم التركى — استطاعت المثل العليا المشتركة أن تجمع بين العقائد والطوائف المتناحرة ، وتجعلها رابطة واحدة فى ايجابية فعالة من اجل العمل على تحقيق الأهداف المشتركة المتمثلة فى تقدم البلاد العربية على أساس الوحدة القومية ، يؤلف بينهم اعتزازهم بالتراث العربى الامر الذى أصبحت معه هذه الجمعية مهدا للحركة السياسية . ولذلك يمكن اعتبارها أول مظهر من مظاهر الوعى القومى الجماعى (٣) ، فمنها انطلق أول صوت للحركة القومية وذلك فى قصيدة وطنية القاها ابراهيم اليازجى فى اجتماع سرى لبعض أعضاء الجمعية العلمية السورية سنة ١٨٦٨ ، وقد كانت هذه القصيدة ، بمثابة دعوة صريحة للعرب الى الثورة والتخلص من الحكم التركى (٤) .

---

(١) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره — ص ص ١١٨ — ١١٩ ، الامير مصطفى الشهابى — مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥ .

(٢) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠ ، د. عبد الكريم غرايبة — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢١٦ — ٢١٧ .
، توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ .

(٣) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ١١٩ ، د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩ .

(٤) أما مطلع هذه القصيدة فهو : —

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

وجاء فيها : —

فيما التعلل بالآمال تخدعكم ... وأنتم بين راحات القنا سلب
الله أكبر ما هذا المنام فقد ... شكاكم المهد واشتاقتكم الترب
فشمروا وانهضوا للامر وابتدروا ... من دهركم فرصة ضنت بها الحقب
اقداركم فى عيون الترك نازلة ... وحقكم بين أيدى الترك مغتصب
فيا لقومى وما قومى سوى عرب ... ولن يضيع فيهم ذلك النسب
صبرا هيا أمة الترك التى ظلمت ... دهرا فعما قليل ترفع الحجب

وهكذا نجد ان حركة القومية العربية ، بدات كحركة ادبية تعمل على احياء اللغة العربية وآدابها وبعث التراث الفكرى العربى والافادة منه ، وقد قامت الجمعيات الآدبية بهذا الدور البارز الذى تحول الى دور العمل السياسى حين تالفت جمعية بيروت السرية سنة ١٨٧٥م (١)

د — جمعيات أخرى :

وبالاضافة الى تلك الجمعيات السابقة انشىء فى الشام عدد كبير من الجمعيات ذات الأنشطة المختلفة الا انها اسهمت — من غير شك — فى النهضة العربية التى تولدت منها الحركة القومية العربية الحديثة منها « الجمعية الادبية » فى طرابلس سنة ١٨٥٠. ، وقد اسسها عددمن الادباء حيث القيت فيها الخطب والابحاث ، وقد اغلقت سنة ١٨٧٧ عقب نشوب الحرب الروسية العثمانية ، و « الجمعية العلمية »فى بيروت سنة ١٨٦٦. وقد اسسها بعض طلاب الكلية السورية (الجامعة الامريكية) لتدريبهم على الخطابة والبحث والمناقشة تحت اشراف احد الاساتذة ، وكان من اعضائها جورج ينى ، وجرجى زيدان ، و « جمعيـــة شمس البر » فى بيروت سنة ١٨٦٩ ، وقد تأسست كفرع لجمعية اتحاد الشبان المسيحيين فى انجلترا ، وقد انضم اليها بعض خريجى المدارس الامريكية اكثرهم من الأطباء وأصحاب الصحف ، وفتحت الجمعية فـــرعا لها فى دمشق سنة ١٨٧٤ باسم « جمعية رباط المحبة » ، و « جمعية زهـــرة الاداب » فى بيروت سنة ١٨٧٣ ، وقد جعلت هدفها تدريب الشباب على الخـــطابة والمناقشة والبحث وتأليف التمثيليات ، وكان من أبرز أعضائها ابراهيم اليازجى وأديب اسحاق ، و « الجمعية التاريخية السورية » فى دمشق سنة ١٨٧٥ وكان هدفها تشجيع البحث التاريخى مع عـــدم التعـــرض

= سنطلبن بحـد السيف مآربنـــا _ فلن يخيب لنا فى جنبـــه الارب
ونتركن علوج التــرك تنــدب ما قـــد قدمتـــه أياديهـــا وتنتحب
ومـــن يعش ير والايام مقبـــلة يلوح للمـــرء فى احـــداثها العجب

(انيس الخورى المقدسى — الاتجاهات الادبية فى العالم العربى الحديث — جزءان ط ١ — ج ١ بيروت ١٩٤٩ ج ٢ بيروت ١٩٥٢ — منشورات كلية العلوم والآداب ، جامعة بيروت الامريكية ، ج ١ ص ٨٠ .

، د. نبيه أمين فارس فى مقدمته لكتاب جورج انطونيوس ، مرجع ســـبق ذكره ص ١٤ ، توفيق برو — مرجع سبق ذكره ص ص ٢٦ ، ٢٧ ، محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ص ص ٩٢ — ٩٣ ، الامير مصطفى الشهابى — مرجع سبق ذكره ص ص ٤٥ ، ٤٧ .

(١) ولاهمية هذه الجمعية والدور البارز الذى قامت به فى الحركة القومية العربية ارجانا الكلام عليها ، وسوف نتحدث عن نشاطها بالتفصيل أثناء حديثنا عن مظاهر الحركة القومية العربية فى القرن التاسع عشر .

للامور الدينية والسياسية ، و « جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية » فى بيروت سنة ١٨٧٨ ، وهى أول جمعية اسلامية ، وكان هدفها نشر العلم بين المسلمين وفتح المدارس للبنين والبنات ، وقد أرسلت الجمعية سنة ١٨٧٩ خمسة طلاب لدراسة الطب فى مصر على نفقة الجمعية ، و«جمعية المدارس الارثوذكسية » فى حمص سنة ١٨٨٨ ، و « الجمعية السورية الارثوذكسية » فى بيروت ، و « الجمعية الصناعية » فى بيروت سنة ١٨٨٩ (١) ، و «جمعيةزهرةالاحسان» فى بيروت سنة ١٨٨٠ ، و «جمعية يقظة الفتاة العربية » فى بيروت سنة ١٨٨٥ (٢) .

وبالاضافة الى تلك الجمعيات الشامية فقد أنشىء فى مصر فى تلك الفترة عدد كبير من الجمعيات التى لعبت دورا بارزا فى اليقظة الادبية والسياسية ، وكان من ابرزها : « الجمعية الخيرية » التى أسسها محمد عارف باشا سنة ١٨٦٨ ، وكان هدفها نشر الكتب النافعة وقد أنشأ ابراهيم بك المويلحى حينذاك مطبعة باسم الجمعية لطبع تلك الكتب . وقد حلت هذه الجمعية أثر وفاة محمد عارف باشا فى الاستانة التى فر اليها على اثر التنازع السياسى بين أفراد الاسرة الخديوية ، حيث كان يناصر فريقا على الفريق الاخر، ومنها أيضا «الجمعية الخيرية الاسلامية» التى تأسست فى الاسكندرية عام ١٨٧٨ ، وكانت علمية أدبية تشوبها الروح السياسية والاجتماعية (٣) ، و « جمعية الشورى العثمانية » سنة ١٨٩٧ (٤) ، وقد ظهرت فى مصر قبيل الثورةالعرابية جمعيتانسياسيتان: الاولى — اطلق عليها « الحزب الوطنى » (٥) وقد تأسست سنة ١٨٧٩ للمطالبة بمنع التغلغل الاجنبى فى مصر ، وباشراك ممثلى الشعب فى الحكم باقرار حقهم فى مراقبة الحكومة ، واجراء الاصلاحات الضرورية ، وكان لهذا الحزب اثر كبير فى ظهور الثورة العرابية ، والثانية — « جمعية مصر الفتاة » (٦) وقد نشأت فى الاسكندرية فى نفس الظروف ولذات الهدف ، وكانت تصدر جريدة باسمها (٧) ، ولا نستطيع أن نغفل أثر هاتين الجمعيتين فى الحركة القومية العربية بجانب انهما يعدان مظهرا من مظاهر الوعى الوطنى المصرى .

---

(١) د. عبد الكريم غرايبة — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٢١ — ٢٢٤ .
(٢) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٨ .
(٣) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ص ص ٨٠ — ٨١ .
(٤) سوف نتحدث بالتفصيل عنها بعد قليل .
(٥) وهو غير الحزب الوطنى الذى انشاه مصطفى كامل بعد ذلك .
(٦) وهى غير حزب مصر الفتاة الذى اسسه احمد حسين وفتحى رضوان فى الاربعينات من القرن العشرين .
(٧) الرافعى — الثورة العرابية — النهضة المصرية ط ٢ القاهرة ١٩٤٩ ص ص ٧٠ — ٧٢

وقبل أن نختتم الحديث عن العوامل التى ساعدت على ظهور ونمو الفكرة القومية العربية يجدر بنا أن نشير الى انه كان يوجد – بالاضافة الى تلك العوامل السابقة – عوامل أخرى أسهمت بقدر لا بأس به فى ظهور الفكرة القومية ونموها ومنها : احتكاك العرب بالفكر الأدبى عن طريق التجارة والبعثات العلمية والسياحة والصحافة وطرق المواصلات المختلفة التى قربت العرب من بعضهم ومن غيرهم ، وجعلتهم أكثر اهتماما بقضاياهم وقضايا الشعوب الاخرى ، وجعلتهم أكثر تأثرا بالافكار الاصلاحية التحررية ، والحركات الاستقلالية فى أوربا (١) التى امتدت عدواها الى شعوب البلقان الخاضعة للدولة العثمانية حيث ثارت هذه الشعوب ، واستطاع بعضها بتعضيد الدول الاوربية أن تنفصل عن جسم الدولة (٢) ، الامر الذى حرك فى نفوس العرب كوامن العزة القومية ، وأيقظ فيهم الرغبة والتطلع الى الحرية والاستقلال .

---

(١) د. نور الدين حاطوم – مرجع سبق ذكره ، ص ٩ .
(٢) د. محمد بديع شريف – مرجع سبق ذكره ص ٨٣ .

الفصـــل العـــاشر

مظاهر الحركة القومية العربية فى القرن التاسع عشر

الظروف والاتجاهات التى احاطت بنشأة الحركة القومية العربية :

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن بداية الحركة القومية العربية أن نلقى الضوء على الظروف والاتجاهات التى احاطت بنشأة تلك الحركة :

أولا — انه يلاحظ فى نشوء تلك الحركة أن المسيحيين قد قاموا بدور كبير فى اثارة الوعى القومى لدى العرب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وذلك لعدة امور : منها انه نتج عن اهمال العثمانيين لتعليم اللغة العربية ، بل ومطاردتها ، أن اللغة العربية وآدابها لم تجد ملجأ سوى الارساليات المسيحية فى بلاد الشام بالذات ، بسبب ظروفها الخاصة من كثرة عدد المسيحيين ، ووجود الاماكن المقدسة ، وقد كان التعليم فى مدارس هذه الارساليات يجرى باللغة العربية ، الامر الذى اتاح للمسيحيين فرصة الاطلاع والبحث فى تاريخ العرب ولغتهم وآدابهم (١) ، ومنها أن المسيحيين فى بلاد الشام كانوا يعيشون فى مستوى اقتصادى رفيع ، فقد كانوا قطاعا نشطا ، وذلك نتيجة تأييد فرنسا وحمايتها وامتيازاتها فى الدولة العثمانية ، واتصالهم الوثيق بأوربا أكثر من العرب المسلمين ، اذ قاموا بدور الوسيط بين الغرب والبلاد العربية من الناحية التجارية ، الامر الذى أتاح لهم التأثر بالفكر الغربى والحضارة الغربية أكثر من المسلمين (٢) ، ومنها شعور المسيحيين العدائى تجاه الدولة العثمانية التى كان المسلمون فيها « يتمتعون وحدهم بحقوق المواطنين الكاملة ، وكانوا يحتكرون لانفسهم امتيازات لا تتاح لأصحاب العقائد الاخرى » (٣) ، وبذلك كان المسيحيون يعتبرون أنفسهم مواطنين غرباء فى بحر اسلامى شاسع ، فلم يشعروا فى ظل الحكم العثمانى بأن

---

(١) د. محمد انيس — مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٤ ، د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ص ٤٧ — ٤٨ ، د. شمس الدين الرفاعى — موجع سبق ذكره ص١١٠

(٢) ساطع الحصرى — محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٦١ ، د. زين نور الدين — مرجع سبق ذكره ص ص ٤٧ — ٤٨ ، د. محمد انيس — مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٥ .

(٣) جورج أنطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٩٤ — ٩٥ .

الحكومة العثمانية حكومتهم (١) ، بل « كانوا يعيشون على هامش حياة الدولة شأنهم شأن سائر العناصر المسيحية التابعة للسلطنة العثمانية من أروام وأرمن وبلغار ... » (٢) ، لذلك لا غرابة اذا وجدنا موارنة لبنان يطالبون بالانفصال التام عن الدولة العثمانية عقب نشوب الحرب الأهلية فى لبنان سنة ١٨٦٠. ، هذه الحرب التى لا يمكن بأى حال اعتبارها حركة عربية ذات هدف قومى بل الاصح أن يطلق حركة طائفية (٣) .

ثانيا — ان نشأة الحركة القومية العربية كانت تختلف عند المسيحيين عن نشأتها بين المسلمين ، وكان من الطبيعى أن تمضى مدة من الزمن قبل أن تتقارب هذه الانماط ، وتنتهى الى شكل يشترك ويتساوى أمامه المسلمون والمسيحيون على حد سواء ، ذلك أن الدولة العثمانية كانت دولة اسلامية بكل معنى الكلمة ، فالمسلمون كانوا يشاركون فى حياة الدولة العامة مشاركة فعالة ويتأثرون بانتصاراتها ، وانكساراتها ، كما كانوا يحترمون السلطان العثمانى ، باعتباره خليفة المسلمين ، ومن ثم كانوا يندمجون فى الدولة باعتبارها دولتهم ، وأما المسيحيون فكانوا يعتبرون كسائر مسيحى الدولة من رعاياها فقط ، يعيشون على هامش حياتها ، فضلا عن ذلك كانت لهم تشكيلاتهم وحقوقهم الطائفية التى اعترفت بها الدولة مما أكسبهم كيانا اجتماعيا خاصا بهم ميزهم عن سائر عناصر الدولة (٤) ، ومن ثم كانت نشأة الحركة القومية بين المسيحيين تختلف فى فكرتها عن نشأتها بين المسلمين .

كانت نظرة المسلمين البحتة الى التاريخ جعلتهم ينظرون الى الخلافة العثمانية على أنها حلقة اخيرة فى سلسلة نظام الخلافة الاسلامية ، ولكن عندما بدات الاذهان تستيقظ من ثباتها الطويل ، أخذ يتولد فى عقول العرب المسلمين وأذهانهم تيارات فكرية جديدة تختلف عما سبق ، ولذلك اتجه التفكير أولا فى أمور الخلافة الاسلامية الى بطلان تلك الخلافة فى آل عثمان لانتفاء « النسب القرشى » ، ولان التنازل عن الخلافة لهم قد تم تحت القسر والاكراه ، ومن ثم يكون سلاطين آل عثمان ليسوا خلفاء شرعيين ، وان الخلافة الاسلامية من حق العرب فيجب أن تعود اليهم ، وهذه كانت أولى مظاهر الفكرة القومية عند العرب المسلمين

---

(١) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ص ٣٦ .
(٢) ساطع الحصرى — محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ص ١٦١ .
(٣) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٤٦ — ٤٧ .
(٤) ساطع الحصرى — محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ص ١٦٠ — ١٦٢ .

وهى كما نرى فكرة ممزوجة باعتقاد دينى ، ومرتبطة بغايات دينية ، الا انها لم تقف عند هذا الحد بطبيعة الحال ، بل تطورت فيما بعد الى فكرة قومية مستقلة عن الاعتبارات الدينية ، وكان يوجد بجانب هذا الاتجـــاه الدينى من ينادى بالاصلاح العربى فى اطار الدولة العثمانية ، ومن ينادى بالاشتراك مع احرار الترك بالاصلاح العام والتجديد للدولة العثمـــانية على اساس انه يفيد البلاد العربية كجزء من الدولة العثمانية (١) .

على انه يمكن القول انه لم يوجد بين العرب المسلمين طوال القرن التاسع عشر ، وحتى سنة ١٩٠٨ من كان ينادى بالاســـتقلال التام والانفصال عن الدولة العثمانية على أساس قومى بحت (٢) أما بعد هذا التاريخ فقد تطورت العلاقات بين العرب وجماعة الاتحاد والترقى على نحو أدى الى قيام الثورة العربية ابان الحرب العالمية الاولى .

اما العرب المسيحيون فقد ادى عدم ارتباطهم بالدولة العثمـــانية ارتباطا قلبيا الى نظرتهم للتاريخ العربى على انه تاريخ اســـلامى محض لا يخصهم ، ولكن قام من بينهم جماعة من المتنورين الذين درسوا التاريخ العربى من الكتب الغربية ، فتوصلوا الى ان الامة العـــربية كان لها حضارة قبل الاسلام ، وأخرى أعظم بعد الاسلام ، وأن المسيحيين قد اسهموا فى بناء تلك الحضارة فى طوريها ، وأن هـــذه الحضارة لم تكن دينية بحته ، بل ان لها كثيرا من العناصر والمظاهر التى لا تمت الى الدين بصلة ، بدليل اقتباس اوربا منها الشىء الكثير ، وانتهوا فى تفكيرهم الى انه يجب على العرب المسيحيين أن يفتخروا بالتاريخ العربى والحضارة العربية واعادتها الى ما كانت عليه من المجد والسؤدد فى العصـــور السابقة ، وهذه كانت البذرة الاولى لفـــكرة القومية العربية المتجردة من الاعتبارات الدينية ، ومن ثم بدأ التفكير فى القومية العربية عند العرب المسيحيين قبل أن يبدأ عند المسلمين منهم ، كما أن الكتاب والشـــعراء الذين سبقوا غيرهم فى الدعوة بحماس الى النهضة العـــربية كانوا من العرب المسيحيين (٣) ، غير أن انتشار هذه الفكرة بين المسيحيين جرى ببطء شديد ، نظرا لان المطامع الاوربية فى البلاد العربية كانت تدفـــع ساستها وبعثاتها التنصيرية الى بذل جهود كبيرة لابعاد المسيحيين عن

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٢ — ١٦٤ .

(٢) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٦٩ — ٧١ ، ٨١ .

(٣) ساطع الحصرى — محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ص ١٦٥ — ١٦٦ ، الامير مصطفى الشهابى — مرجع سبق ذكره ص ٤٣ .

فكرة العروبة خدمة لمصالحها الاستعمارية ، وذلك باذكاء نيران التعصب الدينى الطائفى فيما بينهم ، الذى كان غالبا ما ينتهى بالحرب الاهلية وشعور بعض هذه الطوائف بحاجتها الى نوع من الحماية الاجنبية ، كما حدث فى لبنان ابان فتنة الستين (١) .

ثالثا — كما يلاحظ ان الحركة القومية ، وان كانت قد بدات على يد المسيحيين العرب الذين تعلموا فى المدارس الاجنبية ، فقاموا بتأثير هذه المؤثرات الاجنبية ، أو بتأثير وعى قومى عربى حقيقى ، أو بعداوتهم للدولة العثمانية باعتبارها دولة اسلامية ، فدفعوا بالقومية العربية الى الامام ، وكان لهم فضل كبير عليها بتوجيهها اتجاها انفصاليا عن الدولة العثمانية — كما سنرى — الا ان العرب المسيحيين لم يستطيعوا قيادة حركة ثورية تهدف الى تحرير العرب وتخليصهم من نير السلطان العثمانى المسلم الذى كان خليفة المسلمين فى الوقت ذاته ، ولذلك لم تزدهر الحركة القومية العربية ، وتأخذ طابعها السياسى القومى الحقيقى الا عندما تصدى المسلمون لقيادتها فى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (٢) ، وذلك لان المسيحيين فى تزعمهم للحركة القومية كانوا يتطلعون الى بعض الدول الاوربية لتخليصهم ليس فقط من الحكم التركى ، ولكن كذلك من سيطرة المسلمين ، الذين كان المسيحيون — بتأثير الافكار الغربية — يخشون الاستقلال تحت سيطرتهم (٣) ، وكانت الدول الغربية من جهة أخرى تسعى لاحتضان الحركة القومية العربية لاستخدامها فى تحقيق اطماعها الخاصة بمحاولة الاتفاق مع القوميين العرب وخاصة المسيحيين (٤) .

على ان هناك عامل هام ساعد اكثر من غيره على انتقال قيادة الحركة القومية من أيدى المسيحيين الى أيدى المسلمين الا وهو انتشار التعليم الغربى ، ذلك أن البعثات التنصيرية التى اخذت على عاتقها نشر هذا التعليم — بجانب أنها كانت ذات طابع سياسى ، واداة لتغلغل النفوذ السياسى الاجنبى فى الشام — قد ساعدت على ازدياد النفوذ السياسى لرجال الدين ، مما نتج عنه بذر بذور الخلافات المذهبية الداخلية نتيجة لتنافس هذه البعثات وحرصها على اكتساب الولاء للدولة التابعة لها ،

---

(١) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ص ص ٤٦ — ٥٢ ، ساطع الحصرى محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ص ١٧٥ .

(٢) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ص ٧٣ — ٧٤ .

(٣) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ص ٣٣١ .

(٤) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ٧٤ .

الامر الذى شكل عقبة من أهم العقبات التى وقفت فى وجه نمو الوعى القومى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان هذه المؤسسات المدرسية الاجنبية قامت بهجوم غير مباشر على مراكز اللغة العربية كأداة للثقافة القومية ، فقد أدى نشاط هذه المدارس والكليات الاجنبية الى تعليم التلاميذ اللغة الاجنبية الخاصة بالدولة التى تنتمى اليها كل مدرسة ، وكان ذلك بطبيعة الحال على حساب اللغة العربية تحقيقا لاهدافهم السياسية من جهة ، ولقصور اللغة العربية فى ذلك الوقت عن مسايرة حاجة التقدم العلمى من جهة أخرى ، وحتى الامريكيين انفسهم الذين كانوا روادا فى احياء تراث اللغة العربية لجأوا الى هذه الطريقة ، وجعلوا — فى عام ١٨٨٠ — اللغة الانجليزية هى لغة التعليم فى الكلية السورية ، مما نتج عنه أن نشأ — بمرور الوقت — جيل من المثقفين العرب يحذق الانجليزية أو الفرنسية او الروسية اكثر مما يحذق لغته الاصلية (١)

وقد كان لهذه الظاهرة أثرها الحاسم على مستقبل الحركة القومية العربية ، ذلك ان تلاميذ المدارس الاجنبية كانوا فى غالبيتهم من المسيحيين ، وذلك لان المسلمين — خشية التنصير — كانوا يؤثرون أن يرسلوا أبناءهم الى المدارس الاسلامية المحافظة ، وان كان مستوى التعليم فيها أقل من المدارس الاجنبية ، الا أنه أبقى على صلتهم بدينهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم وتراثهم العربى ؛ وحتى عند التحاقهم بالكليات التركية لمواصلة تعليمهم كانت نفوسهم تظل متعلقة بالنهضة العربية ، الامر الذى كان له أثره من وجهة النظر القومية ، وهذا بعكس التعليم فى المدارس الاجنبية ، فانه — وان كان أرفع مستوى من الناحية العلمية — قد اضعف التأثير العربى على عقول التلاميذ وابعدهم عن المنبع الذى يغذى الحركة القومية العربية ، وبذلك زاد اهتمام المسلمين بالحركة القومية وتصدروا لقيادتها (٢) .

رابعا — كما يلاحظ ان ظهور الحركة القومية العربية قد بدأ فى الشرق العربى فى وقت مبكر قبل ظهورها فى المغرب العربى ، ويرجع ذلك الى ان الاقاليم العربية فى آسيا ظلت خاضعة لحكم واحد هو الحكم العثمانى حتى قيام الحرب العالمية الاولى ، مما ابقى لديها فكرة الوحدة ، ثم ان حركة الاصلاح فى الدولة العثمانية ابان القرن التاسع عشر كانت ترمى الى المساواة بين مختلف عناصر الدولة ، ولما كان المفكرون العرب

---

(١) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٢) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ٧٣ .

، د. شمس الدين الرفاعى — مرجع سبق ذكره ص ١٣٩ .

فى المشرق العربى اكثر تقبلا لفكرة القومية بتاثير العوامل سالفة الذكر ، فاننا نراهم يتوحدون بقومة رجل واحد ، ويوجهون حركتهم ضد الدولة العثمانية لانهم لم يجدوا امامهم سوى حكم اجنبى واحد هو الحكم العثمانى ، ولان القومية العربية التى تضمهم جميعا على قدم المساواة كانت رائدهم وقاسما مشتركا بينهم ، اما فى المغرب العربى الذى تخلص من الحكم العثمانى فى وقت مبكر ، فقد وقع تحت نير الاستعمار الغربى الذى فتتت اوصاله (١) ، بل وحاول فى بعضها القضاء على كل المقومات ومسخها (٢) لذلك كان طبيعيا ان تتجه الحركات التحررية فى المغرب العربى اتجاها اقليميا محليا ضد الاستعمار الغربى ، اكثر منه اتجاها قوميا ، وأن يكون هذا الاتجاه مطبوعا بالطابع الاسلامى اكثر منهبالطابع العربى ، لان الدين كان فيها مقوما اساسيا وعنصرا قويا فى التوجيه والمقاومة والدفاع (٣) .

أضف الى ذلك اختلاف نظرة اهل المغرب العربى الى الحكم العثمانى عن نظرة اهل المشرق ، فبينما كان اهل المشرق العربى ينظرون اليه على أنه حكم أجنبى استعمارى كان اهل المغرب ينظرون الى الخلافة العثمانية على أنها جمع لشمل المسلمين فى مواجهة أعداء الاسلام ، ولا يترددون فى الاشادة والتنويه بأخوة العثمانيين وفضلهم ونجدتهم وشهامتهم (٤) .

ويمكن تفسير تلك الظاهرة على ضوء الاحداث التاريخية : فبينما استخدم العثمانيون القوة والقهر فى سبيل السيطرة على اقطار المشرق العربى ، حتى أن تقدم العثمانيين اتخذ اسلوب الغزو العسكرى الذى لقى مقاومة شديدة وعنيفة فى معارك مرج دابق وغزة والريدانية والصليبة واطفيح والجيزة ، وغيرها من المعارك التى افقدت العثمانيين صوابهم ، وجعلت السلطان سليم يفكر اكثر من مرة فى الانسحاب بجيشه وترك البلاد لاهلها (٥) .

أما المغرب العربى فنجد أن سيطرة العثمانيين عليه قد تمت بطريقة مختلفةتماما ، فقد كان دخوله تحتالسيطرةالعثمانيةبدعوة منأهلالمغرب

---

(١) فقد احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وتونس ١٨٨١ ، ومراكش ١٩١٢ كما احتلت ايطاليا ليبيا سنة ١٩١١ م .

(٢) فقد حاولت فرنسا فرنسة الجزائر وذلك بمحو صبغتها العربية والقضاء على كل مقوماتها .

(٣) د. نور الدين حاطوم — مرجع سبق ذكره ص ١٢ .

(٤)د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره (ط ٣ دار الفكر ١٩٧٨)صص٤١—٤٣

(٥) أنظر بحث مستفيض للمؤلف بعنوان (السلطان الاشرف طومان باى والمقاومة المصرية للغزو العثمانى) القاهرة ١٩٧٩ .

انفسهم انقاذا لهم من قرصنة الاسبانيين الذين اتجهوا — بعد قضائهم على آخر معاقل المسلمين فى الاندلس بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م — الى مطاردة المسلمين فى سواحل الشمال الافريقى بغية تطويق اقاليم المغرب العربى باحتلال موانيه المطلة على البحر المتوسط ، امعانا فى الانتقام من العرب والمسلمين ، والقضاء على الكيان الاقتصادى العربى بانتزاع تجارة الشرق من أيديهم ، لذلك لا غرابة فى أن يتجه أهل المغرب العربى الى الدولة العثمانية وهى دولة الاسلام الفتية يطلبون نجدتها والدخول تحت سيادتها ، ويرحبون بقواتها ، ولا غرابة أيضا فى أن يظل أهل المغرب العربى يحفظون للدولة العثمانية هذا الفضل ، وينظرون اليها هذه النظرة الاسلامية الخالصة ، لا سيما وانهم لم يعايشوا الحكم العثمانى فى سنواته الاخيرة (عهد الاتحاديين) التى حاول فيها الاتحاديون طمس الشخصية العربية باتباعهم سياسة التتريك التى تطرفوا بها الى حد أن صارت سياسة عنصرية طابعها التعصب لكل ما هو تركى ومحاولة اعلاء الجنس التركى مما يتعارض مع الاخوة الاسلامية (١) .

خامسا — واخيرا يلاحظ فى نشأة الحركة القومية العربية وظهورها أنها بدأت كغيرها من الحركات القومية فى الشرق والغرب بداية ادبية ، تمثلت فى احياء اللغة العربية وآدابها القديمة ، وبعث ذلك المجد الكبير من التراث العربى والفكرى ، ولقد ضرب بسهم وافر فى هذا الميدان عالمان عربيان مسيحيان هما : نصيف اليازجى وبطرس البستانى ، ولا سيما هذا الاخير الذى حارب التعصب الدينى الذى ذر قرنه بعنف أيام مذابح لبنان ، فأنشأ جريدة « نفير سورية » ، ثم انشأ المدرسة الوطنية التى هاجمت التعصب الدينى ، وانصب نشاطها على تخريج جيل وطنى يعتز بعروبته ، ثم أصدر جريدة « الجنان » وجعل شعارها « الوطنية من الايمان » وفى هذه المرحلة أنشئت الجمعيات العلمية المختلفة التى انصب نشاطها على الافادة من التراث العربى (٢) ، ثم تطورت الحركة القومية من الطور الادبى الى طور العمل السياسى ممثلة أول الامر فى جمعية بيروت السرية (٣) .

---

(١) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره (ط ٢ دار الفكر العربى ١٩٧٨) ص ص ٤٣ — ٤٩ .

(٢) سبق أن تحدثت بالتفصيل عن حركة احياء التراث العربى أثناء حديثى عن النهضة الفكرية والجمعيات العلمية والادبية كعاملين من العوامل التى ساعدت على ظهور الفكرة القومية العربية .

(٣) د. محمد انيس — موجع سبق ذكره ص ٢٦٥ .

جمعية بيروت السرية (١٨٧٥)

نشـــأة الجمعيـــة :

بدأ الشعور المعادى للاتراك العثمانيين فى لبنان ، فقد غذته عدة عوامل مثل : انتشار التعليم الغربى ، واحياء اللغة العربية وتأسيس المطابع وظهور الصحف والسياحة فى الخارج ، وعـودة المغتربين من الولايات المتحدة ، وتوثيق الصلة التجارية بالغرب ، والتوسع فى الاخذ بالاساليب الغربية ، هذا فضلا عن عامل آخر هام هو شعور المسيحيين بأنهم غرباء وسط بحر شاسع من المسلمين ، حيث أن الدولة ليست دولتهم مما جعلهم يسعون جاهدين للانفصال عن الدولة العثمانية والحصول على الاستقلال ومن ثم كانت الحركة القومية فى لبنان ضد الاتراك العثمانيين ليست عربية شاملة وانما هى لبنانية مارونية (١) .
ومن ثم أيضا فقد جاء رد الفعل لطغيان عبد الحميد وسياسته الاسلامية من لبنان ، فقد تأسس فى بيروت جمعية سرية عام ١٨٧٥ كان قوامها أول الامر خمسة من الشبان المسيحيين الذين درسوا فى الكلية الامريكية فى بيروت ، وكان لهذه الجمعية فروع فى دمشق وطرابلس وصيدا ، وكانت تهدف الى استقلال لبنان وسوريا ان أمكن ، ولكن مؤسسيها — وهم مسيحيون — ادركوا من اول وهلة ، انه من اجل تحقيق أهدافهم التى يصبون اليها ، لا بد من حصولهم على تأييد العرب المسلمين ليواجهوا الاتراك بجبهة عربية واحدة ، ومن ثم فقد عملوا على أن ينضم الى الجمعية بعض الاعضاء المسلمين ، وبعد ان لبثوا بضع سنوات يتهامسون فى السر فى اهداف جمعيتهم بسبب شدة وطأة حكم السلطان عبد الحميد وجواسيسه ، اهتدوا الى طريقة لصق المنشورات على الجدران فى الشوارع ليلا ، حتى اذا ما طلع النهار تجمع الناس حولها لقراءتها ، وقد تضمنت هذه المنشورات التنديد بمساوىء الحكم العثمانى ، ودعوة العرب للثورة عليه والاطاحة به ، الامر الذى دعا سلطات الآستانة الى تشديد قبضتها ، وبث جواسيسها للتعرف على مصدر هذه المنشورات ، مما نتج عنه أن حلت هذه الجمعية نفسها واحرقت سجلاتها وهاجر معظم اعضائها الى مصر ، وكان ذلك فيما بين سنتى ١٨٨٢ ، ١٨٨٣ (٢) .

---

(١) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ٦٩ ، د. زين نور الدين — مرجع سبق ذكره ص ص ٤٦ — ٤٧ .

(٢) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ص ص ١٤٩ — ١٥١ ، د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ص ٦٩ — ٧٠ ، د. زين نور الدين — مرجع سبق ذكره ص ص ٦٠ — [illegible] .

وجدير بالذكر ان هذه الجمعية قد ضمت بين صفوفها الكتاب والشعراء والمدرسين ، وقد قفز عدد اعضائها الى السبعين منهم : يعقوب صروف ، وابراهيم اليازجى ، وفارس نمر ، وابراهيم الحورانى، وشاهين مكاريوس والياس حبالين وغيرهم الذين قاموا بدور كبير فى ترويج مبادئها وشعاراتها (١) .

منشورات الجمعية :

اما عن منشورات الجمعية التى توضح خطتها وأهدافها وميولها ، فقد ذكر جورج انطونيوس فى كتابه « يقظة العرب » الطبعة المترجمة الى العربية التى بين ايدينا ، انه عثر على ثلاثة نصوص لتلك المنشورات فى مكتب السجلات العامة بوزارة الخارجية الانجليزية بلندن ، كان قد بعث بها القنصل العام البريطانى فى بيروت مرفقه بتقاريره الى حكومته سنة ١٨٨٠ .

المنشور الاول : —

فقد ابرق القنصل البريطانى فى بيروت الى حكومته فى ٢٨ يونيو عام ١٨٨٠ بظهور منشورات تحض على الثورة ضد الاتراك ، ثم أردف البرقية بخطاب فى ٣ يوليو ١٨٨٠ ارفق به منشورا اصدرته تلك الجمعية، ومع انه كان أول منشور وصل الى القنصلية البريطانية غير أنه لم يكن اول منشور أصدرته الجمعية لانه يشير الى منشورات سابقة صدرت قبله ، وعلى الرغم من قصر هذا المنشور وقلة اهميته الا انه اشتمل على لوم اهل الشام لاستكانتهم واستسلامهم لطغيان الاتراك ، ولتأصل الخلافات بينهم مما جعلهم نهبا لمطامع الدول الاوربية ، كما يهيب بالعرب ان يدفنوا خلافاتهم ، وأن يتحدوا فى وجه الطغاة مستلهمين أمجادهم الغابرة ، وقد رسم فى أعلى المنشور شعار يمثل سفا مسلولا وقد كتب تحته البيت الشعر التالى : —

لنطلبن بحد السيف مارينا　　　فلن يخيب لنا فى جنبه أرب(٢)

---

(١) توفيق برو — مرجع سبق ذكره ص ٢٧ .

(٢) هذا البيت من قصيدة لابراهيم اليازجى الذى كان ضمن اعضاء الجمعية وقد سبق ان اشرت الى هذه القصيدة وذكرت بعض أبيات منها .

المنشــور الثــانى : —

وأما المنشور الثانى — وقد أرفق أيضا بالرسالة نفسها — فهــو أكثر عنفا وصراحة فى التنديد بمساوىء الحــكم العثمانى ، حيث اتهم الاتراك بالفشل فى تطبيق الاصلاحات التى وعدوا بها منذ عشرين عاما (١٨٦٠) ابان مذابح سوريا ، مؤكدا بانه لا أمل فى صلاحهم ، ولا خير يرجى على أيديهم ، والشىء الجديد فى هذا المنشور هو المطالبة بالحكم الذاتى لبلاد الشام ، بل ربما الاستقلال كذلك ، ويؤكد هذا المنشور فى نهايته على اصرار كاتبيه على المضى فى طريقهم مهما كلفهم ذلك .

المنشــور الثــالث : —

أما المنشور الثالث — وهو اهم المنشورات الثلاثة — فقــد ارفق برسالة جاء فيها انه الصق على الجدران فى ليلة ٣١ ديسمبرسنة ١٨٨٠، وترجع اهميته الى أنه تضمن اول بيان مكتوب عن برنامج الجمعيـــة السياسى الذى اتفق أعضاؤها على تنفيذه ولو بحد السيف ، وقد أضاف هذا المنشور الى تنديده بالاتراك شرا جديدا من شرورهم ، وهومحاولتهم القضاء على اللغة العربية ، كما ضرب على الوتر الدينى بوصفه الخلافة العثمانية بأنها اغتصاب لحق العرب .

أما أهم نقاط ذلك البرنامج المعلن فهى :

١ — منح الاستقلال لسوريا بالاتحاد مع لبنان .
٢ — الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فى البلاد .
٣ — الغاء الرقابة وكل القيود المفروضة على حرية التعبيــر ونشر العلم
٤ — استخدام الوحدات المجندة من الاقاليم العربية محليا داخل حدود هذه الاقاليم (١) .

على أننا لو تأملنا هذه المنشورات الثلاثة لاستوقف نظرنا حقيقة هامة جديرة بالذكر وهى تطور أفكار الجمعية من التعميم الى التخصيص، ومن النظرة العامة الى الامة العربية ، الى النظرة الاقليمية ، فبينمـــا نجدهم فى المنشور الاول يطالبون العرب بنبذ خلافاتهم وتوحيد جهودهم ضد الاتراك الغاصبين ، نجدهم فى المنشور الثانى يطالبون باســـتقلال

---

(١) جورج أنطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٥٣ — ١٥٥ .

بلاد الشام خاصة ، وفى المنشور الثالث يصفون انتحال السلطان العثمانى للخلافة بأنه اغتصاب لحق العرب ، ثم لا يطالبون فى برنامجهم بخلافة عربية ، أو حتى وحدة عربية ، بل نجدهم يطالبون بوحدة اقليمية ، تضم سوريا ولبنان فقط ، ومنحها الاستقلال ، ولعل ذلك يفسر الدوافع الحقيقية لهؤلاء الشبان التى كان مبعثها النزعة القومية بتأثير اليقظة الادبية ، والنزعة الطائفية بتأثير فظائع سنة ١٨٦٠ (١) ، التى دفعتهم الى المطالبة باستقلال سوريا ولبنان خوفا « من أن تتكشف القومية العربية عن شكل جديد من أشكال التسلط الاسلامى » (٢) .

على انه على الرغم من هذا التقدم الذى احرزته الحركة القومية العربية على ايدى تلك الجمعية ، اذ صار لها برنامج محدد ، فقد قوبلت منشوراتها بالسلبية الصامتة . ولم تجد الوسط الملائم ، اما لانها لم يعلم بها الجانب الاكبر من الاهلين نتيجة اقتصار انتشارها فى عدد محدود من مدن الشام(٣)، أو لم يكن هناك من هو على استعداد لتقبل مثل تلك الافكار الثورية ، لان « فكرة القومية لم تكن بعد قد وجدت طريقها الى وجدان العامة من الناس ، كان ولاء الناس كما كانت جميع الروابط والعلاقات الاجتماعية يقوم على اساس دينى طائفى » (٤) وبذلك يعتبر مثل هذا النشاط الثورى سابقا لاوانه لانه كان يتطلب وعيا قوميا متقدما ، ومع كل هذا فانه اذا كانت تلك الحركة لم يقدر لها النجاح ، فانها قد حددت الرغبات والامانى التى كانت تجيش فى النفوس ، وبذلك تعتبر خطوة الى الامام فى طريق الحركة القومية ، وأول تعبير عن الاهداف السياسية اذ دعت الى فكرة الدولة الوطنية الحديثة المستقلة سياسيا والقائمة على أساس قومى (٥) وذلك فى برنامجها الذى وان لم يحقق نتائج محسوسة، فقد ظلت آثاره كامنة فى طيات الوعى القومى وأصبح معلما فى طريقه(٦).

وجدير بالذكر ان الحركة القومية العربية كانت تبدو ساكنة فى الظاهر طوال الفترة ما بين سنة ١٨٨٠ ونشوب الثورة العربية فى الحجاز سنة ١٩١٦ ، وذلك ليس فقط بسبب سياسة عبد الحميد — التى اعتمدت فى شق منها على الناحية الاسلامية ، وفى شقها الآخر على القهر

---

(١) مصطفى الشهابى — مرجع سبق ذكره ، ص ٤٨ .
(٢) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣١ .
(٣) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص ٧١ .
(٤) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠ .
(٥) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص ٧١ .
(٦) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ١٦١ .

والجاسوسية مما ادى الى هجرة الكثير من الشخصيات القيادية ، وفى جهة ثالثة على التودد والتقرب الى العرب ، هذه السياسة التى ظهرت واضحة فى الشام لانها مهد الحركة القومية ، وان لم تعرقل نمو الحركة القومية الا انها حدث من قوتها رغبة أو رهبة — وانما بسبب نمو التعليم الغربى وازدياد سلطة رجال الدين أيضا (١) .

وفى ذات الوقت الذى كانت فيه جمعية بيروت السرية تدعـــو الى وحدة العرب ، ونبذ خلافاتهم للوقوف فى وجه الحكم العثمانى المغتصب، كانت هناك حركة اخرى تدعو العرب والمسلمين عامة الى وحدةاسلامية لمواجهة الخطر الاستعمارى المطبق على العالم الاسلامى ، وهى حركة الجامعة الاسلامية التى دعا اليها الافغانى فكر واحتضنها الســلطان عبد الحميد وقادها كحركة ، كما سبق أن اشرنا ، وكان لها دور بارز فى اليقظة الاسلامية والعربية .

الافغانى وحركة الجامعة الاسلامية

كانت دعوة الافغانى الى الوحدة الاسلامية هى قمة كفاحهونضاله ضد الاستعمار الاوربى وهى ما أطلق عليها حركة الجامعة الاسلامية . التى احتضنها السلطان عبد الحميد لتكوين جبهة اسلامية قوية تستطيع الوقوف فى وجه الهجوم الاستعمارى على الشرق الاسلامى ، وهــذه الحركة وان كانت تشبه الحركات السلفية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر (الوهابية — والسنوسية — والمهدية) من حيث الشكل والمظهر لانها دعوة اصلاحية ضد المساوىء الدينية والاجتماعية ، التى طــرأت على العالم الاسلامى ، غير أنها تختلف عن هذه الحركات من حيثالجوهر والاتجاه ، لانه بينما كانت تلك الحركات تتجه الى محاربة النفوذالعثمانى، كانت حركة الجامعة الاسلامية ، تدعو الى ضرورة وحدة الصفوفوتكتيل المسلمين شعوبا وحكومات حول الدولة العثمانية ، دولة الاسلامالكبرى، للوقوف أمام الزحف الاوربى على العالم الاسلامى ، وهذه هى العــروة الوثقى التى لا انفصام لها ، اى أن الافغانى كان يعمل — الى جانب اصلاح المساوىء الدينية والاجتماعية — على الوقوف فى وجه النفــوذ الاستعمارى (٢) ، خاصة وانه كان يرد الاستعمار الاوربى الى اساس

---

(١) د. محمود صالح منسى — موجع سبق ذكره ، ص ٧١ — ٧٢ .
(٢) د. عبد المزيز الشناوى — الوحدة العوبية ص ٣٠ .

دينى ، ويعتبره حركة دينية نصرانية موجهة ضد الاسلام (١) .

وكانت جهود الافغانى ترمى الى تطهير الاسلام من الشوائب والبدع التى لحقت به وذلك بالدعوة الى أصول الاسلام الصحيحة ، وجمع شمل المسلمين ، وتوحيد كلمتهم فى سائر أقطار العالم ورفعهم من وهدة الجهل واليأس التى تردوا فيها ، والعمل على تقويتهم عن طريق تنظيم الحكومات الاسلامية القائمة ، وادخال الافكار والانظمة الغربية، التى كانت سر قوة الغرب وتقدمه ، وذلك كى يرفعوا عن كاهلهم كابوس الاحتلال الاجنبى ويتحرروا من تدخل الدول الاجنبية فى شئونهم بعد أن يصبحوا قادرين على تدبير أمورهم تدبيرا حسنا دون الاعتماد على الامم الاوربية (٢) ، وكان سبيله الى ذلك ما دعا اليه باسم الجامعةالاسلامية، التى كان هدفها الرئيسى : هو توحيد جميع الشعوب الاسلامية تحتلواء حكومة اسلامية يقوم على رأسها خليفة لا منازع فى سلطته ، وقد انشأ فى باريس من أجل ترويج هذه الدعوة جريدة العروة الوثقى باسمالجمعية السرية التى أسسها ، وكانت تتألف من مسلمين من مصر والهند وسوريا وشمال افريقيا للعمل على تحقيق تلك الغاية (٣) .

وقد مر تفكير الافغانى فى دعوته تلك بمرحلتين : أولاهما — عندما كان يرفض أعطاء أى وزن للفكر القومى والخصائص القومية مكتفيا بوحدة العقيدة الدينية ، وقد اتسمت هذه المرحلة بعدم الوضوح فى العلاقة ما بين الجامعة الاسلامية وما بين القومية وتكوين المجتمعات على أساس قومى حديث (٤) .

وفى هذه المرحلة نجد الكثير من عبارات الافغانى التى ظهرت على وجه الخصوص فى مقالات العروة الوثقى والتى تتحدث عن « غناء الاسلام عن القومية والجنسية » وقوله بأنه « لا جنسية للمسلمين ، الا فى دينهم » (٥) وقوله : « ان أقوى رابطة بين المسلمين انما فى الرابطة

---

(١) لوثروب ستودارد — حاضر العالم الاسلامى — ترجمة عجاج نويهض ، وتعليق الامير شكيب أرسلان (أربعة مجلدات) مكتبة عيسى البابى الحلبى : القاهرة ١٣٥٢ هـ المجلد الاول ص ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

(٢) محمود أبو رية — جمال الدين الافغانى ، تاريخه ورسالته ومبادؤه — من مطبوعات المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٧ .

(٣) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، هامش رقم ٢ ، ص ٥٨ .

(٤) محمد عماره : الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى ص ص ٤١ — ٤٢ .

(٥) العروة الوثقى ، (مقال الوحدة الاسلامية) ص ٦٩ .

الدينية ... ان قوتهم لا تكون الا بالنسبة الاعتقادية » (١) ومثل قوله : « علمنا وعلم العقلاء اجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية الا فى دينهم واعتقادهم وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الاقطار الاسـلامية وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليدا فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعد ما فقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس التى يبالغون فى تعظيمها واحترامها حماقة منهم وسفاهة فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيىء لنفسه مسكنا سواه فاضطر للاقامة بالعراء معرضا لفواعل الجو وما تصول به على حياته ... فيا أيتها الامة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ودماؤكم فلا تريقوها وارواحكم فلا تزهقوها وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت ، هذه هى روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهوينكم الترهات ولا تدهشكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى ، والفارس بالهندى ، والمصرى بالمغربى وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى أن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وان تنأت دياره وتقاصت أقطاره ، هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله اليكم وفيها عزكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها ولكن عليكم فى رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل » (٢) .

وقد تأثر الافغانى فى هذه الدعوة بالتاريخ الاسلامى وحياة المسلمين الاولى ويتضح ذلك من قوله : « هذا ما أرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الاجناس وانما ينظرون الى جامعة الدين لهذا نرى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارس يقبل سيادة العربى والهندى يذعن لرياسة الافغانى ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض ، وأن المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل الى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها ... ان المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الاديان بالتأثر والاسف عندما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامى بدون التفات الى جنسها وقبيلها » (٣) .

---

(١) المصدر السابق (مقال التعصب) ص ٤٥ .
(٢) المصدر السابق ص ص ٤٥ ، ٤٨ .
(٣) المصدر السابق (مقال الجنسية والديانة الاسلامية) ص ١١

وهكذا كان الافغانى يرى فى هذه المرحلة من تفكيره أن للمسلمين بديل عن القومية يفضلها ومن ثم فان فيه الغناء عنها الا وهو اتحادهم فى الملة فى ظل حكم مثالى يحافظ على الشريعة . وان هذا البديل — عند الافغانى — شرط اساسى لزوال ضرورة بناء الدول على أساس القومية والجنس وعلى ذلك كان يرى « أن المتدين بالدين الاسلامى متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت عن الروابط الخاصة الى العلاقة العامة وهى علاقة المعتقد » (١) ؛ « وما هذا بغريب على المسلمين فان رابطتهم الملية اقوى من روابط الجنسية واللغة » (٢) .

هذه هى دعوة الافغانى الى الجامعة الاسلامية فى مرحلتها الاولى وقد تأثر موقف الافغانى من الدولة العثمانية بتفكيره الاسلامى فى هذه المرحلة ، فعندما رأى أن الاستعمار الاوربى يطبق على العالم الاسلامى من كل اتجاه دعا الى توحيد كلمة المسلمين ، وجمع شتاتهم فى دولة واحدة تحت ظل الخلافة العثمانية الاسلامية التى كان يعلق عليها كبار الآمال فى حماية العالم الاسلامى من خطر الاستعمار الاوربى المسيحى ، ومن ثم جاء قوله بأن : « الذات الشاهانية وهى الاب الاكبر لعموم المسلمين ، وهى الكافلة للشريعة الحافظة للدين ، هى أجدر الناس بالالتفات الى حركة الاعداء فى البلاد الاسلامية وهى لا تألوا جهدا فى تعويق سيرهم واحباط أعمالهم » (٣) . ولذلك فعندما بدأ السلطان عبد الحميد الثانى دعوته الى الجامعة الاسلامية وجد التأييد والعون من الافغانى الذى رأى فيه — اى السلطان — من اليقظة وشدة الحذر واعداد العدة اللازمة للوقوف فى وجه الزحف الاوربى وحسن النية والاستعداد بالدولة الاسلامية فبايعه بالخلافة والملك موقنا بأن الممالك الاسلامية فى الشرق لن تسلم من براثن أوربا الا بالانضواء تحت راية هذا الخليفة العظيم(٤) .

أما المرحلة الثانية التى مر بها تفكير الافغانى فهى اعترافه بقوة الرباط القومى بالاضافة الى وحدة العقيدة الدينية (٥) . ويرجع تطور تفكير الافغانى فى هذا الاتجاه الى أن سياج العزلة الذى فرضه العثمانيون على ممتلكاتهم قد أخذ يتهاوى فى أواخر القرن التاسع عشر بسبب تقدم وسائل الانتقال وانتشار التعليم بشقيه — الوطنى والاوربى — فى الشرق

---

(١) المصدر السابق ص ١٠ .
(٢) المصدر السابق (مقال لماذا صدرت الجريدة) ص ٥ .
(٣) د. محمود صالح منسى ، مرجع سبق ذكره ص ٦٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٦٠ .
(٥) محمد عمارة : الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى ص ٤٢ .

العربى ، هذا فضلا عن ان العصر الذى كان يعيش فيه الافغانى هـو عصر القوميات فى أوربا (١) .

اتجه تفكير الافغانى فى هذه المرحلة وجهة قومية حيث صار يعترف « بأن اللغة عنصر جوهرى فى خلق جماعة مستقرة ، اذ أن المجتمعات البشرية التى لا تجمعها لغة مشتركة لا يمكن لوحدتها أن تكون ثابتة » (٢) ، وتكون معرضة لان تفقد ما هى عليه من المعرفة والمهارة بل ان الجماعة الدينية نفسها تكون أقوى اذا كانت لها لغة مشتركة « فلو تبنى العثمانيون اللغة العربية دون سواها وجعلوها لغة الامبراطورية بأسرها لارتبطت شعوبها برابطتين بدل رابطة واحدة ولكانت متحدة وقوية » (٣) اذ « أن رابطتهم الملية مع رابطة اللسان أقوى من الروابط الجنسية » (٤) ، وهذا تطور هام فى حياة الافغانى وتفكيره واتجاهه القومى ، غير أنه فى الوقت الذى كان يردد فيه بأنه لا سبيل الى تمييز امة عن اخرى الا بلغتها لم يتخل الافغانى عن اتجاهه الاسلامى ، بل حاول التوفيق بين فكرة العروبة وفكرة الاسلام ، حيث كان يرى أن الاسلام كعقيدة انما هو طريق الى التعرب واكتساب خصائص الامة العربية « فان كل من دان بالاسلام او رضى بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر وارتياح عظيم الى التعرب ، فمصر بينما هى هرقلية رومانية ومقوقسها عامل له فيها أصبحت بعد قليل من الزمن اسلامية فى الاغلبية عربية بالصورة المطلقة فى كافة مميزات العرب وهكذا القول فى سوريا والعراق ... المسلم او المسيحى أو اليهودى فى مصر والشام والعراق يحافظ كل منهم على نسبته العربية فيقول عربى ثم يذكر جامعته الدينية ... والاغرب أن التركى والجركسى والارناؤوطى وغيرهم من العناصر يستعرب متى وجد أو سكن فى بلاد العرب بأقرب الاوقات ويمتزج فى المجموع حتى يخال أنه (عربى قح) ... » (٥) .

أصبحت رابطة اللسان عند الافغانى من اهم العوامل التى تستخدمها الامم المقهورة فى جمع شتاتها واسترداد مالها من مجد ، ولذلك أخذ الافغانى يردد عبارة (جامعة اللسان) ، وانه « لا جامعة لقوم لا لسان

---

(١) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ٦٠ .
(٢) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ص ١٤٩ .
(٣) المرجع السابق ص ١٤٩ .
(٤) محمد عمارة : الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى ص ٤٥ نقلا عن الخاطرات ص ٤١٦ .
(٥) المصدر السابق ص ص ٦٤ — ٦٥ (نقلا عن الخاطرات ص ص ٩٧ ، ٩٨) .

لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ... فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهرى فقط بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه ، وذلك ما تم ولا يتم الا باللسان وهو اهم الاركان ... انه من أكبر الجوامع التى تجمع الشتات وتنزل من الامة منزلة أكبر المفاخر ، فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة وترقبت الفرص ، ونهضت بعد دهر فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها اليها ، والعامل فى ذلك انما هو اللسان قبل كل ما سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم وظلوا فى الاستعباد ما شاء الله » (١) .

وفى هذه المرحلة من تفكير الافغانى نجده يطالب باستعراب الاتراك، وجعل اللغة العربية لغة الدولة اذ كان يقول : « لو انصف الاتراك انفسهم لاستعربوا وتراسوا ذلك الملك وعدلوا فى اهله وجروا على سنن الرشيد والمأمون على الاقل ولكانوا اعز جانب واغنى مملكة فى دول الارض » (٢) . وعلى ذلك فلم يكن من المتوقع — ازاء ذلك — أن يستمر الوفاق بين الافغانى والسلطان عبد الحميد الذى كانت تراوده الآمال فى استخدام الافغانى وأفكاره عن الجامعة الاسلامية فى جمع شتات المسلمين حول عرشه ، بينما اصبح الافغانى — وقد رأى سياسة عبد الحميد موجهة ضد الاحرار والثوار من أجل تحقيق مصالحه — يرى أن تشجيع الحركات القومية داخل البلاد الاسلامية لا يتناقض مع فكرة الوحدة الاسلامية التى كان مثلها الاعلى فى نظره اقامة حكومة واحدة تطبق المبادىء الاسلامية ، ولكن لما كان قيام تلك الحكومة أمر يصعب تحقيقه اقتصر الافغانى على المناداة بتقوية الروابط بين الدول الاسلامية القائمة (٣) ولذلك اقترح على عبد الحميد أن يجعل من الولايات العثمانية خديويات تتمتع باستقلال ذاتى على غرار خديوية مصر تبقى كلها خاضعة للخلافة ويأتمر كل خديو بأمر السلطان ، وعندما سأله عبد الحميد : وماذا أبقيت لتخت آل عثمان ؟ فأجابه الافغانى : يبقى مولاى السلطان ملك أولئك الملوك ، فاذا قويت هذه الخديويات ، فانه سرعان ما تنتظم ايران وافغانستان والهند ، ويصبح الاسلام قوة عتيدة يرهب الغرب جانبها ، وتهدأ ثائرته على الاسلام ، فلم يستجب عبد الحميد لهذه الفكرة

---

(١) المصدر السابق ص ص ٦٦،٦٧،٦٨ (نقلا عن الخاطرات) ص ص ١٣٩،٩٩،١٠٤ .
(٢) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ص ٥١ .
(٣) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ٦٣ .

اللامركزية (١) والى جانب ذلك فقد كان ثمة اتجاه دستورى فى دعوة الافغانى ، فقد كان يريد أن يكون الاتحاد الاسلامى اتحادا دستوريا ولذلك كان يسعى الى تحويل الممالك الاسلامية الى ممالك دستورية ، وذلك بنشر الوعى الدستورى بين الشعوب الاسلامية ، وحتى ترغم حكامها على اصدار دساتير تكون من صنع الشعب مما يجعله مستعدا للدفاع عنها لا أن تكون منحة قابلة للمنع والاعطاء — فكان يقول : لا تحى مصر ولا يحى الشرق بدوله واماراته الا اذا اتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا لا مستبدا عادلا ، لان الاستبداد يتنافى مع العدالة ، وقد طلب الافغانى من عبد الحميد تغيير نظام الحكومة تغييرا جذريا واقامة نظام جديد أساسه الشورى وعندما رفض عبد الحميد ذلك يئس الافغانى واتخذ موقفا عدائيا منه حتى انه طلب أن يقيله من بيعته (٢) .

هذه هى دعوة الافغانى التى كان لها شأن كبير فى يقظة العالم الاسلامى عامة والنهضة العربية خاصة بما كان ينشره من مبادىءالحرية؛ وقد كان ظله ثقيلا — بسبب ذلك — على الانجليز وحتى على السلطان عبد الحميد فطورد فى كل مكان وكان يشعل نيران الثورة اينما رحل يقول برنارد ميشيل : « اينما ذهب الافغانى كان يترك وراءه ثورة تغلى مراجلها ولسنا نعدو الحق أو نكون مبالغين اذا قررنا أن جميع الحركات الوطنية الحرة وحركات الانتفاض على المشاريع الاوربية التى نشاهدها فى الشرق ترد أصولها مباشرة الى دعوته » (٣) .

وجدير بالذكر أن دعوة الافغانى الاصلاحية بصفة عامة هى فى مظهرها حركة سياسية ولكنها فى جوهرها حركة اسلامية حيث أن كل أفكاره ومبادئه من الوحدة الاسلامية والاخذ بالمدنية الغربية ، ومقاومة الاستعمار الاوربى ونقد حكام الممالك الاسلامية ، ونبذ الخصومة بين الشيعة والسنة ومحاربة المذهب الطبيعى ، كل هذه الآراء كانت تصدر عن فكر ومنطلق اسلامى ولغاية اسلامية ، وهذا ماجعل دعوته بمراحلها المختلفة يمكن أن يطلق عليها حركة تجديد اسلامية عصرية تختلف عن الحركات السلفية الاخرى كالوهابية والسنوسية والمهدية .

---

(١) د. محمد بديع شريف — مرجع سبق ذكره ص ٣٧ .
(٢) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ص ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٣) محمود كامل — مرجع سبق ذكره ص ٣٨٠ .

جمعية الشورى العثمانية

كان من نتيجة سياسة السلطان عبد الحميد القائمة على اضطهاد ومطاردة الأحرار العرب ان لجأ كثير منهم الى مصر فى الربع الاخير من من القرن التاسع عشر ، وقد شعروا فى مصر انهم يستطيعون أن ينعموا بالحرية التى تمكنهم من القيام بنشاطهم السياسى ، فبعد سنة ١٨٩٧ بقليل تأسست أول جمعية سياسية على أيدى زعماء من العرب المقيمين فى مصر تحت اسم « جمعية الشورى العثمانية »(١) ، وكان من مؤسسيها السيد محمد رشيد رضا ورفيق العظم ، غير ان الذى تولى رئاستها هو السيد محمد رشيد رضا (٢) ، وقد ساهم فى فاعليتها وادارتها زعماء آخرون من مختلف أنحاء الدولة العثمانية ، من ترك وأرمن وجركس ، وكان الهدف من تأسيسها الوقوف فى وجه المظالم الحميدية ، وفساد الحكم الجائر ، والعمل على تغيير شكل الحكومة الى النظام النيابى ، وكان للجمعية فروع فى أنحاء الامبراطورية ، وكانت منشوراتها تطبع بالعربية والتركية ، وترسل الى الموانىء التركية على البحر الاسود مع المسافرين وبحارة المراكب الروسية ، حيث يتسلمها مندوبون سريون ثم توزع فى جميع أنحاء الاناضول (٣) .

هذا بالاضافة الى ان مكاتب البريد الاجنبية التى انشأتها الدول الاوربية بمقتضى امتيازات حصلت عليها فى أراضى الدولة العثمانية — من أجل مخابراتها الخاصة بسبب عدم كفاية مصلحة البريد العثمانى للقيام بهذه المهمة — كانت هذه المكاتب من اضمن الوسائل لايصال صحف الاحرار ورسائلهم ومنشوراتهم من الخارج الى داخل الدولة ، حيث يتسلمها رسل سريون ويوزعونها على الشعب ، وقد ضاق عبد الحميد ذرعا بهذه المكاتب ، وصمم على اخضاعها لمراقبته ، فلما اجترأ عام ١٩٠١ على الايعاز بتفتيش أكياسها ، تظاهرت الدول بأساطيلها أمام الموانى العثمانية وأجبرت السلطان على الاعتذار والتعهد بعدم العودة الى مثل ذلك (٤) .

---

(١) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ، هامش رقم ١٢ ، ص ١٩٥ .
(٢) د. ابراهيم العدوى — رشيد رضا الامام المجاهد — الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر — القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢٢٢ .
(٣) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٧٤ — ٧٥ .
(٤) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢ .

وقد ازداد نشاط هذه الجمعية ، واصدرت فى مصر جريدة باسمها، وكان يتولى تحريرها حقى العظم (١) ، مما اقض مضجع السلطان عبد الحميد حتى انه اعترف لاحد اعوانه انه عندما سمع خبر هذه الجمعية لم ينم ثلاث ليال ، حتى اخبره احد عملائه السريين فى مصر عن الاشخاص الذين اسسوها ، وقد اطلق عليها عبد الحميد اسم « الجمعية الفاسدة » وقد حلت هذه الجمعية نفسها بعد ظهور تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ م (٢) .

على اننا نلاحظ ان اشتراك قوميات مختلفة ، منها الاتراك انفسهم فى هذه الجمعية ، وايضا الهدف الذى تسعى اليه ، ثم اختفاؤها بعد وصول تركيا الفتاة الى الحكم ، يعطينا الدليل الواضح ، على أن هذا النشاط العربى ، لم يكن بدافع قومى صرف ، بل انحصر الهدف فى تغيير الحكومة وادخال بعض الاصلاحات ، مع استمرار الارتباط بالدولة العثمانية ، وكان ذلك احد الاتجاهات العربية فى تلك الفترة ، بل يكاد يكون هو الطابع العام لهذه المرحلة من كفاح العرب .

المساعى القومية المتفرقة

(الاصلاحيون العرب)

فبالاضافة الى تلك التجمعات العربية ذات الانشطة القومية المختلفة ، كانت توجد انشطة اخرى متفرقة ذات اتجاه قومى لا يمكن تجاهلها ، قام بها بعض الافراد ممن تشربوا المبادىء الدستورية عن طريق احتكاكهم بالثقافة الغربية ذات الروح القومية فى القرن التاسع عشر ، من امثال : فرنسيس فتح الله مراش الحلبى ، واديب اسحاق ، ورزق الله حسون ، وامين الريحانى ، وجبران خليل جبران ، والياس حبالين ، وشبلى شميل (٣) ، ولويس صابونجى ، وخليل غانم ، وخليل سركيس (٤) ، وغيرهم الذين كانوا حربا على الاستبداد والحكم المطلق ، وكانوا يرون أن الاخذ بمبادىء الحرية واساليب الحكم الدستورية واجب مطلق على الحكومات ، والا حيل بينها وبين التقدم والازدهار وسعادة الشعوب ، وقد رفع هؤلاء الاحرار اصواتهم فى مواطنهم الاصلية ، وفى مهاجرهم فى مصر ولندن وباريس ، فنظموا القصائد ، ودونوا المقالات ،

---

(١) محمد عزه دروزه — مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٣ .
(٢) د. زين نور الدين زين — مرجع سبق ذكره ، هامش رقم ١٢ ، ص ١٩٥ .
(٣) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ، ص ٢١ .
(٤) د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص ٧٦ .

وأصدروا الجرائد والمجلات للتعبير عن تلك الآراء ، على الرغم مما لاقوه من اضطهاد وتغريب (١) .

غير أنه يجب الاشارة الى أن هؤلاء الاحرار لم يكونوا كلهم يطالبون بالثورة على الدولة العثمانية ، والانفصال عنها ، بل كان هناك حتى بين الكتاب المسيحيين أنفسهم بعض المعتدلين الذين — رغم كراهيتهم للحكم العثمانى والادارة العثمانية — لم يرغبوا فى تحطيم الامبراطورية العثمانية، بل كانوا يطالبون باصلاح شئونها المختلفة ، والاعتراف بحقوق العرب فى نطاق الجامعة العثمانية ، ومن بين هؤلاء سليم تقلا مؤسس الاهرام ، وفارس غر صاحب ومحرر المقطم ، والشاعر خليل مطران صاحب جريدة الجوائب ، وجورجى زيدان مؤسس الهلال ،وفرح أنطون صاحب ومحرر الجمعية العثمانية (٢) .

وقد كان لهذه الانشطة المتفرقة أثرها فى يقظة الشعور القومى ، وان اختلف حجم ذلك الاثر قلة وكثرة لعدم وجود برنامج سياسى قـــومى منظم لمعظمها ، تسعى لتحقيق أغراضه ، غير أن مالا يجب انكاره هـــو أثرها فى ايقاظ العرب من رقادهم وتنبيه افكارهم الى ضياع حقوقهم فى الدولة ، وكان أبرزهذه المساعى القومية المتفرقة ذات البرنامج السياسى فى تلك الفترة مسعيين :ماقام به المفكر العربى المسيحى «نجيب عازورى» وما قام به المفكر العربى الثائر المسلم « عبد الرحمن الكواكبى » .

وهكذا يمكن القول بأن حركة القومية العربية الوليدة بدأت تحبو على مسرح الاحداث منذ أواخر القرن التاسع عشر ، ولكن كان يعوقها عن التقدم عاملان :

أولهما — أثر الرابطة الاسلامية فى نفوس العرب .

ثانيهما — أمل العرب فى نجاح المساعى المشتركة مع أحرار الترك للقضاء على الحكم المطلق الحميدى واقامة قواعد حكومة دستورية يجد العرب والترك فيها أمانا من الظلم ، وضمانا لحقوقهم المشتركة .

---

(١) توفيق على برو — مرجع سبق ذكره ، ص ٢١ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٣ ، د. محمود صالح منسى — مرجع سبق ذكره ، ص٢٧٧ ، د. شمس الدين الرفاعى — مرجع سبق ذكره ، ص ٥٩ .

نجيب عازورى

ظهرت فى مطلع القرن العشرين حركة سياسية خطيرة كانت تهدف الى تكوين دولتين فى آسيا العربية :

الاولى — دولة دينية — على غرار الفاتيكان فى روما — عربية اسلامية مستقلة ، وتشمل اقليم الحجاز ، وتكون عاصمتها مكة ، وتحكمها أسرة عربية ، ويلقب حاكمها باسم الخليفة ، وتشمل سلطتة الروحية جميع المسلمين فى شتى انحاء الارض ، على أن يكون نفوذه السياسى مقصورا على بلاد الحجاز .

الثانية — دولة عربية علمانية ، تتمثل فى سلطنة دستورية تضم بلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) ، ويكون رئيسها أحد أفراد الاسرة الخديوية فى مصر ، تجنبا لما قد يحدث من نزاع بين الطوائف على اختيار هذا السلطان الجديد ، على أن تسير هذه الدولة على المبادىء العصرية المستقاة من الحضارة الاوربية الغربية .

وقد تزعم هذه الحركة « نجيب عازورى » الذى كان يمثل وجهة نظر مسيحى الشام القوميين (١) الذين ترددوا فى دفع فكرة القومية العربية بمعناها الشامل لمفهوم الامة العربية خوفا من أن تتكشف القومية العربية بهذا المعنى عن شكل جديد من اشكال السيطرة الاسلامية ، لذا رأوا « أن يصبوا فى قالب مفهومهم للعروبة محتوى مفهومهم للبنان أو لسوريا فيحلموا بأمة عربية تكون منفصلة عن أساسها الدينى ، وتضم — بدون اى وجه من وجوه التفريق — المسلمين والمسيحيين جميعا ، وتتمتع بحماية رؤوفة من قبل أوربا الليبرالية » (٢) .

كان نجيب عازورى — العربى المسيحى السورى — يتولى منصب نائب متصرف القدس بين عامى ١٨٩٩ و ١٩٠٤ ، ثم استقال من منصبه اثر خلاف وقع بينه وبين رئيسه كاظم بك متصرف القدس ، بسبب سوء الادارة العثمانية ، وقام بعد استقالته بجولة فى مدن الشام لمدة شهرين ، يدعو فيها الى انشاء حزب سياسى جديد أسماه « رابطة الوطن العربى »

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى — الوحدة العربية ص ص ٣٠ — ٣١ .
(٢) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣١ .

الا أن نشاطه اقلق السلطات التركية ، ومن ثم سارع بالهجرة من الشام الى فرنسا (١) ، ثم الى القاهرة حيث أقام الى أن توفى عام ١٩١٦م .

وقد بدأت دعوته فى باريس سنة ١٩٠٤ ،حين أسس — بالاشتراك مع يوجين يونج (أحد موظفى مصلحة الاستعمار الفرنسى السابقين) — رابطة الوطن العربى ، التى كانت تهدف الى تحرير الشام من السيطرة التركية ، وقد وجهت هذه الرابطة نداءات حارة متتالية الى العرب تحضهم على الثورة (٢)

وفى عام ١٩٠٥ نشر عازورى أفكاره باللغة الفرنسية فى كتاب بعنوان « يقظة الامة العربية أمام مصالح ومنافسات الدول الاجنبية » . وقد أعرب فى هذا الكتاب عن رأيه فى وجود أمة عربية واحدة تضم المسلمين والمسيحيين على قدم المساواة ، وتشمل جميع الاقاليم العربية فى آسيا « دون بلدان مصر وشمال أفريقيا ، التى كانت واقعة خارج نطاق اهتمامه كقومى عربى ، فمصر لم تكن فى نظره عربية بكل معنى الكلمة » (٣) ، وقد دعا الى استقلال هذه الامة فى نطاق تلك الحدود ، كما هاجم عازورى — فى كتابه — الطائفية واعتبرها خطرا يهدد الحركات القومية بالقضاء عليها من أساسها ، ورأى أن المشاكل الدينية التى تنشأ بين مختلف الطوائف ليست سوى مشاكل سياسية تثيرها الدول الاجنبية فى سبيل مصالحها الخاصة ، وأن المسيحيين ليسوا أقل عروبة من المسلمين (٤) ، الامر الذى دفعه الى الدعوة الى انشاء دولة دينية يحكمها خليفة عربى فى الحجاز ، واخرى علمانية فى الشام ، وهذا — فى رأيه — حل يرضى الجميع : يرضى المسلمين الذين تهفو أفئدتهم الى نظام الخلافة الاسلامية الصحيحة بعد انتزاعها من الاتراك ، الذين اغتصبوها من العرب ، ويقضى على مخاوف المسيحيين على اختلاف مذاهبهم ، واليهود فى الشام بعدم خضوعهم للنظم الاسلامية فى هذه الدولة الجديدة التى كان يرى أن تقتصر على الشام فقط ، دون مصر أو العراق ، لانه كان يخشى قيام وحدة سياسية كبيرة فيتحول مسيحيو الشام فيها الى أقلية ، (٥) وبذلك تظهر نزعة عازورى الاقليمية السورية على الرغم من تنديده أكثر من مرة بالطائفية وخطرها على الوحدة العربية .

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى — الوحدة العربية ، ص ٣١ .
(٢) جورج انطونيوس — مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٢ .
(٣) البرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٢ .
(٤) د. نور الدين حاطوم — مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ .
(٥) د. عبد العزيز الشناوى — مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣١ — ٣٢ .

وقد قدم عازورى عام ١٩٠٥ مذكرة الى الدول ، ونشرها فى صدر كتابه ، قال فيها : ان القومية العربية حقيقة واقعة ، وان الوعى العربى قد انتشر بين العرب ، وهم يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية ، وتأسيس دولة مستقلة خاصة بهم ،وأعلن استعداد العرب — عند قيام هذه الدولة — أن يحترموا المصالح الاجنبية وجميع الامتيازات التى منحها الاتراك ،وأن يحترموا استقلال لبنان الداخلى والاماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين ، وكذلك استقلال الامارات العربية فى جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج (الفارسى) ، كما أعلن انه لا يطالب الدول الكبرى بالتدخل المسلح لتأييد تلك الحركة ، وانما كل ما يرجوه منها هو مجرد الوقوف على الحياد وتشجيع العرب وجدانيا على أن يقوم العرب بتحقيق أهدافهم بأنفسهم (١)

ولعل مما يلفت النظر اهتمام عازورى بمسألة الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وتنبيهه الى خطر المطامع الصهيونية فى ذلك القطر العربى ، ولعل وجوده فى متصرفية القدس مدة خمس سنوات جعله يولى هذه المسألة جزءا من اهتمامه فى كتابه يقظة الامة العربية ، وقد وعد باصدار كتاب خاص بهذه المسألة ، غير انه وان لم يفعل ذلك فقد خصص فصلا مستقلا فى كتابه عن اليقظة العربية فى فلسطين ، واتهم الحكومة العثمانية بالتهاون فى منع تسلل الهجرة اليهودية الى فلسطين (٢) ، ولفت الانظار الى أن اليهود قد شرعوا فى ذلك الوقت فى تأسيس مستعمرات زراعية لهم بين الجليل وحبرون والحولة (٣) وقد ذكر فى تحذيره من المطامع الصهيونية فى فلسطين قائلا : « تبرز فى هذه الآونة فى تركيا الأسيوية ظاهرتان خطيرتان متناقضتان على وحدة طبيعتهما هما : يقظة الامة العربية ، وسعى اليهود الخفى لاعادة ملك اسرائيل القديم على نطاق واسع ، انه مكتوب لهاتين الحركتين ان تتصارعا باستمرار ، حتى تتغلب الواحدة على الاخرى ، وعلى نتيجة هذا الصراع الاخير ... يتوقف مصير العالم أجمع » (٤) ، على أن عازورى قد ألمح فى وقت لاحق « الى أن انشاء المستعمرات والمصارف اليهودية يؤدى الى تقوية القومية العربية بفضل

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٣٢ — ٣٣ .

(٢) هذه التهمة مجافية للحقيقة ، وللرد عليها انظر موقف السلطان عبد الحميد الثانى من الحركة الصهيونية وتشدده فى رفض مطالب الصهيونيين فى الفصل الخاص بالسلطان عبد الحميد .

(٣) د. عبد العزيز الشناوى — الوحدة العربية ص ٣٣ .

(٤) ألبرت حورانى — مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٣ .

، وانظر نور الدين حاطوم — مرجع سبق ذكره ص ص ١٧ — ١٨ .

مصالح اقطاب المال فى العالم » (١) وهذا يدل على مدى التناقض الفكرى عند عازورى .

وقد اعتقد عازورى أن فى استطاعة أوربا حماية العرب من هـذا الخطر الصهيونى أكثر مما تستطيعه الدولة العثمانية ، كما لاحظ ايضا أن بعض قناصل الدول الاوربية يعملون أحيانا على تسهيل عمليات الهجرة اليهودية دون وجود هدف سياسى لهم ، وذلك بسبب انخداعهم بالفكرة الانسانية التى يتستر اليهود وراءها (٢) .

وفى سنة ١٩٠٧ فى باريس لصدر عازورى بالاشتراك مع بعض الكتاب الفرنسيين المشهورين الذين استطاع أن يستميلهم اليـه ، وأن يكسب تعاونهم ـ أصدر معهم بالفرنسية مجلة شهرية اسمها « الاستقلال العربى » بهدف نشر المعرفة عن البلاد العربية ، واثارة الاهتمام بقضية تحريرها ، وقد ظهر العدد الاول منها فى ابريل سنة ١٩٠٧ ، ثم ترقفت عن الصدور حين أعلن الدستور العثمانى فى يوليو سنة ١٩٠٨ م (٣) .

وعلى الرغم من أن دعوة عازورى قد اثارت شيئا من الاهتمام فى أوربا فى ذلك الوقت ، ولكن أثرها فيما يختص بالحركة القومية العـربية لا يكاد يذكر ، ذلك أن نشاطها ومقرها كان فى باريس وباللغة الفرنسية ، كما أن صاحبها كان داعية للدول الغربية (انجلترا وفرنسا) اذ لم يخل كتابه من تمجيد لهما ، فكان لذلك مجلبة للشك والريبة (٤) ، الامر الذى ادى الى فقد دعوته فاعليتها ، فلم تنفذ الى أعماق الحركة القومية ، اذ لم يكن أحد من الشباب العرب ـ كما يؤكد الأمير مصطفى الشهابى ـ يهتم بكتـابه (٥) .

على أن قيمة هذه الدعوة تكمن فى أنها قدمت لنا المثل الحى على ما ترتب على التعليم الأجنبى من انحراف بعض دعاة الثورة العربية عن منبعها الاصيل ، كما تمثل اتجاهات فئة معينة من فئات الشعب العربى المسيحى فى لبنان ، فلا غرابة ان اتفقت هذه الدعوة مع وضع صاحبها كما رونى لبنانى .

---

(١) البرت حورانى ـ مرجع سبق ذكره ص ٣٢٣ .
(٢) د. عبد العزيز الشناوى ـ الوحدة العربية ، ص ٢٣ .
(٣) جورج انطونيوس ـ مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .
(٤) توفيق برو ـ مرجع سبق ذكره ، ص ٧٤ .
(٥) الامير مصطفى الشهابى ـ مرجع سبق ذكره ، ص ٥٩ .

عبد الرحمن الـكواكبى

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان العالم العربى يموج بتيارين فكريين متصارعين : **التيار الفكرى الاسـلامى** الذى يدعو الى وحدة المسلمين (الجامعة الاسلامية) فى مواجهة الخطر الاوربى الزاحف عليهم ، وكان الافغانى هو روح حركة الجامعة الاسـلامية ، وقد تبنى هذه الحركة والقى عليها صبغة الحركة العملية السلطان عبد الحميد الثانى — كما سبق أن ذكرنا — وقد أيدها بعض المفكرين والزعماء من امثال شكيب ارسلان ورشيد رضا ورفيق العظم ومصطفى كامل . **والتيار الفكرى القومى** الذى تنادى اليه مسيحيو الشام ، ويطلق عليهم القوميون المسيحيون العرب ، وقد تبلور هذا التيار فى ظهور جمعية بيروت السرية سنة ١٨٧٥ التى كانت ايذانا بمولد الحركة القومية العربية الحديثة ، ذلك أنها كانت أول تعبير عن الاهداف السياسية اذ دعت الى فكرة الدولة الوطنية الحديثة المستقلة سياسيا والقائمة على أساس قومى ، وقد ظلت هذه الحركة تحبو متعثرة ولم تستطع تحقيق أعدافها لعدة عوامل من ابرزها انه لم يكن من المتصور أن يقود المسيحيون — وهم قلة عددية فى وسط محيط اسلامى — حركة ثورية تهدف الى تحرير العرب وتخليصهم من ربقة الحكم التركى ، وانفصالهم عن السلطان العثمانى الذى كان خليفة المسلمين ، فى وقت كانت فيه المجتمعات لا تزال تحمل الطابع الاسلامى ، فكانت العاطفة الدينية تسيطر على افئدة الملايين دون أية اعتبارات اخرى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن كون قيادة هذه الحركة القومية مسيحية ، فقد ظهرت نعرتها الطائفية لانها كانت ردا على حركة الجامعة الاسلامية ، مما دفع المستعمرين الاوربيين الى تأييدها فأحاطت بها الشكوك من يمين وشمال ، الامر الذى جعل المسلمين ينفرون منها ويمتنعون عن تأييدها .

فى تلك الفترة ظهر المفكر العربى المسلم عبد الرحمن الكواكبى — الجلبى المولد — الذى هاجر الى مصر سنة ١٩٠٠ فرارا من طغيان السلطان عبد الحميد ، ومن مطاردة السلطات العثمانية له فى سوريا ، وفى مصر جاهر الكواكبى بآرائه وافكاره التى كانت تنم عن ايمان عميق بمستقبل الاسلام والعنصر العربى ، والتى كانت نقطة تحول فى الفكر القومى العربى الحديث ، ذلك أن مفهوم القومية العربية لدى الكواكبى كان يرتكز على أمجاد العرب وتراثهم الخالد ، وينأى عن التعصب الجنسى او الدينى ، فلم تكن قضية العروبة — عنده — تناقض الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، ولا كانت الخلافة الاسلامية أمامه هدفا يعاديه او يبتغى

النيل منه ، بل كان جل اهتمامه انه لم يعلق على الخلافة العثمانية مستقبل العرب ، ولا مستقبل المسلمين ، ورأى أن نهضة العرب واستقلالهم هما السبيل الى نهضة الاسلام والمسلمين ، وعلى الرغم من كونه مجددا اسلاميا سلفيا ، فانه لم يكن متعصبا ، فقد كانت القومية العربية التى نادى بها وراد لها الطريق قومية عربية أساسها الايمان بالله على أى دين يعبد ، فالدين عنده لله والوطن للجميع ، ومن ثم فقد التفت القلوب حولها . وقد عبر الكواكبى عن آرائه فى كتابيه طبائع الاستبداد وأم القرى : ففى طبائع الاستبداد — هاجم الكواكبى الاستبداد والمستبدين ، وتعرض لاسباب الاستبداد ومساوئه ، وأبرز تأثيره الفاسد فى كل القيم الانسانية كالدين والعلم والمال والاخلاق والمجد والترقى ، حيث ربط ربطا وثيقا بين فساد هذه القيم وبين الاستبداد كعامل له اثره الضار والمفسد ، ورغم أن الكواكبى لم يذكر مستبدا معينا الا أن القارىء يلمح من خلال كتابه صورة السلطان عبد الحميد الثانى (١) . وفى كتابه أم القرى حلل الكواكبى مفاسد الدولة العثمانية وانتقد ادارتها المركزية وأنكر على السلاطين تلقبهم بالقاب الخلافة لانها غير شرعية بالنسبة لهم ، ودعا الى عودة الخلافة الى العرب . وذلك باقامة خلافة عربية قرشية فى مكة (٢) . ولكن على الرغم من أن الكواكبى قد نادى — شأنه شأن الافغانى — بجمع المسلمين بين مراكش والصين فى نظام اتحادى واحد كالجامعة الاسلامية الا أن دعوة الكواكبى انطوت على تطور قومى عربى ، فقد اخذ يشيد بفضل العرب ، وبيان حقوقهم المهضومة وكان يرى ان نهضة المسلمين لن تتم الا بنهضة العرب فهم الذين نهضوا بالمسلمين اولا ، فلا عجب اذا قاموا بدورهم التاريخى والدينى فى انهاض المسلمين ثانيا (٣) ، فعلى الرغم من تشابه دعوة الافغانى والكواكبى فى الدعوة الى وحدة المسلمين فاننا نجد الافغانى يدعو الى وحدتهم تحت أى خليفة ، بينما كان الكواكبى ينادى بخليفة عربى قرشى فى مكة ، وليس معنى هذا ان الكواكبى كان متعصبا دينيا أو جنسيا بل على العكس كان يدعو الى نبذ الخلافات الطائفية والحصول على الاستقلال الادارى لكل القوميات الداخلة فى الامبراطورية العثمانية ، ولذلك فقد كان له أصدقاء من المسلمين ومن المسيحيين ومن اليهود . وكان يعلن دائما أن الدين لله

---

(١) انظر طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد — المطبعة العمومية ، القاهرة ١٣٢١هـ

(٢) أم القرى المطبعة العصرية — حلب ، ١٩٥٩ م . ص ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ .

(٣) المصدر السابق ص ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ .

والوطن للجميع ، ويسمو بذلك على الخلافات الطائفية والمذهبية (١) .
ومن ثم قام الكواكبى بدور بارز فى اليقظة العربية والاسلامية الحديثة لانه بدعوته تلك نقل قيادة زمام الحركة العربية من أيدى المسيحيين الى أيدى المسلمين ، الامر الذى مهد لازدهار الحركة القومية العربية بعد وفاة الكواكبى فى مصر سنة ١٩٠٢ ، وكان ذلك تمهيدا للنشاط القومى العربى فى عهد الاتحاديين ، ذلك النشاط الذى كان يعتبر البذور الحقيقية للثورة العربية سنة ١٩١٦ م .

وبالله التوفيق ومنه العون .

* * *

---

(١) مارون عبود — رواد النهضة الحديثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

، جرجى زيدان — تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر — جزءان — مطبعة الهلال ، مصر ١٩٢٢ ج ١ ص ٣٢٤ .

المصـــادر والمراجـــع

أولا — المخطوطات :

أ — ابن الحمصى (أحمد بن عمر بن ابراهيم الانصارى) — حوادث الزمان وأنباؤه ووفيات الاعيان وأبناؤه — مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٣٩ تاريخ .

٢ — ابن الوكيل (يوسف افندى بن محمد الملوى) تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنـــواب — مخطــوطة بمكتبـــة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٨ تاريخ .

ثانيا — وثائق منشورة :

٣ — رسالة السلطان عبد الحميد الثانى الى الشـــيخ محمـــود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية فى دمشق بتاريخ ٢٢ ايلول سنة ١٣٢٩ هـ — يوضح له فيها سبب خلعـــه عن العرش — المنشورة بمجلة العربى عدد ١٦٩ (شوال ١٣٩٢هـ/ ديسمبر ١٩٧٢ م) .

٤ — القانون الاساسى العثمانى فى ممالك الدولة العثمانية (دستور سنة ١٨٧٦) ، المنشور فى كتاب « البـــلاد العربية والدولة العثمانية » لساطع الحصرى .

٥ — معاهدة الامتيازات الاجنبية المعقودة بين السلطان سليمان المشرع وفرنسوا الاول ملك فرنسا ، المنشورة فى كتاب تاريخ الدولة العثمانية لمحمد فريد بك .

ثالثا — المصادر والمراجع المطبوعة :

٦ — ابراهيم (بك) حليم — التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ط ١ ، القاهرة ١٩٠٥ م .

٧ — ابراهيم العدوى (دكتور) — رشيد رضا الامام المجاهد (سلسلة اعلام العرب عدد ٣٣) .

٨ — ابن اياس (محمد بن أحمد بن اياس الحنفى المصرى) — بدائع الزهور فى وقائع الدهور (ثلاثة أجزاء) ط ١ بولاق ١٣١١ هـ ، ونسخة أخرى مجلد واحد طبع القاهرة ١٩٦٠ م .

٩ — ابن بطوطة — تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار، ج ١ بولاق ١٩٣٤ م .

١٠ — ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (١٦ جزء) ج ١٦ تحقيق د. جمال الدين الشيال ، فهيم محمد شلتوت ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢ م .

١١ — ابن زنبل (الشيخ أحمد الرمال) آخرة المماليك واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٢ م .

١٢ — ابن العماد (عبد الحى بن العماد الحنبلى) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٨ أجزاء) طبع القاهرة ١٣٥١ هـ .

١٣ — أحمد أمين — زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ؛ النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .

١٤ — أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) — حركة التجديد الاسلامى فى العالم العربى الحديث (من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية) القاهرة ١٩٧١ م .

١٥ — ارنست رامزور — تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ — ترجمة د. احمد صالح العلى ، دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٠ م .

١٦ — الاسحاقى (محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح ...) لطائف اخبار الاول فيمن تصرف فى مصر من ارباب الدول ؛ القاهرة ١٣١٥ هـ

١٧ — البرت حورانى — الفكر العربى فى عصر النهضة — ترجمة كريم عزقول — دار النهار — بيروت ١٩٦٨ .

١٨ — أنور الجندى — يقظة الفكر العربى فى مواجهة الاستعمار — الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

١٩ — انيس الخورى المقدسى — الاتجاهات الادبية فى العالم العربى الحديث (جزءان) من منشورات جامعة بيروت الامريكية . ط ١ ، ١٩٥٢ م

٢٠ — بيير رنوفان — تاريخ العلاقات الدولية (١٨١٥ — ١٩١٤) ؛ ترجمة د. جلال يحيى — دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨ .

٢١ — توفيق على برو — العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ، (١٩٠٨ — ١٩١٤) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٢٢ — الجبرتى — عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، (سبعة أجزاء) ط ١ ، لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٦٤ م .

٢٣ — جرجى زيدان — تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر (جزءان) مطبعة الهلال مصر ١٩٢٢ .

٢٤ — جلال يحيى (دكتور) — العالم العربى الحديث (المدخل) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

٢٥ — جمال الدين الشيال (دكتور) — رفاعة الطهطاوى (لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ، سلسلة أعلام الاسلام عدد نوفمبر ١٩٤٥ م) .

٢٦ — جورج انطونيوس — يقظة العرب — ترجمة د. ناصر الدين الاسد ، د. احسان عباس ، دار العلم للملايين ، ط ٢ بيروت ١٩٦٦ م .

٢٧ — جيبون — ادوارد — اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة د. محمد سليم سالم) ٣ أجزاء (، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٩ .

٢٨ — حسن صبرى الخولى (دكتور) ، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الاول من القرن العشرين (مجلدان) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٣ م .

٢٩ — حسن عثمان (دكتور) — منهج البحث التاريخى ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٠ م .

٣٠ — حسين لبيب — تاريخ المسألة الشرقية ، القاهرة ١٩٢١ .

٣١ — حسين مؤنس — الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، ط ٢ ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٣٨ .

٣٢ — زين نور الدين زين (دكتور) — نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية فى العلاقات العربية التركية ط ٢ ، دار النهار ، بيروت ١٩٧٢ .

٣٣ — ساطع الحصرى — البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٢ دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٣٤ — ساطع الحصرى — محاضرات فى نشوء الفكرة القومية — مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٥١ .

٣٥ — سامى عزيز (دكتور) — الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨م .

٣٦ — سليمان حزين (دكتور) — صفحات من تاريخ الاستعمار — (من مطبوعات وزارة الارشاد القومى) ، القاهرة بدون تاريخ .

٣٧ — سليمان بن خليل بن بطرس — التحفة السنية فى تاريخ القسطنطينية ، بيروت ، ١٨٨٧ .

٣٨ — سيديو — تاريخ العرب العام — ترجمة عادل زعيتر ، ط ٢ عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

٣٩ — شمس الدين الرفاعى (دكتور) — تاريخ الصحافة السورية (الصحافة السورية فى العهد العثمانى ١٨٠٠ — ١٩١٨) جـ ١، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ .

٤٠ — صلاح العقاد (دكتور) — التيارات السياسية فى الخليج العربى، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ .

٤١ — عبد الرحمن الرافعى — الثورة العرابية ، ط ٢ النهضة المصرية ١٩٤٩م .

٤٢ — عبد الرحمن الرافعى — عصر اسماعيل (جزءان) — النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ .

٤٣ — عبد الرحمن الرافعى — عصر محمد على ، ط ٣ — النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥١ .

٤٤ — عبد الرحمن الكواكبى — أم القرى — المطبعة العصرية ، حلب ، ١٩٥٩ .

٤٥ — عبد الرحمن الكواكبى — طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، القاهرة ١٩٠٣ م .

٤٦ — عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم — الدولة السعودية الاولى — (من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية) القاهرة ، ١٩٦٩ م .

٤٧ — عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) — تاريخ العراق الحديث

من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشـــا ـ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ .

٤٨ ـ عبد العزيز الشناوى (دكتـــور) ـ أوربا فى مطلع العصـــور الحديثة ، جـ ١ دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ .

٤٩ ـ عبد العزيز الشناوى (دكتور) ـ حادث جريدة البوســـفور اجيبسيان ، المجلد التاسع ، من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٢ .

٥٠ ـ عبد العزيز الشناوى (دكتور) ـ دور الازهر فى الحفاظ عـــلى الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى (من أبحاث النـــدوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس ـ ابريل ١٩٦٩) مطبعـــة دار الكتب ١٩٧١ .

٥١ ـ عبد العزيز الشناوى (دكتور) ـ صور من دور الازهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر (من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٩٦٩) مطبعة دار الكتب ١٩٧١

٥٢ ـ عبد العزيز الشناوى (دكتور) ـ الوحـــدة العربية فى التاريخ الحـــديث والمعاصر ، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، المجلد السابع ، العدد الاول ، ديسمبر ١٩٦٣ .

٥٣ ـ عبد الكريم غرايبة (دكتور) ـ سوريا فى القرن التاسع عشر ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

٥٤ ـ عمر الاسكندرى وسليم حسن ـ تاريخ مصر من الفتح العثمانى الى قبيل الوقت الحاضر ، ط ٦ ، مطبعة المعـــارف بالفجالة بالقاهرة ١٩٢٤ م .

٥٥ ـ عمر طوسون (الامير) ـ البعثات التعليمية فى عهد محمد على ، ثم فى عهد عباس وسعيد ، الاسكندرية ١٩٣٤ .

٥٦ ـ عيسى اسكندر المعلوف ـ تاريخ الامير فخر الدين المعنى الثانى ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٦ .

٥٧ ـ الغزى (الشـــيخ نجم الدين بن بدر الدين ... الغـــزى) ـ الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (٣ أجزاء) تحقيـــق جبرائيل سليمان جبور ، المطبعة الامريكية ، بيروت ١٩٤٥ .

٥٨ ـ القرمانى (أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقى) أخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ ، طبع حجر ، بغداد ١٢٨٢ هـ .

٥٩ — كامل بن حسين ... البالى الحلبى (الشـــهير بالغزى) — نهر الذهب فى تاريخ حلب (٣ أجزاء) المطبعـــة المـــارونية بحلب ١٩٢٦ م .

٦٠ — لوثروب ستودارد — حاضر العالم الاسلامى ، ترجمـــة عجاج نويهض ، تعليق الامير شكيب ارسلان ، أربعة مجلدات ، مكتبة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

٦١ — مارون عبود — رواد النهضة الحديثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ .

٦٢ — محمد انيس (دكتور) — الدولة العثمانية والشرق العـــربى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ .

٦٣ — محمد انيس ، السيد رجب حراز (دكتوران) الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، دار النهضة العربية ، القـــاهرة ، ١٩٦٧ م .

٦٤ — محمد بديع شريف ، زكى المحاسنى ، احمد عزت عبـــد الكريم (دكاترة) — دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ، الانجلو المصرية ، القاهرة بدون تاريخ .

٦٥ — محمد جلال كشك — القومية والغزو الفـــكرى — ط ٢ ، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٧٠ .

٦٦ — محمد رفعت رمضان — على بك الكبير — دار الفكر العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٦٧ — محمد شفيق غربال — محمد على الكبير — لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ، سلسلة أعلام الاسلام ، عدد ٨ (أكتوبر ١٩٤٤) .

٦٨ — محمد شفيق غربال — منهاج مفصل لدروس العوامل التاريخية فى بناء الامة العربية على ما هى عليه اليوم ، من مطبـــوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦١ .

٦٩ — محمد عزه دروزه — نشأة الحركة العربية الحديثة ، المـــكتبة العصرية ، بيروت ١٩٧١ .

٧٠ — محمد عماره — الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغـــانى ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ .

٧١ — محمد عماره — العروبة فى العصر الحديث ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .

٧٢ — محمد فؤاد شكرى (دكتور) — مصر والسودان(١٨٢٠—١٨٩٩) ط ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣ .

٧٣ — محمد فؤاد كوبريلى — قيام الدولة العثمانية — ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .

٧٤ — محمد فريد (بك) — تاريخ الدولة العلية العثمانية — دار الجيل، بيروت ١٩٧٧ .

٧٥ — محمد كمال الدسوقى (دكتور) — الدولة العثمانية والمسألة الشرقية — دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٦ م .

٧٦ — محمود أبو رية — جمال الدين الافغانى — مطبوعات المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، لجنة التعريف بالاسلام عدد ٣١ القاهرة ١٩٦٦ .

٧٧ — محمود صالح منسى (دكتور) — حركة اليقظة العربية فى الشرق الاسيوى ، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٧٢ ، ط ٣ نفس الناشر ١٩٧٨ .

٧٨ — محمود كامل — الدولة العربية الكبرى ط ٢ — دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٧٩ — مصطفى الخالدى ، عمر فروخ (دكتوران) التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ، ط ٤ المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٧٠ .

٨٠ — مصطفى الشهابى (الامير) — القومية العربية — تاريخها وقوامها ومراميها — مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ط ٢ القاهرة ١٩٦١ .

٨١ — نور الدين حاطوم (دكتور) — محاضرات عن المراحل التاريخية للقومية العربية ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٣ .

٨٢ — وليم موير (السير) تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ط ١ مطبعة المعارف بالقاهرة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

رابعــا ــ الدوريات :

٨٣ ــ مجلة العربى ، العدد ١٦٩ شوال ١٣٩٢ هـ / ديسمبر ١٩٧٢ .
٨٤ ــ العروة الوثقى (مجموعة) ط ١ ، دار العرب ، القاهرة ١٩٥٧.
٨٥ ــ المنار ، مجلد (١٠) جزء (٣) .

* * *

يوجد بتر من أصل المصدر

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
٢ — الرقابة على الصحف والمطبوعات (١٢١) — ٣ — ضرب القوميات والطوائف بعضها ببعض (١٢٣) — ٤ — استغلال ما بين الدول الكبرى من تنافس (١٢٣) — سياسة عبد الحميد الاسلامية (١٢٤) — التقاء عبدالحميد والافغانى حول الجامعة الاسلامية (١٢٥) — الاسس التى قامت عليها حركة الجامعة الاسلامية : أ — الخلافة (١٢٧) — ب — الحج وسكة حديد الحجاز (١٣٠) .	
الفصل التاسع — نشاة الحركة القومية العربية فى العصر الحديث	١٣٤ — ١٥٧
تمهيد (١٣٤) — العوامل التى ساعدت على ظهور الفكرة القومية العربية فىالعصر الحديث(١٣٧) — **أولا** — الترابط العربى فى ظل الحكم العثمانى (١٣٧) — **ثانيا** — التغييرات التى طرأت على العالم العربى فى القرن التاسع عشر (١٣٩) — **ثالثا** — البعثات التنصيرية (١٤٠) — **رابعا** — النهضة العلمية (١٤٤) — **خامسا** — الصحافة (١٤٧) — **سادسا** — الجمعيات : (أ — جمعية الآداب والعلوم — ب — الجمعية الشرقية — ج — الجمعية العلمية السورية — د جمعيات أخرى) (١٥٢) .	
الفصل العاشر — مظاهر الحركة القومية العربية القرن التاسع عشر	١٥٨ — ١٨٥
الظروف والاتجاهات التى احاطت بنشاة الحركة القومية العربية (١٥٨) — جمعية بيروت السرية سنة ١٨٧٥ : (نشاةالجمعية — منشورات الجمعية) (١٦٥) — الافغانى وحركة الجامعة الاسلامية (١٦٩) — جمعية الشورى العثمانية (١٧٦) — المساعى القومية المتفرقة (الاصلاحيون العرب) (١٧٧) — نجيبعازورى(١٧٩) — عبد الرحمن الكواكبى (١٨٣) .	
المصادر والمراجع (١٨٧)	
الفهـــــــرس (١٩٥)	

رقم الايداع بدار الكتب ٧٩/٤٢٨٩
الترقيم الدولى ٩ — ٨٠ — ٧٣٠٨